الموقف الأدبي



271



الثقافة الجديدة

رئيس التحرير: د. غانم حمدون

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

271

العددان ٨ آب ـ ٩ أيلول ١٩٩٦

محتويات العدد

أدب وفن

- لوحة الغلاف الأمامي للفنان بشير : «المرسم»
- لوحة الغلاف الخلفي للفنان بالدين أحمد : «المدينة الخيالية»

من المحرر

ليتسع الحوار ويتعمق

في الشهر المنصرم فارق الحياة د.رحيم عجينة. وبرحيله المحزن فقدت الصحافة الشيوعية واحداً من الذين عملوا في تحريرها، واغنوها بنتاج القلم. فغداة ثورة ١٤ تموز عمل في هيئة تحرير مجلة «المثقف»، وفي أوائل السبعينات كان عضواً في هيئة تحرير «الثقافة الجديدة». ثم ساهم في تحرير «طريق الشعب». وبغيابه فقد الحزب الشيوعي، والمعارضة العراقية، محاوراً ديمقراطياً دائب الانشغال بهموم العراق ومصائره. وعلى قلة ما نشر الفقيد، فإن القارىء النزيه قد يختلف مع طروحاته، لكنه لا يستطيع المرور عليها «مرور الكرام».فهي تصدر عن ثقافة واسعة، وتحليل جاد بأسلوب لا تشوبه الركاكة والعموميات والانشائية المملة. فما احوج «الثقافة الجديدة» الى مساهمة رحيم إذ تدشن الحوار، الذي تطمح الى توسيعه وتعميقه، حول الموضوعات التي طرحتها اللجنة المركزية للنقاش تحضيراً للمؤتمر السادس للحزب الشيوعي الذي ناضل في صفوفه زهاء نصف قرن*.

* * *

نشرت المجلة في العدد السابق الموضوعات المطروحة للنقاش تحت شعار « لنحشد الطاقات من أجل رفع الحصار عن شعبنا، الخلاص من النظام الدكتاتوري واقامة العراق الديمقراطي الفدرالي الموحد».وفي العدد الحالي خمس مساهمات تختلف في قراءة

* تأمل ث.جـان تقدم لقرائها ملفاً عن الفقيد.

الموضوعات التي تناولت طائفة واسعة من واقع العراق ومستقبله في اطار ما يحيطه، اقليمياً ودولياً، فضلاً عن تجربة الحزب في التجديد وممارسة الديمقراطية منذ مؤتمره الخامس. وثمة حاجة الى توسيع نطاق الحوار ليمتد الى خارج تيار اليسار، ليشمل الأوساط التي تريد بديلاً ديمقرطياً لا يستوي بغير ثقافة الحوار بعيداً عن احتكار الحقيقة ونزعة الاستئثار والتكفير.

وفي العدد ايضاً يطرح الباحث هادي العلوي على الشيوعيين خططه في «التنظيم المشاعي للمجتمع» مخالفاً قناعة أكثرهم بضرورة الديمقراطية السياسية لتقدم المجتمع ، وهذه الضرورة ماثلة بكل وضوح عند د. مجيد الراضي الذي كتب ملاحظات عن الثورة الاشتراكية وعن الدولة الوطنية والاندماج في النظام الرأسمالي العالمي ، وذلك في معرض مناقشة بعض ما تناول ملف «ظاهرة العولمة» في العدد ٢٦٩. أما الحلقة الثالثة من دراسة د. ثائر كريم تتناول النخبة في التراتبات الاجتماعية في العالم العربي . بينما ترجم د. عدنان عاكف لمحة عن العلاقات الاجتماعية والسياسية في بابل بين القرنين السابع والرابع ق.م.

في ركن « أدب وفن » ثلاث مقالات في نقد روايات « الرجع البعيد» لفؤاد التكرلي، و « زنقة بن بركة» لمحمود سعيد، و« الحرب في حي الطرب» لنجم والي كتبها على التوالي زملاؤهم جنان جاسم حلاوي، وسلام ابراهيم وكريم حسين. وثمة متابعتان لمسرحية «الموت والعذراء» وكتاب عبد الغني الخليلي « سلاماً يا غريب» كتبهما الشاعران مهدي محمد علي وسلام صادق. وفي الختام خمسة نصوص لصلاح الحمداني ، واصف الشنون، صباح ره نجده، عبد جعفر وحمودي عبد محسن.

اوائل تموز

١٩٩٦

ترسيخاً لنهج الديوقراطية

د.صادق البلادي

بين تأسيس حشع عام ١٩٣٤ وبلوغه الخمسين عاماً لم تعقد سوى ثلاثة مؤتمرات وثلاثة كونفرنسات. ولا يمكن الزعم أن ما ساد العراق من جو ارهابي هو وحده سبب ذلك بل ان الفهم البلشفي الستاليني للحزب ولقيادة الحزب له دور كبير ايضاً في عدم التقيد بالنظام الداخلي. وبعد المؤتمر الخامس يجري لأول مرة التقيد بالنظام الداخلي. فالكونفرنس الرابع انعقد في موعده والتحضيرات للمؤتمر السادس قد بدأت لينعقد في وقته المحدد. وهذه بشارة خير تدعو للارتياح وتتطلب المتابعة والرقابة كي تصبح عادة لا يسهل التخلي عنها واهمالها. وها هي الموضوعات الأساسية قد طرحت للنقاش. والجو الديمقراطي الحر في صحافة الحزب، الذي يوفر علنية النقاش وحريته، يتيح لرفاق الحزب واصدقائه الاسهام بما يدقق ويغني الموضوعات المطروحة، ولا عذر لمن يقصر في الاسهام. ورغم ان الموضوعات تحضّ على النقاش وتشرّع بابه واسعاً إلا أنه ورد فيها ملاحظة لا تصب في هذا الاتجاه. فقد اشارت الى البعض الذي (يعبر عن قلقه وشكوكه في امكانية الحزب او قدرته على مواصلة نهجه التجديدي وخشيته من التراجع عن هذا المسار.....) فهي اشارة في غير موضعها ولا تسهم في التعبئة لتأصيل هذا المسار الذي بدأ وهو مثقل بالتقاليد والتربية الحزبية البيروقراطية. فالقلق والشكوك، وهي مع الأسف لدى البعض فقط، ليست نابعة من سوء نية ولا عن يأس وقنوط بل نتيجة قناعة تامة بان كل منظمة تحمل ارثاً من التبقرط وبها نزوع للاستبداد يبدأ بالنية الحسنة

لخدمة المنظمة، والطريق الى جهنم غالباً ما يكون مفروشاً بالنوايا الحسنة، وينتهي، ان لم تشدد الرقابة، الى تحول القيّم والسادن الى متصرف وسيد، ويبدأ تدريجياً بالدعوة الى الثقة والقناعة، ومع الوقت يتكون نوع من الهيبة يشل التفكير المستقل ويعمق التقليد والاتباع، ويتوطد شكل من البطرياركية يسهل من ناحية هيمنة رأي الهيئات القيادية، ولكنه لا ينشط مشاركة القواعد في رسم السياسة ومراقبة تنفيذها، وهذا هو جوهر الديمقراطية، والحريات الديمقراطية المتعددة ليست سوى ادوات لتحقيق هذه المشاركة الجماهيرية. اضافة لهذا النزوع نحو التبقرط الكامن في كل مؤسسة فان تأصل تقاليد البيروقراطية المركزية والطاعة العمياء، التي رسختها التربية الحزبية طوال عشرات السنين مستفيدة مما في المجتمع من تقاليد التربية الأبوية، عوائق موجودة بوفرة أمام سيرورة الديمقراطية والتجديد. والتقرير يشير الى البعض منها مثل «بعض المفاهيم النظرية المشوّهة وقوة العادة وما تركته التقاليد والممارسات السابقة من آثار يصعب تجاوزها بسهولة، هذا الى جانب التأثير السلبي للظروف الموضوعية في بلادنا و عموم الأجواء المحيطة بعمل الحزب المتمثلة بنظام القمع والارهاب ومستوى التطور الحضاري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وعند تأكيده على ان عملية التخلص من الشوائب والعيوب «عملية تتطلب وعياً عالياً ودأباً متواصلاً وعملاً تربوياً وتثقيفياً كبيراً للتغلب على صعوبة التكيف مع الاساليب الجديدة وحاجة البعض الى الوقت لهذا التكيف ونبذ الاساليب المعرقلة». فمع رسوخ مثل هذا الواقع فإن الدعوة الى الركون للثقة والقناعة تسهم، دون قصد، في تثبيت التقاليد التنظيمية السيئة والى غض النظر عن بوادر العودة للنهج السابق. ان تعميق نهج الديمقراطية والتجديد يحتاج اكثر الى الحضّ على شحذ الهمة والاستعداد لخوض غمار الصراع الدائر، وتشديد اليقظة والرقابة تجاه أولى بوادر التراجع الى نمط التنظيم القديم. علينا ان نعمل ونحن مدركون، دون الرغبة في المس بأحد شخصياً، ان صاحب المنصب يربي بروح الطاعة والضبط، وصاحب المبدأ يربي بروح التمرد والتفكير. ولا يقدر أحدكم أن يخدم سيدين في آن واحد: المنصب والمبدأ. وهذا يضع على الثوري عبء تشديد يقظته عندما يتبوأ منصباً، وان يحض العاملين معه على تقويم اي اعوجاج قد تبدو علائمه قبل أن يستفحل فيه.

وقد بينت اللينينية عن حق ان البيروقراطية الحزبية كانت احد عوامل تفسخ الديمقراطية، و توهمنا وأوهمنا ان حمل اسم الحزب الشيوعي هو حرز وتميمة تكفيان لصيانة الحزب الشيوعي من نشوء البيروقراطية الحزبية فيه، مثلما حدث للاشتراكية

الديمقراطية ، ولكن النزوع الى التبقرط الكامن يظهر في اقوى تنظيم، وانبله أهدافاً كما حصل في المعسكر الاشتراكي، بعد ان فرضت الطاعة، ونُفي التفكير وشُلت الرقابة، فصارت كل تميمة لا تنفع. ولهذا ينبغي التخلي عن الدعوات التي تقود الى الطاعة والامتثال تحت اي ستار كان، والدعوة الى ما يشدد الرقابة وفتح العيون.

اسلوب اسقاط الدكتاتورية

تؤكد الموضوعات المطروحة للنقاش على ما اقره المؤتمر الخامس، وثبت في برنامج الحزب، من ان المهمة المركزية هي اسقاط الدكتاتورية. وحول هذه المهمة تتفق جميع قوى المعارضة، لكنها لم تجمع بعد حول طريقة اسقاط الدكتاتورية ولا على البديل بعد اسقاطها. ونتيجة السياسة القمعية للنظام وتمسكه بالسلطة، التي صارت تعني له البقاء على قيد الحياة، والبطش الذي استعمله تجاه من يشم فيهم امكانية وجود نية للعمل ضده، صار الجميع تقريباً لا يرون مخرجاً سوى العمل الميداني لاسقاطه، واخذوا يعملون في سبيل كسب الضباط والتعويل على حركة يقوم بها الجيش. وقد اشار تقرير المؤتمر الخامس، في معرض الحديث عن الموقف من الكفاح المسلح، الى ان الحزب منذ اجتماع اللجنة المركزية في تموز ١٩٧٩، وكذلك في المؤتمر الرابع عام ١٩٨٥، تبنى الكفاح المسلح واعتبره الأسلوب الرئيسي للنضال ضد الدكتاتورية، ومع التقييم العالي للدور المشرف لحركة الانصار، يشير التقرير لما جرى من مبالغة في تقدير دورها والتعويل عليها باكثر مما يحتمله واقع الحركة. ويشير تقرير المؤتمر الخامس الى الحاجة لدراسة موضوعية لتقييم تجربة الكفاح المسلح للاستفادة من خبرتها ودروسها. واشار التقرير الى وجوب العمل «لتزمين مستلزمات استنهاض قوى الشعب للاطاحة بالدكتاتورية، ذلك لأن النظام لا يمكن أن يسقط تلقائياً مهما اشتدت ازمته» (التقرير للمؤتمر ٥ ص٣٩–٤٠) ويرى التقرير «ان من غير الصحيح استبعاد مختلف الاحتمالات، . . لتعبئة وقيادة حركة شعبية تقضي على النظائم الدكتاتوري من أساسه» (نفس الصفحة) ومع هذا التعويل على انتفاضة شعبية نجد التقرير يطرح عرضاً فكرة امكانية ايجاد حل سلمي لانهاء الدكتاتورية وذلك بمطالبته المجتمع الدولي بإجازة قرار «يفرض اجراء انتخابات ديمقراطية بإشراف الأمم المتحدة وادارتها» (نفس المصدر ص ٥٤)، ويجدد المؤتمر نفس المطلب في قراره حول الحصار الاقتصادي، حيث نصت الفقرة ٣ على: (اصدار قرار من مجلس الأمن يقضي باجراء انتخابات ديمقراطية في العراق تحت اشراف الأمم المتحدة وبإدارتها» غير ان هذه الفكرة،

التي يبدو انها وردت عرضاً ، جرى تجاهلها وتناسيها بعد المؤتمر الخامس ، هل بقرار أم لعدم نضج الفكرة وضعف القناعة بها؟ لكن الملفت للانتباه ان موضوعات المؤتمر السادس تعلن وبصراحة اوضح ان الحزب لا يأخذ بـ «اعتماد العنف كوسيلة وحيدة لازاحة الدكتاتورية واقامة الديمقراطية في العراق، بل اللجوء الى اساليب اخرى». وتستطرد الموضوعات في شرح ما يمكن ان يعنيه ذلك بالقول: «ومن هذا المنطلق طالبنا ونطالب بتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٨ الذي ينص على وقف اضطهاد الشعب ، والذي يمكن أن يكون منطلقاً لاجراء انتخابات حرة في العراق بادارة واشراف الأمم المتحدة ، وذلك بعد تجريد صدام حسين واجهزته القمعية من امكانية التلاعب بمجرى العملية الانتخابية ونتائجها» . وتستمر الفقرة لتعبر عن عدم تمسكها بهذا الامكان فقط، وانه امكان ، مجرد امكان لا غير ، قد لا تتوفر شروط تحقيقه، وان طريق العنف قد يفرض نفسه كاحتمال اخر، ليس من يستطيع اليوم ان يحدد سيناريو اسقاط سلطة الدكتاتورية فكل الاحتمالات محتملة الوقوع، ولذلك لا بد ايضاً من التفكير بطريق العنف والتهيؤ له واعداد مستلزماته، واذا فرض هذا الطريق ، وهو ليس بالطريق المحتوم ف«ان مسؤولية استخدام العنف وما ينجم عنه من ضحايا يتحملها – كما هو الحال دوماً في التاريخ – مغتصبو السلطة ومضطهدو الشعوب وسالبو حرياتها وحقوقها الديمقراطية» . وتعود الموضوعات في الباب التاسع الخاص بالاهداف الآنية لتؤكد هذه الدعوة بجعلها احد الاهداف والمطالب النضالية الانية الملحة. ان فكرة كهذه، فكرة النضال لتوفير مستلزمات امكانية انهاء الدكتاتورية بطريق سلمي عن طريق انتخابات ديمقراطية باشراف دولي، فكرة تنطلق من الحرص على تجنيب شعب العراق المزيد من الويلات والكوارث، وتؤدي دوراً في وقف دورة العنف والعنف المضاد ، تسهم في تحقيق الاستقرار في المنطقة وتعميق امكانية الحلول السلمية للمشاكل الاقليمية، فكرة قد تنطلق من تقدير اقرب للواقع، تقدير عدم استطاعة المعارضة بوضعها الحالي من التشرذم والانقسام، وشدة التأثيرات الدولية و الاقليمية على بعض فصائلها، ان تحقق في وقت منظور اسقاط الدكتاتورية ، ولذلك قد تحقق فكرة النضال لتحقيق فرض انتخابات في العراق امكانية اسرع للخلاص من حكم صدام حسين. ان فكرة كهذه، تكاد تبدو من نسج الخيال ، ليس من السهل طرحها والدعوة لها بصوت عال، فسيعارضها بعض المناضلين الذين اكدت لهم التجربة ان صدام لن يستجيب بسهولة للضغط، وكذلك من الذين تمتلىء قلوبهم – وعن حق – بالحقد على صدام لما ارتكبه من جرائم تجاه الشعب والأهل وبهم، والذين لن يطفىء غليلهم وروح الانتقام

لديهم حتى ولا شرب دم صدام، فكرة يعارضها اسارى نمط التفكير التقليدي والمتمسكون فقط باتباع ما كان لحد الآن هو الغالب، فلا يسعون لشق درب جديدة، ولا يرون التجارب الجديدة القليلة لحد الآن (جنوب افريقيا، انغولا وموزمبيق، بعض دول امريكا اللاتينية والبوسنة)، فكرة تجد معارضيها ايضاً في صفوف المعارضة لحكم صدام من بين الطامحين الى الحلول مكانه، ويقدرون ان الانتخابات لا تحقق لهم مطامعهم، فكرة يعارضها الرابحون من بيع الاسلحة وترويجها - كبار الباعة منهم والصغار - يعارضها الذين يحققون اطماعهم في المنطقة بتشديد عدم الاستقرار والحرب الاهلية وعرقلة قيام انظمة ديمقراطية حقيقية. فكرة كلها مفارقة مع ما عرف عن «النهج البلشفي» من دعوة للثورة العنفية لدرجة التقديس ولذلك فالجهد الذي تحتاج له قد يفوق الطاقة، ولذلك يتطلب تدقيقه وتمحيصه في المؤتمر واقراره ليتركز حوله النضال بعد المؤتمر ولا يلحقه اهمال كما حصل بعد المؤتمر الخامس. والاقرار بوجود كل الاحتمالات وعدم اعطاء الغلبة المطلقة لواحد منها يتطلب اعادة صياغة العبارة الاخيرة في فقرة «الجيش والقوات المسلحة»: «ضمان قوة مسلحة ضاربة من أجل اسقاط الدكتاتورية سواء كان ذلك عبر انتفاضة شعبية او هبة جماهيرية عفوية او تمرد عسكري او تضافرها معاً»، ليصبح هذا مجرد أحد الاحتمالات الممكنة وليس الاحتمال الوحيد الغالب كما توحي به الصياغة بشكلها الحالي.

إن النجاح في فرض الاطاحة بالدكتاتورية عن طريق اجراء انتخابات باشراف دولي سيكون في نفس الوقت ضماناً لتحقيق القبول «بمبدأ التداول السلمي للسلطة ونبذ العنف واللجوء الى الطرق الديمقراطية السلمية في معالجة الخلافات والمشاكل التي تنشأ بين القوى السياسية».

الموقف من الجيش

أياً كان الاحتمال الذي سيتم به اسقاط الدكتاتورية سيظل للجيش دور بارز في ذلك. اذ ان ضمان صدام لمواصلة امكانية استناده على الجيش في الحفاظ على بقائه في السلطة لن يدفع به للرضوخ الى اي ضغط ولن يسقط حكمه دون ان يكلف الشعب المزيد من الضحايا والكوارث. ولذلك فان من المهم العمل لاضعاف الضبط العسكري وبذل المزيد من الجهود لتشجيع منتسبي الجيش والقوات المسلحة للتخلي عن الاستعداد للدفاع عن النظام، واتخاذ المواقف التي تسهل انتقال العسكريين الى صفوف المعارضة. غير ان هذا الواقع لا يجوز ان يدفعنا للبقاء في وهم خلقته لنا تمنياتنا الا وهو التوهم بأن الجيش

العراقي منذ تأسيسه ليس كغيره من جيوش الدنيا، قديمها وحديثها ، اداة قمعية بيد السلطة الحاكمة ضد الشعب اداة للتوسع، ومهنة للرزق، بل انه لكونه جيش العراق ليس جزءاً من أجهزة الدولة، ولا تنطبق عليه الوظيفة المكلفة بها جيوش الدنيا، بل انه وحده جيش باسل امتاز عن غيره من جيوش الدنيا بالدفاع عن حقوق الشعب وسيادته وتميزت علاقته مع الشعب بالتضامن والتلاحم، ولم تتشوه هذه العلاقة الا بعد تسلط النظام الدكتاتوري منذ عام ١٩٦٨ ، هكذا يمكن ان تعنيه العبارة الاولى في باب «الجيش والقوات المسلحة»، وهو امر ينافي الواقع، وقد كتبت عنه بتفصيل في «الثقافة الجديدة» عدد ٢٦٦. وأكد ما ذهبت اليه عن طبيعة الجيش كل من العميد البرزنجي والعقيد الركن الجبوري في طريق الشعب بمناسبة عيد الجيش في كانون ثاني ١٩٩٦ باعتباره مؤسسة سلطوية رسم لها مواجهة حركات العراقيين الوطنية وضربها، ولم يخرج عما رسم له اصلاً. وان هذه المؤسسة ظلت تستخدم على الدوام لتحقيق اهداف السلطة الحاكمة، اياً كانت السلطة. مع تشخيص طبيعة الجيش قوةً قمعية كمؤسسة، يجب العمل مع منتسبيه كافراد، فهم ابناء الشعب يتأثرون بوضعه ويتعرضون كأفراد لما يتعرض له ابناء الشعب الآخرون من مصائب ومصاعب معاشية. فالعمل لكسب تخلي العسكريين عن النظام لا يتطلب التزلف والتملق، بل الاستناد على خطاب يعتمد على عوامل التذمر المتزايدة بسبب سياسة صدام -التي اشارت اليها الموضوعات- والتي تطال منتسبي الجيش ايضاً.

ان ما تكشفه الموضوعات عن الواقع الكارثي للاقتصاد العراقي عن ديون تجاوزت الناتج القومي الاجمالي لعام ٩٣ بما يعادل ٦٠ ضعفاً، وازدادت اكثر بالنسبة لعامي ٩٥ و٩٦ يتطلب ضرورة التفكير جدياً فيما اذا كان العراق بعد صدام، قادراً على توفير الطعام والدواء للناس وفي نفس الوقت العمل على إدامة جيش مهما صغر. ألا يمكن التفكير باستغلال وضع الوصاية المفروض على العراق والتمسك بالمطالبة بضمان تطبيق قرارات الأمم المتحدة التي تؤكد على سلامة وحدة وسيادة العراق، على اراضيه، والاعلان عن تخلي العراق ليس فقط عن اسلحة الدمار الشامل وانما عن اقامة جيش وعن اية اطماع اقليمية، والانصراف لاعادة اعمار البلاد وتوفير الغذاء والدواء، على ان يشارك سلمياً في جهود تحقيق الأمن والسلام في المنطقة، على ان تعلن الامم المتحدة حمايتها لسلامة ارض العراق وسيادته، ويقيم العراق صندوق احتياط ، تودع فيه نسبة من ميزانيته السنوية، لتمويل عمليات الأمم المتحدة اللازمة لحماية أمن وسيادة ارض العراق عند حدوث عدوان عليه.

الفيدرالية والقضية القومية الكردية

صباح الجزائري

المنطلق:

-مطلوب ، والحزب على ابواب مؤتمره العام السادس، أن يصار الى تقييم المواقف والنتائج لكل التوجهات وللخط السياسي الذي يسير عليه منذ مؤتمره السابق، وربما حتى قبل ذلك.. فعسى أن نساهم بمثل هذا التقييم بتوطيد الديمقراطية واسلوب الحوار، اذ لا زلنا بعيدين عن ان يصبح مبدأ التقييم عندنا تقليداً سائداً وليس حالة موسمية تقترن بموقف او فعالية معينة فقط. وهنا من المهم ان تفتح صحافة الحزب ابوابها اكثر لنشر الاراء والافكار الاخرى المغايرة لسياسة الحزب، ذلك لأن الرأي الآخر هو بالضبط ما يحتاج الى النشر طالما ان الرأي المطابق للموقف الرسمي يجد التعبير عن نفسه عبر البيانات والوثائق الصادرة ذاتها.

تقديم:

الشيوعي يؤمن بحق تقرير المصير للشعوب، وتلك قضية مبدئية، فكرية ايديولوجية -سياسية وتنظيمية بنفس الوقت. لكننا كنا ـ وربما لازلنا[١] ـ نخضعها لاعتبارات عديدة ابرزها:

* ان لا يستخدم هذا الحق بشكل تعسفي.
* ان لا يخدم قضية الرأسمالية واهدافها.
* ان يساعد على تعزيز الاشتراكية..

* .... وغيرها

ولكن، بعد الذي حدث في البلدان الاشتراكية سابقاً[٢]، شخصت القضية القومية ومعالجاتها «الخاطئة» كواحدة من المسببات الرئيسية، يطرح تساؤل جدي وبحرقة: هل ياترى لازالت تلك الاعتبارات قائمة؟.. ان كان الجواب نعم، فهل ينسجم مع ذلك رفعنا لشعار الفيدرالية، وموقفنا مما يحدث في كردستان العراق، وقبولنا للوصاية الامريكية؟ وان كان الجواب كلا!.. فهل لدينا اعتبارات جديدة؟ وما هي؟. هل هي تطور في الفكر؟ أم انجرار وراء المواقف القومانية داخل الحزب؟

القضية القومية/الكردية

القضية القومية ظاهرة اجتماعية حية تتحرك بفعل عناصرها الذاتية (الداخلية) والموضوعية (العوامل الخارجية). يكون تطورها طبيعياً، سليماً وخالياً من المخاطر فقط في ظل توازن بين الداخلي والخارجي، بين الذاتي والموضوعي من عناصرها، مع تأكيدي هنا على ان الدور الرئيسي يجب ان يكون لعناصرها الذاتية. تتراجع تنتكس او تتطرف عند الاخلال بهذا التوازن. ولأنها ظاهرة اجتماعية موضوعية، فهي تموت اذا كانت بيئتها غير صالحة حتى لو كانت بنيتها سليمة، والعكس صحيح، اي بدون بنية سليمة لن تعيش حتى لو كانت بيئتها صحيحة ومناسبة، بالضبط شأنها شأن أي كائن حي.

والقضية الكردية لم ولن تكون ظاهرة شاذة أبداً، فقد كانت ولا زالت سائرة وفق هذه العلاقة. وتاريخها يشهد على ذلك. فقد مرت بفترات مد وجزر ولازالت،وقدمت ولازالت عشرات بل الآلاف من الشهداء من ابناء الشعب الكردي البررة من اجل نيل حتى ابسط الحقوق، كل ذلك نتيجة الاخلال بذلك التوازن المطلوب. فقدكانت طيلة تاريخها ولا زالت اسيرة العامل الخارجي والمقصود هنا كلا الدول الاقليمية التي لم ولن تكون بوضعها الحالي مؤمنة بحق الشعوب بتقرير مصيرها فضلاً عن اضطهادها الدائم للشعب الكردي داخل اراضيها فيما تتعامل مع مفردات القضية الكردية خارج اراضيها فقط بما يخدم اغراضها واهدافها ومصالحها في المنطقة، ومن جهة اخري الدول الكبرى، التي، طبعاً، لا تقل خطورة عن الأولى، بالاحرى اخطر منها ذلك لانها تتعامل مع الاستراتيجيات والمديات البعيدة، ومعروف ان معظم المشاكل القومية، هي -على الأغلب- مع صنع تلك الدول الاستعمارية.. واخر تجليات ذلك الاخلال بالتوازن المطلوب تلك التي تتمثل بحالة اقتتال الاخوة: كردي-كردي/ عراق، كردي-كردي/ عراق-تركيا.

● فكيف التعامل اذن؟

لأن القضية حساسة جداً، ينبغي اذن التعامل معها بحذر شديد، بتدقيق شديد، بعمق وبشمولية.

* فمن الخطأ الكبير الوقوف ضدها وتجاهلها كقضية عادلة لشعب مسلوب الارادة، ممزق، مضطهد من قوى داخلية (الشوفينية من جهة- والمصالح والنظرات الضيقة التي تعصف بمستقبله ومصيره من جهة اخرى) ومن قوى خارجية متمثلة بالدول الاقليمية والكبرى، او اعتبارها مجرد فورات غضب وردود افعال طارئة نتيجة ظرف استثنائي ومحاولة امتصاصها او التصدي لها باعتبارها خروجاً عن القانون والطاعة.. فكلا الاتجاهين (الخاطئين) يمثلان موقفاً شوفينياً واضحاً.

* كما ان هناك خطأ اخر لا يقل عن الأول خطورة، ويتمثل بالانجرار وراء المشاعر القومية، والاندفاع الأعمى وراء عدالة القضية ذاتها، واستباق التطور الموضوعي للقضية ذاتها، والقفز على واقعها وتوازناتها وافاقها، وتجاهل او عدم رؤية مواطن الضعف والقوة في عناصرها الذاتية والموضوعية، وعدم القدرة على رؤية (او تجاهل في اغلب الاحيان) تحريك وتوظيف العامل الخارجي لها، واعتبارها قد وصلت -او تكاد- الى نهايتها. هذا الخطأ يقودها الى التعصب القومي الضيق والخطر الذي يدفعها احياناً كثيرة للتطرف ويقودها الى كوارث تعيق تطورها الحالي والمستقبلي وتترك آثاراً عميقة في نفسية وبناء الانسان الكردي(٤).

باختصار، من الخطأ محاربة، تحجيم او تجاهل القضية القومية الكردية، لانها قضية عادلة ينبغي تأييدها ولكن دون المبالغة وتهويل قدراتها ودورها، ودون دفعها لمواقع المغامرة والتطرف او التعصب. انذاك ستفقد الكثير من عناصرها الداعمة لها. هذا التوازن مهم وضروري ويجب ان يجد صداه عندنا، نحن الشيوعيين العراقيين بشكل خاص، فكراً وممارسة.

● الفيدرالية(٥)

الفيدرالية نوع من الحكم تتوزع فيه السلطات دستورياً بين الحكومات المحلية والحكومة المركزية، وبطريقة تضمن فيها الحكومات المحلية قدراً اكبر من الاستقلالية الذاتية.. او هي المشاركة في بناء وتكوين وادارة مركز السيادة العامة الواحدة وتنشأ بطريقتين:

١- تتنازل دولة او مجموعة دول عن شخصيتها الدولية مع الابقاء على استقلالها

الخاص للتكتل في دولة مركزية واحدة.

٢- او بتطوير خصوصيات اجتماعية الى جماعات تتمتع باستقلال ذاتي في ظل الدولة المركزية الواحدة(٦). في الحكومة الفيدرالية.. لا تستطيع الحكومة المركزية تغيير صلاحيات الحكومات المحلية لأنها مقرة دستورياً، حيث تقام الحكومة الفيدرالية وفق دستور مشترك.. والفيدرالية طبعاً هي حالة وسطية بين الكونفدرالية ذات المركزية المحدودة البسيطة والدولة الواحدية المركزية السلطة.

التوازن داخل المبدأ

- الفيدرالية اتحاد طوعي واختياري وليس اجبارياً. ويتطلب اتفاق جميع الاطراف، وما ان يُقر دستورياً حتى يصبح الانفضاض عنه عملية غير سهلة وقد لا تخلو من المخاطر.
- كيفية توزيع السلطات، ونوع العلاقة بين المركزي والمحلي وغيرها من قضايا الاتفاق والاتحاد هي امور جوهرية يمكن ان تكون عوامل قلق واضطراب ايضاً بتغير الظروف او بمرور الزمن، والتوازن بتقديري يعتمد على عاملين. . .

  ١- التوازن بين المحلي والمركزي.

  ٢- حجم وتاثير العوامل الموضوعية والخارجية.
- هذا المبدأ يُعتمد لمعالجة وضع ما او لتطويره، او لتنظيم علاقة معينة بين اطراف عدة، وعلى هذا الأساس يكون المبدأ حراً، ديمقراطياً بجوهره، وهو بهذا المعنى يكون احد تجليات العلاقة الديمقراطية والحرة والانسانية بين الأمم.
- على هذا الأساس يمكن اعتبار الفيدرالية احد تطبيقات وتجليات مبدأ حق تقرير المصير فيما يتعلق بمعالجة القضية القومية، ومن يؤمن بمبدأ حق تقرير المصير للشعوب لا بد وأن يعترف بمبدأ وحق الاتحاد الفيدرالي والفيدرالية بين الشعوب ايضاً. فالحقوق الادارية والثقافية، والحكم الذاتي، والفيدرالية وحتى الانفصال كلها تجليات وتطبيقات معينة لمبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها ضمن مراحل تاريخية وظروف معينة.

● ولكن! الشعار؟ التطبيق؟

الفيدرالية شعار ليس جديداً على الحزب (حزبنا السبّاق دوماً لطرح الشعارات)، فقد طرحنا شعار الاتحاد الفيدرالي مقابل شعار الوحدة الفورية المطروح من قبل القوى

القومية فترة ثورة ١٤ تموز. . . ثم طرحناه بعد انتفاضة آذار المجيدة ولكن! هناك اسئلة تطرح نفسها: هل كانت الظروف مواتية حقاً لطرح شعار الفيدرالية مجدداً؟ أم أنه الوهم بأن القضية تطورت ونضجت بعناصرها الذاتية والموضوعية لدرجة بات معها تطوير الشعار ضرورياً؟ ام انه جاء انذاك لانقاذ الشعب الكردي من رحلة الآلام والعذابات المليونية —والتي لسنا بصدد تقييمها ومن يتحمل مسؤوليتها انذاك— وهل يتجسد خلاص الشعب الكردي بالفيدرالية انذاك؟. . . الفيدرالية مع من؟ مع الشعب العربي في الوسط والجنوب؟! ام مع السلطة كما ارادت «الجبهة الكردستانية» انذاك؟ كيف يمكن قبول فيدرالية مع نظام وسلطة مطلوب اسقاطها؟ او من جهة اخرى كيف يمكن اعلان الفدرالية مع «الشعب العربي» دون اخذ رأيه، بالاحرى دون ان يكون قادراً على ابداء رأي ما؟. للاجابة عن هذه الاسئلة وغيرها لا بد من توفر قدر غير قليل من الديمقراطية داخل الحزب، وقدراً اكبر من حرية التعبير عن الرأي واحترام الرأي الآخر. وبتقديري تلك قضية لا زالت تعاني من قصور كبير داخل الحزب، فالمنادون برأي ضد الفيدرالية، وبغض النظر عن مبرراتهم سيُتهمون بدون تردد بانهم ضد الحقوق القومية للشعب الكردي! وانهم يتجاهلون قوافل الشهداء!! وغيرها من الاتهامات المغرضة والاثارات السطحية والهامشية. . . وطبيعي أنهم كثيرون جداً جداً اولئك الذين لا يرغبون ان تلصق بهم مثل هذه «التهمة» ولذلك يفضلون السكوت او مداراة الخواطر او غير ذلك من الأمور في وقت تعم فيه الفوضى. . . (ذكرني ذلك بقصة ملابس الملك الخفية التي فقط الأغبياء لا يستطيعون رؤيتها!). . . والمنادون بالفيدرالية يتجاهلون الطرف الثاني الذي يجب أن يعبر هو الآخر عن رأيه وأقصد «الشعب العربي» ان صحت التسمية ، وربما ايضاً التركمان والاشوريين والكلدانيين وغيرهم. . . أوليست الفيدرالية خياراً حراً وديمقراطياً، أم ماذا؟.

ربما يتحدث البعض عن الفيدرالية وفي ذهنه الانفصال، ويحلو لهؤلاء الاستشهاد بمثال جيكوسلوفاكيا التي صارت دولتين بعد دولة فيدرالية، متناسين عنصراً اساسياً هنا وهو ان تشكيل الدولتين قد تم بظروف طبيعية، ديمقراطية وبحرية تامة، بتوازن بين العوامل الذاتية والموضوعية بين الداخلي والخارجي في ظل دور رئيسي ومقرر للعامل الداخلي. فأين نحن من ذلك؟.

التجربة الديمقراطية في كردستان.

هنا لابد من الحديث عن «التجربة الديمقراطية» في كردستان، على اعتبار ان التصويت على القرار، لا بل طرح الشعار نفسه قد تم في اجواء ديمقراطية. . . كما قلنا سابقاً، الفيدرالية تتطلب، من بين ما تتطلب عنصرين اساسين هما الحرية والديمقراطية. فماذا عنهما؟. . . ولنسأل سؤالاً بسيطاً: هل كردستان محررة حقاً؟ وطبعاً الجميع يعرف ان الجواب سلبي. . . فكردستان تحت الحماية (اقرأ الوصاية) الدولية (اقرأ الامريكية) وبدونها لا تستطيع حكومة كردستان ولا برلمانها اتخاذ أياً من القرارات المصيرية. . . وهذه حقيقة يعرفها الجميع. . . هذا طبعاً بجانب الدور المستمر للسلطة العراقية المباشرة (اللجان الثلاثية [٧])، وقوافل الامداد من تركيا الى بغداد عبر كردستان وبالاتجاهين، اضافة الى خط السير البشري من والى بغداد). . .هل تستطيع كردستان ان تحافظ على نفسها بدون هذه الوصاية؟ كلا. والجميع يعرف ذلك. . . اذن حريتها غير موجودة، والحديث عن الحرية هنا ليس سوى مغالطة. . .

أما عن الديمقراطية، فمن حسن الحظ ان سير الاحداث لا زال طرياً في الذهن بدءاً من التحضير للانتخابات، الى مبدأ تحجيم الفوز والمشاركة اللاحقة، الى التزوير والتهديدات والممارسات ثم اخيراً اقرار مبدأ المناصفة التي قادت دون شك الى برلمانين وحكومتين وتهدد بتقسيم كردستان ذاتها الى دولتين سوران وبهدينان. فهل يمتلك الشعب الكردي كلمته حقاً (وهذا هو المعيار الحقيقي للديمقراطية ولصنع قرار الفيدرالية)، لا اعتقد ذلك، وهنا ايضاً الجميع يعرف ذلك، فلو كان الشعب هو المقرر لاستطاع ايقاف القتال الدائر ولاستطاع محاسبة مسببيه ومعاقبة مرتكبيه!، فهل هذا ممكن؟ الجواب، واضح طبعاً! كلا. اذن ليست هناك ديمقراطية. حقيقية ولا حرية حقة، فأين مستلزمات طرح مثل هذا الشعار، ومستلزمات اتخاذ مثل هذا القرار؟!

الحرية والديمقراطية ليست نواقص عمل وثغرات في الممارسة بل هما مستلزمان اساسيان لاتخاذ مثل هذا القرار. ومن يريد ان يسميهما بغير ذلك انما -واتمنى ان اكون مخطئاً هنا- يستمر على ذات المنهج الذي سرنا عليه عقود طويلة وجلب لنا كوارث حقيقية ندركها مع الاسف بعد فوات الأوان دائماً وخاصة عندما نلجأ للتقييم، واقصد مبدأ ليّ الواقع ليماثل مخيلتنا ورغباتنا. كيف نسمح لأنفسنا ان نطرح شعار الفيدرالية في ظروف يغيب فيها الصوت الحقيقي للشعب الكردي في كردستان العراق حيث ان الشعب هو الجبهة الوحيدة التي لا تمتلك لا سلطة ولا قراراً. أما بالنسبة للشعب العربي في الوسط والجنوب

فيعلم الجميع كيف تصادر حياة الانسان لمجرد الشك، فكيف اذا ابدى رأياً مثل هذا؟

داخلياً اذن كان طرح الشعار خطأ... وأما على صعيد المعارضة وهو الوجه الثاني من العامل الداخلي... فالمبدأ والشعار يشكلان نقطة خلاف كبيرة مثل الموقف من الحرب العراقية الايرانية انذاك، حيث ساهم الموقف بتفريق المعارضة وها هو شعار ومبدأ الفيدرالية يفعل ذات الفعل في وقت نحلم فيه بتوحيد المعارضة، ولا داعي هنا لاستعراض مواقف التيارات الأربعة او غيرها لأنها مواقف معروفة ، ولكل من هذه التيارات ومفرداتها موّاله الخاص حول القضية الكردية ذاتها... ولا داعي لتكرار تفسيرات ان كل شعار وعمل يعرقل وحدة المعارضة او اتفاقها العام انما يقود بالتالي الى اطالة عمر النظام وبالتالي الى استمرار معاناة شعبنا وعذاباته... وهنا صار الشعار ضاراً لعموم الشعب العراقي لأنه ساهم بطريقة ما بمد عمر الدكتاتورية... هذا فضلاً عن انه سيكون بمثابة لغم او قنبلة موقوتة حتى بعد اسقاط النظام، انذاك سيتخلى الجميع عن تنازلاتهم وستصبح الاحاديث مباشرة والعمل موجهاً نحو جماهير حيّة مطلوب العمل على مشاركتها في رسم السياسة والقرار... اذن حتى في الأفق المنظور لم يكن مناسباً طرح مثل هذا الشعار على الصعيد الداخلي.

● **دولياً**

أما على الصعيد الدولي، فالامر عند الدول الكبرى ليس سوى اوراق لعب تخدم ستراتيجياتها وأهدافها البعيدة ومصالحها في المنطقة... ومعروف الطابع الاستعماري لهذه الدول، وكيف انها بالأساس لا تعترف لا بحرية الشعوب ولا بحقها في تقرير مصيرها... ومحاولة كسب تأييد الدول الكبرى وهم وثمنها سيكون غالياً جداً مستقبلاً.

ينبغي ان تكون عندنا العبر الكافية المستمدة من تاريخ الشعوب التي خضعت للاستعمار عقود كثيرة... فكيف نقبل ان يُخدع شعبنا بان الخلاص يكمن بيد الدول الكبرى، ونقبل ان تفرض علينا وصايتها، وذلها عبر تشكيل كيان معين لا يستطيع حتى الدفاع عن نفسه، لا يستطيع حتى الصمود امام وهم هجوم النظام المنكسر في حرب الخليج والمنهزم امام انتفاضة الجماهير في اذار رغم كل سنين الكفاح ضده من اجل اسقاطه؟. تشكيل مثل هذا الكيان لا يكون اساساً لتكوين كامل الوطن الكردستاني وانما ليسلم للدول الكبرى بسهولة لتحوله الى ورقة بيدها للتأثير بها على الاقسام الاخرى من كردستان، ويخطىء من يتصور ان القتال الكردي-كردي/عراق تركيا هو نتيجة لتأثير قوى اقليمية فقط. اذن حتى على هذا الصعيد كان الشعار واقراره كمبدأ خطأ كبيراً...

هكذا اذن، وعلى كل الأصعدة، لم يكن الشعار صحيحاً بل وسبب الكثير من الأخطاء المتراكمة وعلى مختلف المديات.

● الحزب

لماذا اذن طرح الحزب مثل هذا الشعار الخاطىء؟ لماذا نطرح شعاراً يقود الى كل هذه الكوارث؟

- ● خضوع العقل القيادي للحزب لهيمنة النفس القومي الكردي، لأسباب كثيرة لسنا بصددها الآن، متأثرة بالأحزاب القومية الكردية -ذات الأساس والجمهور العشائري - محاولين منافستها عبر شعارات قومية غير واقعية.
- ● دور منظمة الاقليم التي كانت خاضعة لهيمنة عقلية قيادية ذات نفس قوماني، وبما تمتلكه منظمة الاقليم انذاك من امكانيات على صعيد حياة الحزب العامة، كونها تلعب دوراً اساسياً في نضاله الذي يتخذ من الساحة الكردستانية مسرحاً رئيسياً لنضاله وتنفيذ اسلوب كفاحه الرئيسي (واقصد الكفاح المسلح) حيث اكتسبت منظمة الاقليم صفة منفذ وحاضن اسلوب الكفاح الرئيسي.
- ● ضيق الأفق وقصر النظر في رؤية آفاق الواقع وادراك المخاطر التي تحيط بالقضية كلها والاندفاع وراء عدالة القضية الكردية ذاتها وتوهم انها وصلت الى مدياتها العليا والتي تتطلب ان لا تسبقنا... والحال وبدون وعي وجدنا انفسنا نسبقها بمشاوير طويلة سببت ولا زالت الكثير من الكوارث... دون ان ندرك عمق الظروف الطارئة التي تحيطها، دون ان ندرك ان تلك «الانتصارات» ليست اصيلة ولا تستطيع خلق الممهدات الضرورية لمثل تلك الوجهة.

● وطبعاً تحت تأثير المشاعر القومية المتعصب تم تجاهل الجانب الاخر ودوره (واقصد الشعب العربي – عراقياً، والرأي الآخر– حزبياً)، واستخدام سياسة الامر الواقع(من المؤسف لا زالت هذه العملية مستمرة) التي اجبرت الكثيرين على اتخاذ مواقف بجوهرها انتهازية وخاطئة لانها لم تستطع ان تقول لا لمثل هذا الاتجاه خشية اتهامها بالعداء للقضية الكردية ولحقوق الشعب الكردي!

● التصور الذي ساد (وللأسف لازال سائداً) لدى العقل القيادي بأن كردستان تعيش تجربة ديمقراطية، وتلك كانت ولا تزال وهماً ومغالطة، فالكل يعرف انها ليست ديمقراطية الابجانبها الشكلي وكل شيء بدأبتزوير وانتهى بتزوير وتقاسم نفوذ، ولا علاقة لمصلحة الشعب الكردي بكل ما يجري وجرى، بدليل العجز المتواصل عن معالجة «الثغرات والنواقص» واخطائها، واستغرب ان يستمر الحديث والاصرار على تسميتها بالتجربة الديمقراطية، وكأن هناك عملية غسل دماغ جماعية غايتها مع سبق الاصرار، متناسين ان اصدار بعض الصحف وبث بعض الاذاعات ليست سوى مظاهر خداعة ومن يستطيع ان ينسى انه حتى بعد الضربة التي وجهت للحزب ٧٨/ ٧٩ استمرت جريدة طريق الشعب بالصدور حتى النفس الاخير بفعل بطولة وشجاعة المحررين والشغيلة الخارقة والرائعة، رغم علمنا ان الامر مقرون بيد السلطة التي كانت حتى اللحظة الأخيرة تتاجر بالأمر، ومن طرفنا كانت قيادتنا تعوّل حتى اللحظة الاخيرة على عودة المياه لمجاريها... اقول اذن لا الصحف ولا الاذاعات هي مظاهر حقيقية للديمقراطية، وإنما هي حالات يتطلبها التظاهر بالديمقراطية، لذلك يجب ان نعطي كل مظهر حجمه الحقيقي.

● **البديل**

لا يحتاج الشعب الكردي الذي عانى ويعاني... من مآس وويلات طويلة وقاسية الى شعارات ومظاهر زائفة وعبارات رنانة، بقدر ما يحتاج الى جُهود مخلصة وصادقة لأجل معالجة اوضاعه المزرية، يحتاج الى معالجة ازماته والاثار النفسية التي ترتبت على سنين القهر كلها، يحتاج الى ان يستعيد ثقته بنفسه، الى الاطمئنان الحقيقي والشعور بالأمان يحتاج الى ان يستعيد شخصيته الانسانية التي حاولت السلطات الشوفينية والقمعية المتعاقبة ان تُمسخها... المواطن الكردي يحتاج الى تأمين معيشته اليومية، واسترداد النفس والشعور بالأمان من أجل ان يصبح قادراً على رسم مستقبله بحرية، وبإرادة قوية وبطريقة صحية خالية من التأثيرات المختلفة داخلية، اقليمية ودولية.

انه يحاجة الى ان يعيش بطريقة انسانية. . . فهل أنبل من ذلك؟

● **دعوة واستفتاء**

* هذه القضية مهمة، حساسة ، ومصيرية على صعيد الحزب وبالتالي المجتمع فقد تولدت عنها موضوعة تشكيل حزب شيوعي كردستاني وتلك قضية اخرى مطلوب معالجتها. . . ومن الضروري ان يصار الى مناقشتها بشكل واسع على الصعيد الداخلي وعبر صحافة الحزب. . .التي اتمنى ان تكثر من اصداراتها حتى انعقاد المؤتمر الوطني السادس، وبشكل استثنائي. . . ناقشوا أيها الرفاق هذه القضية ، وادعوا الى استفتاء كل الجماهير الحزبية على موضوعة الفيدرالية وتشكيل الحزب الشيوعي الكردستاني. . .

١١/حزيران/١٩٩٦

هوامش

(١) اقول لازلنا. . .لان تلك قضية غير واضحة حتى هذه اللحظة، فلا القديم -ايديولوجيا- لا زال محتفظاً بكامل حيويته، ولا الجديد صار واضحاً بماهيته او بفرض نفسه، فضلاً عن ان الاحداث لا زالت متحركة، ومن يدري ما الذي سيحدث مستقبلاً.

(٢) ما حصل ويحصل في البلدان الاشتراكية السابقة لا زال بهذا القدر او ذاك خاضعاً للدراسة العلمية المعللة فلسفياً، اقتصادياً وتاريخياً. . . وما جرى من استخلاصات واستنتاجات وما طرح من تحليلات -والكثير منها كان عميقاً- لا يتعدى القراءات النوعية للواقع ولازالت غير مكتسبة حتى هذه اللحظة درجة القطعية المعللة نظرياً. بمعنى لم ترسَ اسس نظرية جديدة.

(٣) اقصد بالقضية القومية تحديداً فكرة تشكيل امه او توحيدها، والعمل من اجل تكوين وطناً لها.

(٤) من محاضرة عن القضية الكردية القيت في قاعة الجمعية الكردية في لوند/السويد، طرحت فكرة «ان اعتماد الحركة الكردية على الكفاح المسلح قد جلب لها الضرر اكثر من الفائدة» اسوق ذلك من باب المعلومات وليس بالضرورة الاقتناع.

(٥) سأتحدث فقط عن جانبها السياسي اي كونها مصطلحاً سياسياً ونظام حكم، اذ من المعروف ان الفيدرالية تعني ايضاً نظام ادارة وعمل وخاصة فيما يتعلق بتشكيل الجمعيات او غيرها.

(٦) القسم الاول من التعريف انظر ص ٦٣١ "Collir's Encyclopedia-9"
القسم الثاني. . . الدكتور حسن الحلبي.

(٧) اللجان الثلاثية " لجان كردية-دولية-عراقية عملت- وربما لازالت تعمل- عبر نقاط التماس.

ملاحظات حول الوثيقة المعدة للمؤتمر السادس

عادل حبه

يبدو أن هذه الوثيقة هي الوثيقة الأساسية، السياسية والفكرية، التي ستناقش من قبل المنظمات الحزبية من أجل مناقشتها لاحقاً في المؤتمر السادس القادم (م٦). تضمنت الوثيقة ١١ فقرة تتراوح بين معالجة طبيعة السلطة وازمة النظام السياسي الى وجهات نظر محرري الوثيقة حول الوضع العربي والدولي. في البداية هناك بعض الملاحظات العامة حول الوثيقة وظروف اصدارها:

أولاً: بلدنا يمر بظروف استثنائية بكل المقاييس. فالعراق مرتهن اقليمياً ودولياً بسبب النهج الذي اتبعه خلال العقود الثلاثة الماضية حيث ورط البلاد بمحنتين كبيرتين، الحرب العراقية الايرانية وغزو الكويت. وبغض النظر عن مسؤولية الحكم فإن البلاد بشعبها ومعارضي سلطتها سيدفعون فاتورة اقتصادية وسياسية ومعنوية لقاء ذلك. ربما ستخف هذه الالتزامات في حالة سقوط النظام، الا ان البلاد ستبقى تدفع ثمن مغامرات السلطة ولعقود. ومن هنا علينا كحزب ان نبصر شعبنا بحقيقة هذا الوضع ونفتش عن أفضل السبل لانتشال البلاد من الورطة. علينا ان ننتقي الخطاب البعيد عن روح المجابهة مع القوى الاقليمية والدولية والسياسة الواقعية التي تحسب الحساب الدقيق لظروف البلاد الحرجة. ان أية سياسة اخرى ستنهك شعبنا بصورة اكثر وستسد الأبواب بوجه اية إمكانية لإنتشال البلاد من الهوة التي دفعت اليها من قبل الحكام الحاليين.

ثانياً: في العقد المنصرم بدأت اللجنة المركزية بطرح العديد من المفاصل السياسية والاقتصادية والفكرية التي تمس سياسة الحزب ومستقبله بعد ان رفع الغطاء عن حجر الفكر لفترة طويلة ولاسباب تتجاوز ارادة الحزب. ولكن يلاحظ أنه ومنذ المؤتمر الخامس تعثر أو حتى يمكن القول ان هناك وقفة في طرح مثل هذا النمط من الوثائق من اجل تقصي المعرفة واثارة النقاش لتلمس الطريق المناسب والاقرب واقعية لعمل الحزب اللاحق في مختلف الميادين. إذ اقتصرت الوثائق الصادرة على معالجة الشؤون الملحة التي تواجهنا. وهذا ما اشارت اليه الوثيقة مما ترك اثراً سلبياً على فعالية الحزب. ولا تخرج الوثيقة عن هذا الاطار فاقتصرت اساساً على المواضيع السياسية الجارية الملحة، وكنا نأمل أن تكون اكثر انتظاماً من حيث الصياغة واعمق واشمل من حيث تناولها المواضيع التي تواجه الحزب والبلاد. فهناك مثلاً عدد من المفاهيم المرتبطة بصلب نشاطنا اليومي كمفهومنا للدولة والأمة والحزب..الخ، والذي يحتاج الى تحديد لكي لا يحدث أي تناقض بين هذه المفاهيم وبين السياسة اليومية التي نقترحها.

ثالثاً: اعتمدت الوثيقة على مبدأ الربط المباشر بين الايديولوجيا والسياسة. وهذا ما سيوقعنا مرة ثانية في مأزق التناقض بين السياسة كفن الممكنات وبين الايديولوجيا كقواعد ثابتة وان حركة المجتمع وتغيره يتجاوز كل الحدود الايديولوجية او استنتاجاتها التي تطرح في مرحلة معينة من حركة التاريخ. بالطبع هذا لا يعني التخلي عن المعرفة الانسانية بكل جوانبها، ولكن هذه الأيديولوجيا شأن نخبوي ولا تستحوذ على اهتمام الغالبية الساحقة من أعضاء الحزب التي قد لا تستوعبها، ناهيك عن الجمهرة الشعبية التي نسعى الى كسبها الى جانب خيارنا السياسي والاجتماعي. واذا ما تعرضت الايديولوجيا للتبسيط من أجل أن يفهمها العموم فإنها تتعرض للابتذال والتشويه كما حصل في المراحل السابقة. ربما سيتساءل البعض ان عدم ربط حزبنا بشكل مباشر بايديولوجيا، اي النهج المادي الجدلي او الماركسية واللينينية، سيفقد الحزب هويته. والجواب هو أن هوية الحزب تتحدد ببرنامجه الاجتماعي والاقتصادي وبالدفاع عن مصالح اي من الفئات الاجتماعية التي يكرس نشاطه للدفاع عنها وليس الايديولوجيا التي يعتمدها. فهناك العديد من الاحزاب التي تدافع في برامجها عن العمال او الفلاحين والفئات المعدمة في مجتمعاتها دون الاشارة الى تبنيها اي من التيارات الايديولوجية. وعلى هذا المنوال تعمل غالبية الاحزاب السياسية في العالم المعاصر سواء تلك التي تدافع عن مصالح الفئات المستغلة أو المستغَلة حيث لا تربط بين السياسة

والايديولوجيا. وهكذا تنشط الاحزاب الشيوعية السابقة في شرق أوربا والتي تستند إليها الوثيقة في التعريف بإنجازاتها بعد التجديد الذي طرأ على مجمل مسيرتها.

في إطار طبيعة السلطة الحالية فإن أي وصف لها، كما جرى في وثائقنا، قد لا يعبر بدقة عن طبيعتها الغريبة والشاذة في ممارساتها والتي قد لا نجد لها مثيلاً في عالمنا المعاصر. إن هذه السلطة قد طرأ عليها تغيرات سريعة عبر العقود الثلاثة الأخيرة. فالسلطة التي استولت على السلطة إثر انقلاب تموز عام ١٩٦٨ شرعت بعملية ابتلاع الحزب للدولة مستفيدة من تجارب انظمة الحزب الواحد في بلدان اخرى. ولكن هذا النمط من الدولة لم يكرس حالة من الاستقرار لسلطة الانقلاب بسبب التركيبة المتناقضة مما دفعها الى التوسل ببقايا المنظومة العشائرية التي ابتلعت الحزب والدولة في آن واحد وإلغاء المؤسسة الحزبية التي تحولت الى مجرد مجموعة من العرابين والمخبرين لأجهزة الدولة القمعية. وبذلك سدت الأبواب كلياً أمام أية احتمالات تبلور أي عنصر من عناصر المجتمع المدني. إن هذا النمط من الدولة يدفع المتنفذين فيها الى الخوض في مطبات خطيرة تمثل اخطرها في زج البلاد في حربين مدمرتين مما عرض السلطة الى الاهتزاز. ولم يعد قطب النظام يثق باحد مما حدى به الى الاعتماد كلياً على الحلقة العائلية الضيقة خاصة بعد مغامرة غزو الكويت. وهيمنت العائلة الحاكمة على كل مفاصل الدولة التشريعية والقضائية والعسكرية والأمنية والاقتصادية والمالية، بحيث اصبح من الصعب الشروع بأي مشروع اقتصادي مهما كان صغيراً مثلاً دون هيمنة افراد العائلة او مشاركتهم فيها. ومهما حاول النظام لملمة قاعدة من العشائرية التي تجاوزها المجتمع العراقي او بقايا العائلة والحزب بعد مجزرة حسين كامل، فإن الدولة—العائلة بهشاشتها تبقى هي الطابع للنظام القائم حالياً ما ينذر بانفجار يصعب التنبؤبه.

هذا النهج وممارسات السلطة الحاكمة وضعها في موقع لا يحسد عليه. ولذا من الصعب ان تتحقق احلام البعض، وهي محدودة، في تراجع النظام وبإرادته لخوض عملية المصالحة مع الشعب. ففي أول بادرة من هذا النوع سيتعرض النظام للتداعي والانهيار بسبب طبيعة بنائه الحالي. ولكن على الحزب ان يأخذ بنظر الاعتبار احتمال انصياع السلطة للضغط الدولي مثلاً والقبول بالقرار ٦٨٨ شأن قبوله بالقرارات السابقة. عندها سيطرح على المعارضة مسألة المفاوضات مع السلطة لنقل البلاد الى دولة المؤسسات كما جاء في نص القرار ٦٨٨، وعلى الحزب اتخاذ موقف واضح ازاء ذلك. هنا ينبغي التمييز بين موضوعة المصالحة الوطنية المزعومة وبين الدخول في

مفاوضات من هذا النوع، ومن المفترض ولصالح اخراج البلاد من المأزق القبول بالتفاوض مع السلطة بهدف الانتقال الى اجراء انتخابات حرة تحت رقابة الأمم المتحدة ولتجنب دوامة العنف في البلاد.

وفي هذا الاطار لم تحدد الوثيقة موقفاً صريحاً من القرارات الدولية الصادرة عن مجلس الأمن ضد العراق إثر غزو الكويت. هل مازلنا متمسكين بالقرارات السابقة ام ماذا؟ من المعلوم أن الموقف السابق ينطوي على موقف انتقائي يعكس رغبتنا المخلصة في رفع المعانات عن الشعب. ولكن السياسة فن الممكنات، وكل عناصر الأزمة المحيطة بالعراق دولياً تشير الى تعذر تحقيق موقفنا الانتقائي. فالحصار باقٍ رغم الآمال حول إحتمال رفعه في العام الماضي. ومن المتعذر توقع إزالة الحصار في ظل استمرار السلطة الحالية في سدة الحكم. وهذا ما يتطلب منا أن نعلن هذه الحقيقة للشعب الذي ينتظر منا عكس هذا الواقع وتفسيره. الآن الوثيقة مازالت مصرة على التمسك «بحلم» إزالة الحصار دون توفر عوامل إزالته. إن مطالبة المعارضة اخيراً وبضمنها الحزب بتنفيذ القرار ٩٨٦ الخاص بمبدأ «النفط مقابل الغذاء» قد تحقق بفعل توفر عوامل تحقيقه. ولكن اصرار الوثيقة على التمسك بالموقف الانتقائي والمطالبة بتحقيق مطلب ازالة الحصار كلياً يجر الناس الى السير في أوهام غير قابلة للتحقيق في المدى القريب وفي ظل بقاء السلطة الحالية ويترك آثاراً سياسية منها إضعاف ثقة الناس بتحليلات الحزب وقدرته على التنبؤ بمسار الأحداث. وفي البحث نفسه لم تتناول الوثيقة قرارات مجلس الأمن الدولي الخاصة بحجم القوات المسلحة وتسليحها ..الخ في اطار طرحها لموضوعة الجيش والقوات المسلحة. إن القوة العسكرية في عالمنا الراهن ليست هي الحاسمة في تحقيق الأمن لأي بلد رغم مظاهر التسلح والتي تراجعت بعد نهاية الحرب الباردة. ولذا ينبغي ان نكون واضحين في قبول هذه القرارات لكي تكرس جميع موارد البلاد لاعادة بناء الوطن وتسديد فواتير تعويضات الحربين.. خاصة وان النظام مازال يتحايل في تطبيق القرارات الخاصة بالتسليح تارة بشراء معدات عسكرية او إخفاء معدات اخرى مما يشدد الضغط الدولي ويزيد من معاناة الشعب.

وبشكل عام اعتقد ان القبول بجميع القرارات التي أصدرها مجلس الأمن، بغض النظر عن درجة الاجحاف والغبن في بعضها، يجنبنا المواجهة مع الهيئات الدولية والاطراف الاقليمية ثم يجر البساط من تحت اطراف دولية لها نوايا عدائية مسبقة ويساعدنا لاحقاً وبعد إزاحة النظام للتخفيف من بعضها وازالة البعض الآخر. فبلادنا مازالت طبقاً

للأعراف والقرارات الدولية تعتبر دولة معتدية، غزت بلداً آخراً عضواً في الأمم المتحدة، وتطبق عليها العقوبات التي إتخذت ضدها بغض النظر عن المكاييل المزدوجة والمستخدمة دولياً نتيجة تناسب القوى على النطاق العالمي، والذي هو ليس لصالحنا بالطبع. علماً أن بعض القرارات هي لصالح الشعب العراقي ومن ضمنها القرار ٦٨٨ والذي يترتب تركيز الضغط من أجل تطبيقه.

تطرقت الوثيقة الى حال المعارضة العراقية وهو وضع مؤسف حقاً، بالرغم من أن النظام الحالي يواجه أوسع معارضة دولية في تاريخ العراق الحديث وهو ما يوفر للمعارضة لو تكاملت عناصر التنسيق فيما بينها إمكانية انقاذ الشعب بسهولة من هذا الوضع الشاذ. وكان على الوثيقة ان تفصل في اسباب تعثر التوصل الى موقف موحد للمعارضة لكي يتم توضيح ذلك الى الشعب. هذا إضافة لما نتحمله نحن في تلكؤ الأداء المناسب لعمل المعارضة وهو ما تفتقر إليه الوثيقة.

ولكن بعد نظرة سريعة الى الوضع الشائك في المعارضة أود الاشارة الى بعض النقاط:

أولاً: ضرورة التركيز على نقطتين أساسيتين لجمع المعارضة، أي تغيير النظام الحالي ثم إقامة حكم يستند الى ارادة الشعب عبر انتخابات حرة دون استثناءات (الديمقراطية). وهنا وضمن تجاربنا السابقة من الافضل عدم التوغل في برامج تثير التقاطع او هياكل عمل تثير ولع البعض في «ظاهرة» الحصص التي لا تنم عن احترام لإرادة الشعب من قبل قوى مازالت في المعارضة ويزيد من «شهية» المزيد من التفرقة داخل المعارضة. ليتغير الحكم ثم نعود الى الشعب لكي يحدد «حصة» كل طرف في ادارة البلاد. ومن هنا ينبغي التوجه نحو اقامة هياكل مرنة ، دون مجلس تنفيذي ولا استشاري ولا جمعية عمومية ولا مجلس أعلى للثورة العراقية ، بل الحد الأدنى من التنسيق القابل لخلق اجواء صحية ديمقراطية داخل المعارضين كمقدمة لتطوير العلاقات.

ثانياً: فيما يتعلق من الامر بنا ينبغي ان يكون لدينا تقدير واضح يصب في النهج اعلاه ونجنب المعارضة ان تصبح طرفاً في التراشق الاقليمي والدولي. ان موقف الحزب المتريث من دعوات الأردن مثلاً يتصف بالحكمة. ولكن موافقتنا على المشاركة في اجتماع دمشق الذي دعي اليه كرد فعل على دعوة الأردن يعتبر مساهمة في التراشق الاقليمي ويضعف موقفنا وموقف المعارضة ككل. ومن ناحية اخرى لم أدرك حتى الآن سبب تجميد علاقاتنا مع المؤتمر الوطني الموحد. بالطبع ليس لدي أي أوهام حول طاقة

هذا الاطار في جمع المعارضين ولا على التغيير. ولكن تجميد علاقاتنا معه، وضعنا في موقف لا يحسد عليه في اجتماع دمشق بحيث لم يبادر أي طرف بما في ذلك الداعون اليه لاستنكار الموقف الشاذ بإبعادنا عن الاجتماع. ان ما تحتاجه المعارضة هو اعلان «عقد او ميثاق وطني قصير محدد» يحدد ملامح الخروج من المحنة والالتزام بعلاقات متسامحة بعد التغيير لتجنب نزيف الدم والدمار لاحقاً.

وضمن اطار سعي الحزب للتنسيق بين المعارضين طرح الحزب فكرة توحيد التيار الديمقراطي. وهي دعوة غير واضحة حقاً. فماذا نعني بالتيار الديمقراطي؟ هل هو التيار الديمقراطي اليساري أم التيار الديمقراطي الليبرالي العام وهو تيار واسع حقاً وله اصطفافات واسعة داخل البلاد مرتبطة بالتغيرات التي حدثت. اذا اقتصر فهمنا للتيار الديمقراطي على التيار الديمقراطي اليساري فسوف لن نستطيع الا التعاون مع التجمع الديمقراطي العراقي وهو الحاصل فعلاً. ولكن توجهنا ينبغي أن ينصب نحو تيار ديمقراطي واسع يلعب دوره الكبير في بلد لم يمارس الديمقراطية ويعيش ظروفاً استبدادية غريبة. وهنا يمكن أن يجري التنسيق بين اطراف واسعة تضم تيارات اسلامية ديمقراطية الى كردية واشورية وتركمانية وليبرالية، أي كل من يعلن قبوله بالعودة الى صندوق التصويت «كحكم في العلاقة بين القوى السياسية وبمبدأ تداول السلطة. وهنا يقلقني ما جاء في الوثيقة من الهجوم والنقد غير المبرر لموضوعة الليبرالية. هل هي عودة للعقلية السابقة التي إنتقدناها؟ ثم هل لدينا مشكلة مع الليبرالية كنظام ينشر الحريات السياسية والاقتصادية، والطريف نحن لا نعلن مخالفتنا في برنامج الحزب الذي اقره المؤتمر الخامس حتى حول الليبرالية الاقتصادية كطريق للتنمية. إن التيار الليبرالي في العراق الحالي، لو دققنا في الخارطة الاجتماعية لبلدنا، هو تيار واسع وله تأثير في العملية الاقتصادية وسيلعب دوراً اكبر في المرحلة التي تلي التغيير في الحكم.

وفي تدقيق موقفنا يمكن الاشارة الى موقف الحزب ازاء الأزمة في كردستان. بالطبع الحزب ليس طرفاً في هذا الصراع العبثي بل من أكبر المتضررين منه. ولنا أن نضع اليد على العنصر الذي يؤجج هذا الصراع. إن احتفاظ الطرفين المتنازعين بقدرات عسكرية وميليشيا خاصة بكليهما، وبكل ما تعنيه هذه القدرات من احتياجات مادية، يمثل العنصر المؤجج للنزاع بل وأساسه خاصة وأن مثل هذه التشكيلات المسلحة ترسي مصالح خاصة تتراشق الأطراف لحمايتها وهي بعيدة عن مصالح الشعب الكردي وقضية انهاء الاستبداد. ولذا ينبغي المطالبة بالعودة الى مبدأ قيام الحكومة الاقليمية بمهمة تنظيم

القوى المسلحة لمواجهة استفزازات السلطة، وإلاّ يبقى حل الخلافات السياسية الموجودة بين الاطراف الكردية مرهوناً بقدرة اي من الطرفين على جمع السلاح والمال لإزاحة الطرف الآخر، أي استمرار الكارثة بعينها. إن الاتفاق الاخير يلقي بصيصاً من النور على احتمال الخروج من الدوامة ولكنه ينطوي على عناصر لا ديمقراطية. فما معنى تطعيم برلمان الاقليم وبدون انتخابات بممثلين عن الاحزاب الاخرى؟ هذا الاجراء اللاديمقراطي سابقة سلبية تقلل من هيبة الطموح الديمقرطي والمثل الديمقراطي الذي يسعى اليه العراقيون جميعاً. الافضل هو التهيئة لاجراء انتخابات لاحقة بعد القرار بتمديد ولاية البرلمان.

تناولت الوثيقة الأوضاع في البلدان العربية وتطرقت الى سمات حقيقية لجوانب من الاوضاع السلبية التي تمر بها البلدان العربية. ولكن التقرير يصور الوضع بشكل قاتم عندما يركز على الجانب السلبي فحسب وهو الغالب. ولكن هناك مظاهر ايجابية ايضاً تخيم على البلدان العربية أغفلها التقرير. هناك موجة من الوعي الديمقراطي والعقلاني الذي بدأ ينتشر في العالم العربي. ويكفي ان نلقي نظرة سريعة على الصحف ووسائل الاعلام المرئية والمسموعة لنتحقق من ذلك. إن إنصياع عدد غير قليل من الانظمة العربية الى القبول بـ«صندوق الانتخابات» هو مظهر جديد في بلداننا العربية رغم محاولات تاطيره. الآن يوجد في عدد من الدول العربية برلمانات وتسنى للمعارضة التي كانت تعمل سراً خوض عملية الدفاع عن مصالح الفئات الاجتماعية المختلفة وتحديد المظاهر السلبية في حياة شعوبها، ويمكن الإشارة هنا الى مصر والمغرب ولبنان والأردن والكويت. حتى الدول الخليجية اضطرت الى القبول بشكل من مساهمة آخرين من خارج العوائل الحاكمة في ادارة شؤون البلاد على شكل مجالس شورى وغيره، دون المغالاة في دورها. ولكنها خطوات، مهما كانت بسيطة، نحو الاذعان لضغط القوى الحديثة التي تتزايد في هذه المجتمعات. وتصور الوثيقة بشكل ناقص الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية في البلدان العربية. وربما ترد في اذهان محرري الوثيقة الأوضاع المأسوية في العراق والسودان ..الخ فقط. ولكن هناك بلدان عربية اخرى يتجاوز دخل الفرد السنوي فيها اغنى دول العالم الصناعية. والحديث يدور حول الدول الخليجية التي تحولت الى مراكز مالية وتجارية عالمية ضخمة وجرت حالة من الاكتفاء في انتاج السلع الغذائية في بعضها ، إضافة الى مظاهر لتطور عدد من الفروع الصناعية في هذه البلدان أيضاً. وأدت هذه التنمية التي تمت بفعل النفط طبعاً الى تغيرات اجتماعية سريعة وبروز

وعي جديد ايضاً، يقض مضاجع المؤسسات السياسية القائمة والتي لم تعد تستجيب لهذه التطورات. وهناك مظاهر غير قليلة لخروج دول مثل مصر وسورية والمغرب من حالة الركود الاقتصادي الذي ساد في السنوات السابقة رغم الصعوبات والثمن الباهظ لهذا التوجه. على سبيل المثال حالة الإكتفاء الذاتي بمحاصيل الحبوب وعدد من السلع الغذائية في سورية وانتعاش تصدير بعض السلع الغذائية من سوريا ومصر والاردن وبعض دول شمالي افريقيا وحتى السعودية. وبالرغم من أن دول الشرق الأوسط مازالت تحتل المرتبة الثانية بعد دول جنوب شرق آسيا من حيث استيراد السلاح إلاّ أن كمية الاسلحة المستوردة انخفضت من ٣٢٪ في عام ١٩٩٤ الى ٢٣٪ في عام ١٩٩٥، بالرغم من أن ذلك لا يزال يشكل مقادير مالية ضخمة لحد الآن تؤثر على العملية التنموية. وشهد العالم العربي تطوراً كبيراً في ميدان الصحة والتعليم والخدمات الاجتماعية خاصة في الدول ذات المداخيل العالية، وليس هنا المجال لطرح الاحصائيات الخاصة بذلك. وهذا لا يلغي بالطبع عدداً من المظاهر السلبية التي أوردتها الوثيقة.

وفي الميدان الدولي مازالت الوثيقة مشدودة لأجواء الحرب الباردة وذيولها. إن التوقف الدقيق عند خصائص الوضع الدولي يتيح لنا عند فهمه الامساك بالحلقات التي تخدم انتشال شعبنا من مأزقه. وتطرح الوثيقة جانباً واحداً من سمات الوضع الدولي وتترك آخر. إن انتهاء الحرب الباردة ازال شبح الرعب النووي الذي كاد ان يتفجر في اية لحظة وهذا انجاز كبير في اطار الحفاظ على النوع الانساني. وازيلت منظومات عسكرية جهنمية كمنظومة حرب النجوم الامريكية وتكاليفها الباهظة وما يقابلها من استعداد لبناء منظومة مقابلة لدى الجانب السوفييتي آنذاك. وأزيل عدد من بؤر النزاعات الخطيرة مثل جنوب افريقيا وانغولا ونيكاراغوا والسلفادور ونهاية الحرب العراقية-الايرانية المدمرة والطويلة وغيرها ولكن إندلعت نزاعات محلية من نوع آخر كان اخطرها الحملة على العراق إثر غزوه الكويت، ولكن ينبغي التأكيد على أنه بالرغم من مآسيها فهي أقل خطورة على السلم والامن في العالم من النزاعات السابقة بالتأكيد. ولا يصح أن يقال بالمطلق إن العالم «يشهد اتجاهاً نحو التفكك والتشرذم ناتجاً عن انهيار توازن الرعب السابق» كما جاء في الوثيقة، فهناك ميل نحو التكتلات الاقليمية على الصعيد العالمي وان مجموع النزاعات في العالم من حيث مجموعها أقل من فترة الحرب الباردة.

الواقع الدولي الجديد أفرز حالة أحادية الاستقطاب، اي الدور المهيمن للولايات المتحدة. ولكن هذا الدور المهيمن يخضع لتأثيرات الدول الصناعية الكبرى رغم

التناقضات الهامشية في مصالحها. هؤلاء الست الكبار هم الذين يقررون اتجاهات موقفهم على النطاق العالمي ويتخذون المواقف الموحدة ازاء الاحداث ويسوون خلافاتهم دون بلوغها الصدام العسكري كما كان يحصل في السابق. ورغم التناقضات الموجودة في المصالح ، إلا أنهم يتخذون الموقف الموحد ازاء ما يهدد مصالحهم المشتركة. ان ارضية هذه الآلية تقوم على ما يطلق عليه الآن «العولمة». فإذا أصاب الدولار هزة ما تسرع اليابان لاتخاذ اجراءات مناسبة لاعادة الوضع الى الحالة الطبيعية. واذا ما أحس هؤلاء الكبار بخطر يهدد الرئيس الروسي يلتسن فسرعان ما تمتد يد صندوق النقد الدولي لتقديم الاسعافات اللازمة لدعم موقفه . وبالرغم من الحديث عن التناقضات ازاء العقدة العراقية فإنه عندما تطرح قضية الحصار يتخذ مجلس الأمن الدولي قراره باستمرار الحصار. وعلى هذا يجب عدم المغالاة بالتناقضات الى حد التلويح بـ «طبيعة العلاقات المتناقضة بين مراكزه الرئيسية. ويتخذ أوجهاً متعددة ومتشابكة منها: الوجه العسكري – السياسي ... الخ» والتي تتناقض مع الفقرة التالية في نفس الوثيقة والتي تشير الى «ان العولمة.. تؤكد على الترابط بين اجزاء العالم الذي تعمل الاحتكارات الرأسمالية الكبرى على توظيفه لخدمة مصالحها».

إن من يقرأ الوثيقة تتكون لديه صورة احادية عن الصعوبات الاقتصادية في الدول الرأسمالية المتطورة وكأنها على حافة الانهيار في حين ان هذه التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية القائمة على الاستغلال لم تستنفد طاقاتها. فالواقع يشير الى حالة اخرى تنم عن قدرة الرأسمالية على تجديد نظامها. إن معياراً هاماً لانهيار اية تشكيلة اجتماعية–اقتصادية هو تعثر هذه التشكيلة في تطور وسائل الانتاج وتراجعها في انتاجية العمل. إلاّ أن واقع الحال يشير الى الاستمرار في تصاعد انتاجية العمل بالاستفادة من اعلى وسائل الانتاج تطوراً.

والشيء الآخر المتعلق بالموقف من الدول الامبريالية وبالتحديد الولايات المتحدة، يجب ان نخرج من اطار موقفنا اثناء الحرب الباردة، اي كل ما يتخذه الاتحاد السوفييتي نقف الى جانبه وكل ماتقوم به الولايات المتحدة نقف ضده. فقوانين الحرب الباردة انتهت ، ولا تتكرر خبطات الولايات المتحدة مثلاً في طرد شارلي شابلن بدعوى شيوعيته ولا يقتل الأدباء بحجة عدائهم للوطن خاصة في الفترة الستالينية. هناك قوى ضغط في مجتمعات هذه الدول تحد من النزعات السلبية لحكام الدول الرأسمالية الذين يطمحون الى الربح والربح فقط. على سبيل المثال ، أثارت الهجرة الواسعة والقمع ضد الشعب

العراقي اثناء الانتفاضة الرأي العام الذي ضغط على دولها لكي تتخذ القرارات الخاصة بالملاذ الآمن للأكراد العراقيين ومراقبة المناطق الجنوبيّة للعراق. وحدث نفس الأمر عندما كانت الولايات المتحدة سباقة في وقف الصراع المميت في البوسنة والهرسك. فكيف نصف هذا الاجراء الذي اتخذته الدول الامبريالية، هل هو مخطط امبريالي ام ماذا، وهل ندينه؟ إذن لا ينبغي الإطلاق بل أن نحدد موقفنا تبعاً لتعارضه او تطابقه مع مصالح شعبنا. يذكر هذا المثال لنسترجع ما جاء في احد قرارات المؤتمر الخامس حول الصومال حيث أدان القرار تدخل الولايات المتحدة في الشؤون الداخلية لهذا البلد. والجميع يعرف إن القوات الدولية أرسلت لفك الاشتباك بين الفئات المتصارعة وغادرت عندما أصر هؤلاء على استمرار مسلسل القتل.

اعتقد ان الوضع الحالي للعراق والتداخلات الدولية فيه تجعلنا أكثر حذراً في اطلاق الشعارات بدون تدقيق.

وبنفس العقلية تتناول الوثيقة تقييمنا للتطورات في الحركة العمالية والاشتراكية في العالم. وجاء في الوثيقة: «فالسنوات اللاحقة لإنهيار الاتحاد السوفييتي وتجارب الاشتراكية في أوربا الشرقية اكدت صواب الاشتراكية كخيار والماركسية كنهج». هذه العبارة غير دقيقة. إذا كان الحديث عن المستقبل وليس القريب للإشتراكية ولنقل مجتمع العدالة والحرية، فإن ذلك جائز. ولكن كل الحركات التي تتحدث عنها الوثيقة لم تطرح الاشتراكية كخيار ولم تشر برامج هذه الاحزاب الى النهج الماركسي ما عدا الحزب الشيوعي في روسيا الاتحادية. إن هذه الأحزاب تسير على طريق اصلاحي وتقر اقتصاد السوق ولا تشير في برامجها الى موقف سلبي من الملكية الخاصة التي تعتبرها ضرورية من اجل توفير الانتاج المادي لكي يوزع عند توفره في المستقبل بشكل عادل. كل ما تسعى إليه هذه الاحزاب هو الحد من التأثيرات الاجتماعية السلبية لعملية التنمية الرأسمالية . ويشارك في ذلك حتى الحزب الشيوعي في روسيا الاتحادية. ومن ناحية اخرى فإن الانتخابات الاخيرة في روسيا دللت على مؤشرات تستحق الدراسة. فخلافاً لإدانة الوثيقة للإصلاح الذي جرى هناك بالمطلق فإن يلتسن حصل على أعلى الأصوات في المواقع التي طبق فيها الاصلاح. ففي موسكو، المدينة الصناعية، حصل يلتسن على ٦٠٪ من الأصوات بينما حصل زوغانوف على ١٦٪ من الأصوات وقد تخلف حتى عن شخصية مغمورة هو بطل الملاكمة الروسي السابق والجنرال المتقاعد الذي حارب في افغانستان ألكسندر لبيد. أما الأصوات الكبيرة التي حصل عليها زوغانوف فقد حصل

عليها في ما يسمى بالحزام الأحمر الذي لم تطبق فيه الاصلاحات. وتشير إحدى وثائق الحزب الى النجاحات التي أحرزتها التجربة الاشتراكية في الصين وكوبا. هنا لا بد من الاشارة الى ان الصين دخلت اقتصاد السوق من اوسع أبوابه وحصلت على قروض من الهيئات الدولية التي تدينها الوثيقة واستطاعت أن تحرز نجاحات اقتصادية معروفة، ونفس الامر حدث في فيتنام، وبشكل اقل في كوبا وتعثرت مسيرتها بسبب العنجهية القومية الامريكية وليس بسبب «اشتراكية كوبا»، فامريكا تتعامل مع الصين وفيتنام باعتبارهما من الزبائن الذين يحصلون على الأفضلية. أما عن الصفة الاشتراكية التي تطلقها الوثيقة على هذه البلدان فهو أمر مشكوك فيه. لإن من أول معايير أية تشكيلة اقتصادية اجتماعية كونها اعلى من الرأسمالية هو انتاجية العمل فيها. فأين الاقتصاد الكوبي أو الصيني من ذلك؟ هذا ناهيك عن البناء السياسي القائم على مبدأ الحزب الواحد الذي ثبت فشله.

هذه ملاحظات أولية وسريعة عن الوثيقة التي كما يبدو تفتقر أيضاً لمناقشة البناء الحزبي ومن الممكن العودة الى مناقشة الموضوع في وقت لاحق. إن هذه الملاحظات منطلقة من مقولة فلسفية تقول « التجربة محك الحقيقة». ولنا أن ندرس الفشل الذي طرأ على التجربة السابقة وفسح المجال للمزيد من الحوار وأن لا نصم أي رأي يتعارض مع الرأي المقر بالعبثية أو الليبرالية كما جاء في الوثيقة. فهذا الإسلوب لا يساعد على توفير الأجواء المناسبة لكي يستطيع الحزب أن يلعب دوره في عملية بناء وطننا وسعادة شعبنا. وللحزب تراث كبير تمثل في المرحلة الأولى من بنائه وفي فترة ما بعد بناء وحدة الحزب في منتصف الخمسينيات عندما طرح المشكلات بتواضع وواقعية واستطاع أن يجتذب احترام الشعب والقوى السياسية. وهناك يقين في ان يستطيع الحزب تجاوز الصعوبات الحالية والسير حقاً على طريق الديمقراطية والتجديد.

١٩٩٦/٦/١٩

من الأزمة إلى المعاناة

قراءة تدعي الموضوعية في عمل الحزب منذ المؤتمر الخامس

عزت العراقي

افتتح الرفيق عزيز محمد السكرتير السابق للحزب المؤتمر الخامس (م٥) بكلمة شاملة. ومما جاء فيها قوله عن حالة الحزب عشية المؤتمر: «. . . إن حصيلة عمل الحزب ورفاقه ماتزال دون مستوى الطموح بكثير وكثير جداً. . . وإن عوامل تاريخية وتقصيرات ومواقف فكرية خاطئة مكنت أجهزة القمع الديكتاتوري من ملاحقة رفاقنا ومنظماتنا بكفاءة، وعرقلة نشاطهم إلى حد كبير. ومما أضعف طاقاتنا على الحد من أثر الإرهاب، بالإضافة إلى عوامل أخرى، إمكاناتنا المالية. . .». لكن المؤتمر أرجع الأسباب إلى «النواقص الذاتية الخطيرة في الهيئات القيادية للحزب بدءاً باللجنة المركزية ومكتبها السياسي التي تمثلت في عجزها عن معالجة الظواهر غير الصحيّة في حياة الحزب وما سببه ذلك من انعكاسات سلبية على حياة المنظمات وعلى عدد غير قليل من الرفاق والكوادر الحزبية».

لقد تغير الوضع كثيراً منذ المؤتمر وتقدم الحزب أشواطاً بعيدة باتجاه استنهاض نفسه وتصحيح أوضاعه وتسديد خطاه على دربه النضالي الطويل من أجل وطن حر وشعب سعيد. ومع ذلك فإن وضع الحزب لا يدعو للرضا عن النفس قدر ما يؤشر إلى وجود قدر كبير من النواقص والثغرات وأحياناً سوء التقدير الذي رافق عمل الحزب مما يستدعي من الشيوعيين أن يشمروا عن سواعدهم والعمل بهمة عالية بروح القيم والمبادئ والضوابط التي أسس لها المؤتمر الخامس وحرصت ل.م. على التمسك بها.

إن تقويماً منصفاً لعمل ل.م وم.س وكوادر الحزب ومنظماته ورفاقه على كل الجبهات، رغم الظروف الصعبة المعقدة التي عمل الحزب في ظلها، يقود إلى الاعتراف بضخامة ما تم إنجازه، ويثير فخر واعتزاز الشيوعيين ويجدد ثقتهم بقدرات حزبهم على تجاوز نواقصه وتجديد نفسه ومواصلة نضاله في خدمة الشعب والوطن، وإلى الاستنتاج أن الحزب خرج من حالة شبه الشلل، حسب تقويم م٥ ليقف والعافية تدب في جسده لينازل الديكتاتورية في الوطن الحبيب. وهذا يدخل السعادة في قلوب محبي الحزب والانزعاج والحنق في قلوب أعدائه.

إن ما ساعد ل.م فيما تحقق من نجاحات، في تقديري، يرجع إلى احترامها وتمسكها بالشرعية الحزبية وقرارات م٥ وتوجهاته وأجوائه، والإصغاء لنبض الواقع العراقي ودأبها على تجسيد الروح الجماعية في عملها عبر اجتماعاتها الاعتيادية والموسعة والمشتركة والاستثنائية، والتنسيق الدائم بين المكتبين السياسيين لحشع وحشك ولجنتيهما المركزيتين، وإرساء تقليد استشارة الكادر الحزبي القريب منها والمختصين خارج الوطن. وكذلك حرصها على وضع رفاقها في صورة عملها واجتماعاتها وما سادها من أجواء، وتقويمها الدائم لعملها سلباً وإيجاباً عبر النشرات والتعميمات الداخلية، أو عبر الصحافة الحزبية وبالتالي استفادتها من الملاحظات والآراء لرفاق الحزب وأصدقائه، سواءً من خلال اجتماعات المنظمات الحزبية أو من خلال ما ينشر في الصحافة الحزبية التي صارت أوسع صدراً في تقبل الرأي الآخر والتفاعل معه.

وشكلت ل.م هيئات اختصاص تتابع تنفيذ المهام التي حددها م٥ بما يضمن تناسق تطور العمل الحزبي وتحريك مفاصله بصورة ناجحة لتنفيذ الأهداف والبرامج المحددة.

ورغم ما تقدم فإن عمل الحزب بقي دون المستوى المطلوب حسبما جاء في موضوعات ل.م. وهذا لا يرجع في تقديري للأسباب التي جاءت في الموضوعات فقط، بل كذلك إلى البطء الشديد الذي رافق عمل ل.م وفي معالجة النقص الذي عانت منه هيئات الاختصاص، خصوصاً في الفترة التي تلت المؤتمر. فقد اكتفت ل.م بتوجيه اللوم الخفيف دون أن تتدخل في الوقت المناسب.

جاء في تقرير م٥ تحت عنوان مهامنا في الظرف الراهن: «إن كل المهمات التي سبق ذكرها لا يمكن تحقيقها بشكل مرضٍ ما لم يسهم حزبنا في تنفيذها إسهاماً فعالاً. وهذا لن يتحقق بدون تقوية تنظيمنا الحزبي في جميع مواقع النضال ضد الدكتاتورية». ووصفت وثائق صادرة عن اجتماعات ل.م لاحقاً بأن هذه المهمة هي المهمة رقم واحد. لكن نظرة

موضوعية لما تحقق ودون التقليل من أهميته قياساً لما كانت عليه الأوضاع قبل م٥، وارتباطاً مع الظروف غير المؤاتية وحجم الموروث من المشاكل، يجعلنا نحكم على الأداء في هذا المجال بأنه لم يكن بالمستوى المطلوب، وأن النقلة النوعية المنشودة في وضع التنظيم والحياة الداخلية للحزب لم تتحقق بعد لأسباب تتعلق بأداء الهيئات القيادية وتحديداً المختصة بالتنظيم التي تلكأت طويلاً في تنفيذ المهمات الموكلة بها على الرغم من الانتقادات التي وجهت لها من قبل ل.م كما عكست ذلك وثائق الحزب الداخلية. وعجزت ل.م عن تشكيل هيئة الرقابة الحزبية التي كان من المؤمل أن تكون ضابطاً للحياة الحزبية وضماناً لسلامتها واستمرارية عملها والحؤول دون أية تجاوزات على الشرعية الحزبية وقرارات م٥. ورحّلت هذه المهمة أخيراً إلى جدول أعمال م٦ ومعها كثير من المشاكل والمصاعب في إطار العمل التنظيمي.

وبالارتباط مع التنظيم فإن المهمة الأولى للحزب وهو العمل بين الجماهير قد اقتصر على النشاطات المتواضعة التي قامت بها منظمات الحزب. فقد ظل هذا المجال متخلفاً من حيث وسائله وأساليبه وأشكاله التعبوية ولم تمسه يد التجديد، وبقي الحديث يدور داخل ل.م وم.س عن دراسة لورقة عمل حول هذا الموضوع، على حد علمي. إلا أن هذه الورقة لم تر النور بعد. ولم تصدر أية توجهات محددة ذات صفة نوعية في هذا المجال على الرغم من متطلبات التطور السريع للأحداث في بلادنا. والحصيلة هي ضعف عملنا الجماهيري حتى في منطقة كردستان رغم الظروف المؤاتية نسبياً قياساً بمناطق البلاد الأخرى وهذا ما تؤكده الوثائق الصادرة عن حشك وحشع.

أما الضعف الأبرز في عمل قيادة الحزب منذ م٥ على ما أعتقد فتجلى في ميدان العمل الفكري. حقاً إن معالجة هذا الميدان ليست يسيرة ارتباطاً بالنكسات المتمثلة بانهيار الاتحاد السوفيتي ومن ثم أنظمة أوروبا الشرقية وانعكاس ذلك على الحركة الشيوعية ومنها حزبنا الذي كان يعيش أزمة من بين أهم أسبابها الإهمال الطويل للعمل الفكري التثقيفي والتربوي داخل الحزب، فضلاً عن شيوع حالة الإحباط واليأس وضعف الثقة بالفكر والحزب جراء ما تقدم لدى عدد غير قليل من الرفاق.

وبالإضافة إلى ما تقدم فإن بعض مثقفي الحزب قد لعبوا دوراً غير صغير في تشوش أذهان رفاق الحزب وجماهيره من خلال طروحاتهم وتصريحاتهم التي تجاوزت كل الحدود. فتحولت موضوعة التعارض بين السياسي والثقافي إلى وسيلة لشتم الفكر والحزب والحركة بدلاً من أن يوجه كل هذا السخط ضد النظام، وذلك على الرغم من

مناشدة الحزب لهم وحرصه المنقطع النظير عليهم. لكن الكثير منهم، ومن منطلق إيمانهم العميق بسلامة فكرهم وثقتهم العالية بقدرة حزبهم على تجاوز الأخطاء والثغرات، وقفوا بحزم بل قاتلوا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معاني الصمود والتحدي، على مختلف جبهات النضال الحزبي. ومن حق الحزب ورفاقه أن يفتخر بهم جراء مواقفهم تلك.

وفي حين يؤكد م٥ من خلال التقرير الصادر عنه «إن العمل الفكري يشكل أهمية استثنائية» إلا أن ما تحقق على هذا الصعيد كان محدوداً للغاية ولا يتناسب مع مفردة الاستثنائية تلك. ولم تتمخض جهود قيادة الحزب سوى عن هيئة للعمل في الخارج لم تحرز أي نجاح يذكر ولجنة دراسات بقيت لفترة طويلة ولازالت اسماً على غير مسمى، ومحاولات لتشكيل لجنة عمل فكري مركزية لم نشعر بوجودها إلا بعد الاجتماع الأخير للجنة المركزية. إن ما جاء في تعميم لجنة العمل الفكري المركزية من توجهات يثير الارتياح لكن الأهم هو تحويلها إلى واقع عملي ملموس وعدم الاكتفاء بالمناشدة الواردة في ذلك التعميم.

إن وضعنا الفكري، بموجز العبارة، مربك ومشوش ويستدعي بذل جهود استثنائية فعلاً، لا قولاً، للارتقاء به، لقد نسي البعض أولويات الماركسية ناهيك عن مستجدات البحث النظري الفكري في الظاهرات الجديدة كتغير التركيب النوعي للطبقة العاملة والعولمة وما إلى ذلك. إن التذرع بنقص الكادر وشحة الإمكانات وتشتت الكادر صحيح لكنه لا يشفع لنا ولا يقضي على حالة تخلفنا الأكيدة في هذا المجال الهام بل الأساسي.

كان م٥ قد أشّر مسألة هامة للغاية تتعلق بجمع إمكانات الحزب لتحقيق المهمات، ومن بين ما حدده هو التوجه للرفاق الواقفين بعيداً عن الحزب. وقبل انفضاض المؤتمر وجه نداءً حاراً لهؤلاء الرفاق. وبما أن ما جعل الرفاق يقفون بعيداً يرجع لمشاكل معقدة وممارسات سلبية ألحقت الأذى بالكثير منهم وخلقت لهم معاناتهم الخاصة، لذلك فإن النداء كان يتطلب من ل.م والهيئات القيادية الشروع بمتابعة جادة في إطار خطة مدروسة تعجل في عودة من يقتنع لصفوف الحزب وابتداع السبل والأساليب التي تضمن بقاء الآخرين على مقربة من الحزب ليستفيد من إمكاناتهم وخبراتهم حيث كان أغلبهم من الكوادر المجربة. لقد تركت قيادة الحزب الأمر للمنظمات التي تحركت بحدود ضيقة للغاية. . . وإلى جانب ذلك تعاملت ل.م مع بعض طلبات العودة بنفس الطريقة الموروثة. ولابد من التوكيد أن قيادة الحزب ومنظماته لا تتحمل وحدها المسؤولية في بقاء هؤلاء الرفاق البعيدين عن الحزب فهم أيضاً يتحملون جزءاً منها. وكان عليهم تقدير نداء الحزب

ومسؤوليتهم إزاءه بضم طاقاتهم لطاقات رفاقهم وشدّ أزر الحزب في ظل الظروف العصيبة التي تعصف بالوطن.

لم تعد حياة الحزب الداخلية كما كانت عليه قبل م٥ بل أصبحت أفضل جداً. ولا أريد تكرار ما جاء في موضوعات ل.م الأخيرة. ولكن ما أنجز على صعيد الديمقراطية الحزبية أبعد ما يكون عن الكمال ليس فقط ما يتعلق بموضوع الانتخابات بل حتى على صعيد الممارسات في إطار الهيئات الحزبية. فلايزال النقد يعد انتقاصاً حتى وإن كان حريصاً وموضوعياً. ولازال المنتقد لا يثير الارتياح. أما ممارسة النقد الذاتي ففي أدنى صورها على مستوى الرفاق والهيئات. ولازالت نزعة الاستئثار بصنع القرار ودعوة الآخرين للتصديق عليه دون الإصغاء لملاحظاتهم الجادة قائمة في الكثير من الهيئات، ومنها الهيئات ذات الطابع القيادي، ولازالت التربية القديمة في المكاتب الحزبية تشد الكثير من الرفاق وتجعلهم يصغون وينفذون ما يطلبه منهم المركز الحزبي واضعين ملاحظات رفاقهم على الرف، هذا فضلاً عمن يعتبرون أنفسهم مراجع قائمة بذاتها لا سلطان عليها وما على الآخرين إلا السماع والطاعة.

إن إعطاء صلاحيات واسعة للمنظمات الحزبية لا يعني بالضرورة تمكينها من حل مشاكلها وقدرتها على تنفيذ الوصية العامة للحزب فيما يتعلق بحياتها الداخلية أو تنفيذ سياسة الحزب وتحقيق أهدافه. إن الأمر يتطلب فحصاً ومراقبة دائمة لوضع المنظمات لمساعدتها على ذلك وليس تركها إلى الحد الذي تتراكم معه المشاكل والسلبيات والنواقص ومن ثم البحث عن حلول لها. إن تطور الحزب وقوته وتجدده وسلامة حياته الداخلية لا تنعكس على وضع الحزب فقط وإنما على ساحة النضال الوطني برمتها. فانتعاش الحزب ونجاحاته عربون مضمون لعمل جاد داخل الوطن من أجل إزاحة ليل الدكتاتورية.

إن رسم سياسة سليمة ودقيقة للحزب، حسب تقديري، لا تستدعي فقط مشاركة رفاق الحزب ومنظماته، إنما تتطلب أيضاً بناء جهاز معلوماتي يمتد نشاطه لكل زاوية من زوايا الواقع العراقي ويشمل جميع مفاصل حياته، مهمته دراسة وتحليل المعلومات. وهذا ما يساعد الحزب على معرفة التطورات الحاصلة واتجاهاتها ويمكنه من استباق الأحداث بهدف التأثير على مساراتها بدلاً من الجري وراءها. ومن الطبيعي القول إن ذلك يتطلب كادراً وتنظيماً قوياً يقوم على كل بقعة من بقاع الوطن. وما جاء في موضوعات ل.م، على أهميته، اتسم بالعمومية ولا يساعد على إعطاء صورة دقيقة للواقع.

وكان من الواجب أن تعيد ل.م صياغة النظام الداخلي والبرنامج مرة أخرى وتطرحهما للمناقشة بدلاً من اعتبارهما مسودتين تحت المناقشة. لقد تغير الوضع كثيراً منذ م٥، هذا إضافة إلى أن مناقشة لهذه الوثائق قد تمت بعد انتهاء أعمال م٥ ورفعت نتائجها إلى ل.م فما الداعي لتكرار المناقشات مرة أخرى على ذات الوثائق؟

وبعيداً عن التطورات وانعكاساتها على عملنا وبقدر ما يتعلق الأمر بالنظام الداخلي فإن من الضروري إعادة صياغته صياغة تنسجم مع واقع الحال وإمكانات الحزب ليتسنى تطبيقه تطبيقاً صحيحاً في منظمات الحزب. وبعيداً عن تهمة التشدد وادعاء المرونة، أضيف أن بعض المنظمات وضعت، من الناحية العملية، النظام الداخلي على الرف. ولو أنها طبقته وفقاً للصيغة الواردة في المادة السابعة حول الاستقالة لحلت بها كارثة حقيقية.

ولا أعرف بالضبط لماذا قيد بالنشر في الصحافة الحزبية حق الرفيق أن يساهم في رسم سياسة الحزب ومراقبة تنفيذها وأن يشترك في المناقشات داخل الاجتماعات الحزبية بحرية، أن ينشر وجهات نظره في القضايا الفكرية والسياسية في الصحافة الحزبية، وفق الأصول التنظيمية. ولماذا النشر في الصحافة الحزبية بإذن من المنظمات الحزبية، هذا القيد لابد من رفعه.

لقد بذل الحزب جهوداً كبيرة على صعيد تجميع قوى المعارضة ورص صفوفها في مواجهة الدكتاتورية. وعلى الرغم من قلة النجاحات لكن جهود الحزب هذه تحظى بتقدير الأطراف ومكنت الحزب من إقامة علاقات جيدة بعيدة عن التوتر مع الجميع باستثناء بعض القوى الدينية التي دأبت على جعل نفسها وصية على الآخرين ضاربة عرض الحائط متطلبات النضال الوطني التي تستدعي وحدة المعارضة وتنسيق جهودها للإطاحة بصدام وإنهاء معاناة الشعب والوطن.

إن الشيء الجديد هو حرص الحزب على استقلالية مواقفه في التعامل مع الآخرين وعدم الرضوخ للضغوطات ومحاولات الابتزاز التي يراد منها التأثير على سياسة الحزب ومواقفه وثوابته، وكذلك تركيزه على العامل الداخلي دون إغفال ما للعامل الإقليمي من تأثير على القضية العراقية في ظل الظروف الحالية للعراق والتغيرات على الساحة الدولية والإقليمية. هذا بالإضافة إلى ممارسة النقد إزاء الحلفاء بما ينسجم مع المصالح الوطنية ويعزز ممارسة الديمقراطية في الحياة السياسية وبين أطراف المعارضة الوطنية. إلا أن عمل الحزب في هذا المجال لا يخلو من نواقص بسبب عدم توفر الحزب

على دراسات وافية عن واقع المعارضة العراقية وعلاقاتها وتحركاتها، وأحياناً بسبب الاستعجال في اتخاذ المواقف من منطلق الحرص على وحدة المعارضة كضرورة وطنية ملحة.

إن ما يعزز تأثير الحزب على مجرى تطور الأحداث في بلادنا هو ما يحققه من نجاحات على صعيد تطوير إمكاناته وتلاحم صفوفه وديناميكية حياته الداخلية وقدرته على تعبئة الجماهير وتصدر نضالاتها عبر تبني مطالبها اليومية. إن ذلك سينعكس ايجاباً على مسعى الحزب لتقريب المعارضة من بعضها ويساهم في خلق وحدة صف حقيقية ويضعف كثيراً التأثيرات الإقليمية على الحياة السياسية العراقية.

ورغم كل ما تقدم، فإن هناك مؤشرات واضحة تدل على أن ما بُني منذ م٥ كان وطيداً رغم بطئه وإن نتائج طيبة بدأت تتحقق، ويبشر عمل الحزب على جميع الأصعدة بنجاحات لاحقة، ولازال الحزب يمتلك طاقات زاخرة لم تستنفد بعد. لقد كان وسيظل م٥ علامة مضيئة في تاريخ حزبنا وعلى هدى قراراته سطر الشيوعيون صفحات نضالية مجيدة مفعمة بالتضحية ونكران الذات وتحقق الكثير مما كان يجب القيام به واستعيدت قيم وأخلاقيات وممارسات وتقاليد بعد أن غابت لفترة غير قصيرة، وأُسس لقيم ومفاهيم وضوابط وقواعد جديدة اقتضاها تطور العصر والواقع والحزب نفسه. وبقيت مهام مؤجلة ومشاكل ليست قليلة تنتظر الإنجاز والحلول ستكون على طاولة م٦ للحزب. وما من شك في أن الشيوعيين العراقيين قادرون على القيام بواجبهم ليكون م٦ نقلة نوعية في حياة الحزب واستكمالاً لما أنجزه م٥ وخدمة لقضية الشعب والوطن.

أوائل حزيران/٩٦

العقوبات الدولية وصراع الهيمنة على العراق

لطفي حاتم

طرحت ل م في وثيقتها المعنونة «موضوعات أساسية... الخ» الكثير من الآراء الجديرة بالمناقشة الفكرية، والسياسية، بعيداً عن اجواء الشعار الساخن المتمثل في التصدي للديكتاتورية، وتعرية نظامها السياسي. وبهدف تعميق الحوار حول القضايا الاساسية، سنعمد الى حصر مناقشتنا بموضوعات محددة تتركز في تدقيق العلاقة الجدلية بين جانبي مشروع الوطنية الديمقراطية من جهة، وضرورة تميّزه عن المشاريع الدولية، والاقليمية، من جهة اخرى.

فعلى الرغم من التباينات الحادة، والمتقاطعة، بين المشاريع الدولية، والوطنية، لا زال هناك تشابك بين مشروعنا الوطني، وبين المشاريع الدوليةذات الافاق الاستراتجية. وهذا الإلتباس يعود في احد جوانبه الى كيفية توظيف العوامل الدولية في مجرى نضالنا الوطني، الامر الذي يدعونا الى طرح التساؤلات التالية: هل هناك إمكانية لفك الارتباط بين مشروعنا العراقي، وبين المشاريع الدولية، والاقليمية؟ وهل ان العوامل الدولية لا زالت عوامل مساعدة ام انها اصبحت عوامل مقررة لمستقبل بلادنا؟. أسئلة كثيرة، واجتهادات عديدة، ولكن كما يبدو لي ان العتبة الاساسية لفك الاشتباك بين المشاريع الدولية والوطنية، تبدأ من وضوح الموقف ازاء مفهوم العامل الدولي اولاً، وتدقيق الموقف الوطني من العقوبات الدولية على العراق ثانياً.

العوامل الدولية إعاقة للنضال الوطني

بدءاً لا بد من الإشارة الى ان مفهوم العوامل، مفهوم متشظ يفتقد الوحدة والانسجام، بسبب تنازع المصالح، والمشاريع الدولية الخاصة بمستقبل العراق السياسي. وعلى اساس هذا التنافر في المصالح والرؤى، فإن العوامل الدولية أصبحت عوامل معرقلة لوحدة المعارضة العراقية، بسبب انحياز اغلبية فصائلها لهذه الجهة الاقليمية، او تلك الاطراف الدولية.

إن تشظي مفهوم العوامل الدولية ، يطرح سؤالاً جديراً بالاهتمام: هل ان تدويل الازمة العراقية يخدم المصلحة الوطنية لبلادنا أم أنه يرتبط باهداف استراتيجية للدول الكبرى؟ للإجابة على هذا التساؤل لا بد من التوقف عند المشاريع الدولية الاقليمية المتنازعة على تقرير مستقبل العراق، فابرزها يهدف الى وضع العراق تحت مظلة الامن الاقليمي، الذي تسعى الولايات المتحدة الامريكية الى تحقيقه، والذي تتشكل عناصره من احلاف عسكرية، وسوق شرق اوسطية، وثانيهما المشروع الاوربي، الهادف الى ايجاد مواقع اقتصادي– سياسية، في المحيط العربي من خلال مؤتمرات لشبونة وعمان، منافسة للهيمنه الاميريكية. ويتجلى المشروع الثالث في المحاولات الرامية، لتشكيل تحالف اقليمي عربي– ايراني، يستهدف التركيز على موازنة المصالح الوطنية والدولية، ويدعو الى ابعاد الهيمنة الاميريكية عن المنطقة.

ان اصطراع هذه المشاريع ينعكس بقوة على صعيد «الشرعية الدولية» التي باتت تعامل النظام العراقي بثنائية صارخة، فمن جانب تسعى عدة دول في مجلس الامن، انطلاقاً من مصالحها، وتنافسها مع الدول الاخرى، الى تأكيد «شرعية» النظام الديكتاتوري، من خلال الزيارات المتبادلة، وعقد الصفقات الاقتصادية معه. ومن جانب اخر هناك دول اخرى تصر على مواصلة سياسة العقوبات الدولية على العراق. وتنعكس هذه التباينات في المواقف الدولية على شكل ضغوط سياسية، ومالية على بعض اطراف المعارضة العراقية بهدف حملها على تمييع مواقفها الوطنية، ودفعها للاصطفاف مع هذه الجهة، أو تلك . انطلاقاً من ذلك ، لابد من ترصين وحدة المشروع الوطني الديمقراطي على قاعدة من المواقف، والشعارات الملموسة التي تشكل في مجملها عملية برنامجية متكاملة تنقذ الوطن من الديكتاتورية والهيمنة الدولية . وبهذا الاتجاه ارى ضرورة الالتفات الى:

أولاً: تمايز ووحدة المشروع الوطني ـ الديمقراطي

من الطبيعي ان الكثير من قوى المعارضة لها خلفياتها الفكرية وبرامجها السياسية. وبقدر تشابك العلاقات الوطنية والدولية، لا بد ان يشكل الثابت الوطني، احد المرتكزات الرئيسية، التي لا يمكن التفريط بها. بمعنى العمل بروحيه، وطنية تستهدف موازنة المصالح الوطنية لبلادنا، والمصالح الدولية والاقليمية. ويرتكن مبدأ تمايز المشروع الوطني، واستقلاله على مستويين: الاول، يستند على التفريق بين مستقبل العراق وحريته، واستقلاله، وبين اسقاط الديكتاتورية، التي تعمل جاهدة على المساواة بين نظامها السياسي وبين المصالح الوطنية لبلادنا. اما المستوى الثاني فيتحدد على اساس فك الارتباط ، بين مشروعنا الوطني، والمشاريع الدولية، من خلال تدقيق الموقف من العقوبات الدولية، التي اصبحت ادوات اساسية في صراع الهيمنة على العراق. وانطلاقاً من هذه الرؤية ادعو الى:

ـ الغاء شامل للحصار الاقتصادي

فقد اصبحت العقوبات الاقتصادية اداة دولية لتحقيق هدفين أولهما تفكيك المجتمع العراقي، والذي تجلى في انقسامه الى اقلية مالكة للثروات الوطنية، واخرى هامشية تتلقى معونات دولية، الامر الذي ادى الى عودة المجتمع العراقي الى صيغ من التضامن، والتكافل العشائري ـــ وثانيهما ضياع فرص التنمية الاقتصادية الوطنية المستقلة، بسبب بيع الثروات الوطنية، وقبول الديكتاتورية بالشروط الكولونيالية التي تفرضها الشركات الاحتكارية. إن المطالبة بازالة الحصار الاقتصادي، وعدم الالتفاف حوله بقرارات تنفيسية، تتلازم مع التاكيد على عدم اهلية الديكتاتورية، وشرعيتها في التوقيع على الاتفاقيات الاقتصادية، واعتبارها، اتفاقيات خاضعة للتفاوض مع البديل الوطني القادم.

ـ التعويضات المتبادلة:

ان بلادنا اصبحت معرضة لاستنزاف ثروتها الوطنية بسبب تعدد مصادر التعويضات المفترض تسديدها، الامر الذي يطرح تساؤلات من قبيل: هل يتحمل الشعب العراقي نتائج السياسة الاجرامية التي نهجتها الديكتاتورية؟ ألم تتجاوز دول التحالف

على كامل البنية التحتية للاقتصاد العراقي، الذي كان ثمرة لجهود وكدح ملايين العراقيين؟ أليس من العدل والمنطق ان تجري المطالبة بمبدأ التعويضات المتبادلة، اي ان يجري تعويض شعبنا عن الاضرار التي لحقت بالمرافق الاقتصادية المدنية، جراء قصف الحلفاء لها بدون مبررات عسكرية.

ـ ضمانات دولية

إن التدمير الهائل الذي أصاب الجيش العراقي، جراء السياسة العدوانية للديكتاتورية، وتحويل قسم منه الى فرق انكشارية يدفعنا الى التساؤل، هل لا زالت الديكتاتورية، وبوجود هذا الحشد الهائل من القوات الامريكية قادرة على القيام بغزوات انتحارية؟ اليسَ بإمكان «الشرعية الدولية» الأخذ بآليات جديدة، تمنع الديكتاتورية من استعادة قوتها العسكرية؟ ان تطوير الموقف الوطني من «ازالة اسلحة الدمار الشامل، والرقابة العسكرية»، يتطلب رؤية جديدة، وصياغة وطنية تبعد شبح الوصاية الدولية على المؤسسة العسكرية العراقية، وتمنع تحويلها الى اداة معادية للمصالح الوطنية، وحامية للمصالح الدولية لهذا أرى ان يتضمن نشاطنا السياسي الترويج لمبدأ الغاء الرقابة العسكرية، واستبدالها بإعلان دولي ينص على عدم تسليح الجيش العراقي واعلان حياده، ورفض انضمامه الى تحالفات اقليمية، او دولية. فهذا الموقف يؤهل البديل الوطني القادم الى تحويل المؤسسة العسكرية الى مؤسسة وطنية تدافع عن حرمة البلاد من التجاوزات الخارجية، وتحمي الشرعية الدستورية.

ـ لا ضم ولا إلحاق

اخيراً وبهدف اعادة الاستقرار الى المنطقة، وبناء علاقات اخوية تعتمد على حسن الجوار، وموازنة المصالح بين الدولتين العراقية والكويتية، لابد ان تتضمن وثائقنا دعوة الشقيقة الكويت الى التفاوض مع البديل الوطني القادم، حول الاراضي المقتطعة من العراق، واعادة ترسيم الحدود، والابتعاد عن سياسة الضم والالحاق.

إن المقترحات المشار اليها تساهم في تمتين النسيج الداخلي لوحدة المشروع الوطني الديمقراطي، وتعطينا مرونة الحركة بين اوساط اجتماعية عديدة من ابناء شعبنا، فضلاً عن انها تساهم في تعرية الديكتاتورية، ونظامها السياسي الذي يعتبر السبب الرئيسي في التفريط بسيادتنا الوطنية.

ثانياً: الديمقراطية وخيار الفدرالية

ان التركيز على استقلالية القرار العراقي وترصين وطنيته يتعرضان الى الاهتزاز مالم يرتبطا بالديمقراطية فالوطنية وحدها تصبح الوعاء الحاضن لتفريخ واستمرار انظمة الاستبداد والديكتاتورية، وتفسح المجال للتدخلات الاجنبية. لذلك بات ضرورياً التأكيد على ان الديمقراطية لم تعد شعاراً عائماً، بل هي مجموعة من الأسس، والآليات الدستورية والتي تشكل ضمانات مادية تعتمدها منظومة البلاد السياسية. ويتصدر تلك الضمانات العمل على إعادة بناء شكل الدولة بما يتناسب وموازنة المصالح القومية للشعب العراقي. وبالنظر الى السجالات الفكرية، والخلافات السياسية التي اثارتها الفدرالية، التي اختارها شعبنا الكردي، ولكونها قضية ذات علاقة بالديمقراطية السياسية، ارى عدم اعتبارها شرطاً مسبقاً في التحالفات الوطنية، بل يجري النظر اليها كقضية برنامجية للقوى الديمقراطية، وتحشيد الجماهير العربية والكردية حول عدالتها، والعمل على تحقيقها من خلال تصويت الشعب الكردي على خيارها.

ثالثاً: روافد اسقاط الديكتاتورية

يشكل اسقاط الديكتاتورية نقطة البدء في اعادة بناء اجهزة الدولة، وشكل الحكم الديمقراطي الذي ترتكز شرعيته على المؤسسات الدستورية . ولا يمكن تحقيق الاهدف المشار اليها مالم تشرع القوى الوطنية الديمقراطية بأخذ زمام المبادرة بيدها، والشروع في العمل على تكوين نواة لهيئة قيادية ميدانية مشتركة تتفاعل من خلال توجيهاتها المناوشات اليومية العسكرية ضد الديكتاتورية، مترافقة، مع تطوير التذمر الشعبي، تمهيداً لخلق مزاج ثوري يحفز القوى العسكرية الرافضة للديكتاتورية لتكثيف تعاونها مع قوى المعارضة العراقية.

إن هذه الفعاليات لا بد لها ان تتزامن مع تطوير مطالبات جدية الى مجلس الأمن لحمله على ممارسة ضغوط دولية لاجبار الديكتاتورية على تطبيق قرار ٦٨٨ ، وارغامها على الخضوع الى التصويت الوطني على شرعية بقائها.

إن دعوة مجلس الأمن للتعاون مع المعارضة العراقية كطرف وطني اساسي في الصراع المحلي مع الديكتاتورية يمهد الطريق امام افشال المحاولات الدولية ــ خاصة

الامريكية منها ــ لوضع العراق تحت الوصاية الدولية ، بهدف الاستئثار بنتائج التغيير المرتقب في بلادنا.

اخيراً ارى ان قوى التيار الديمقراطي التي تكافح في سبيل تخليص شعبنا من الديكتاتورية، وفك بلادنا من الوصاية الدولية، مدعوة الى النضال من أجل وحدة المشروع الوطني الديمقراطي، وعدم تجزئته، ارتباطاً بالموضوعة القائلة ان لا وطنية بدون ديمقراطية. فالديمقراطية هي الشكل السياسي الملازم للتعبير عن الوطنية الحقيقية.

لطفي حاتم
١٩٩٦/٦/٤



سلام عبود :

العودة إلى آل ازيرج ، قصص قصيرة ، طباعة مركز الحرف العربي ، السويد

د . عدنان عباس :

البند كشكل من أشكال الشعر في العراق خلال القرن السابع عشر ، صدر بالانكليزية عن جامعة ادم ميسكيفج ، بوزنان ، بولندا .

عزيز سباهي :

أصول الصابئة (المندائيين) ومعتقداتهم الدينية ، دار المدى ، دمشق .

عصام الخفاجي :

الحرب كحاملة لصعود وتلاشي مجتمع خاضع لسيطرة الدولة : حالة العراق في ظل حزب النظام ، كراس بالانكليزية ، صدر عن مؤسسة امستردام للدراسات العالمية ، هولندا .

التنظيم المشاعي للمجتمع

خطط مطروحة على الشيوعيين

هادي العلوي

تنبني في جملتها على الالتزام الشيوعي، أي الموقف الشيوعي من الشعب كمنحى التزام اجتماعي طبقي لا كمنحى التزام ايدولوجي. وترتهن من ثم بوصفة الشيوعية المحلية من جهة انها انتماء طبقي متقرر في جذر البيئة ومجرى التاريخ قبل أن تمتد الشيوعية على المستوى الأوسع، العالمي، لتصبح موقف أممي مشترك حيث تتداخل النسخة المترجمة للشيوعية مع نسختها الأصل ـــ المحلية. أما الأصول التي تستند إليها الخطط فترجع إلى مذاهب الحكماء الشرقيين الذين نشأوا من قلب الحضارات المثقفة وتولوا عكس وتنظير الصراع الشرقي المديد ما بين خطوط المشاعية والملكية الفردية بتمثيلاتها المتنوعة. والأكثر وضوحاً وعمقاً من بين هؤلاء هم حكماء الصين والإسلام. وحكماء الصين هم المنتمون إلى المدارس الثلاث الكبرى: التاوية والموهية والكونفوشية الجديدة. أما حكماء الإسلام فهم المنتمون إلى سلك التصوف الاجتماعي. وتتفق هذه الأطراف كلها على مبدأ «المجتمع العظيم» الذي تكون فيه الدولة ومؤسساتها في خدمة الشعب وليس العكس. والشعب عند حكماء الصين هو الرِن وعند حكماء الإسلام هو الخَلْق. وكلمة شعب مستحدثة بهذا المعنى. ولم يكن لحكمائنا هؤلاء معرفة بالطريقة التي يتم بها إنشاء المجتمع العظيم، ولذلك بقيت مذاهبهم في قيد النظريات. وهم أيضاً لم تكن لديهم القدرة على إدارة معارك سياسية وعسكرية توصلهم إلى السلطة فاكتفوا بان دعوا إلى الانتظام في سلك المعارضة والمقاطعة

للدولة القائمة. لكنهم اتجهوا في نفس الوقت إلى التعويض عن غياب الدولة الشعبية بتداخلات تهدف إلى تخفيف معاناة الناس. وقد تمثل ذلك عند المسلمين بإنشاء رباطات الصوفية التي كانت مأوى للغرباء وتقدم ما تقدر عليه من المساعدة للجياع في مطارحها. وتطورت هذه إلى جماعات الأخيّة، التي انتشرت في الأناضول وكردستان، وهي تنظيمات ذات تكوين مشاعي كان الغرباء والفقراء المحليون يجدون فيها ما يكفيهم من الضرورات. والصوفيون في مظانهم يوزعون ما يحصلون عليه فلا يستأثر به واحد دون الآخر. وشعارهم في ذلك عدم جواز التملك للقطب الصوفي وجوازه لعامة الناس من غير الأغنياء. والتملّك المسموح به للعامة هو ما يسد كفاية العائلة من مطالب العيش ويؤمن لها السعادة. والزهد فرض على الصوفي دون العامي. وهذه نقطة مشتركة مع حكماء الصين. ويلاحظ أن حكماء الصين استطاعوا التأثير على السياسة الحاكمة فكانت تتخذ إجراءات رسمية، لاسيما في بدايات حكم الأسرات، لتوزيع القيعان على الفلاحين. وسعى الحكماء من جانبهم إلى تفعيل مشروع المربعات التسعة المشاعي الذي طبقته أسرة (تْجوو) في أوائل الألف الأول قبل الميلاد. لكنهم لم يوفقوا في هذا المسعى. أما الفكر المشاعي الإسلامي فأثمر من خلال الصراع الاجتماعي والسياسي الحاد في العصور الإسلامية كيانات شبه مشاعية قامت في أنحاء متفرقة من ديار الإسلام كالكيانات الخارجية في المغرب وعمان والمعشر القرمطي في سواد العراق والدولة القرمطية شرقي العربيا. ولم يؤثر في الدولة إلا من خلال التجربة الاستثنائية لعمر بن عبد العزيز. فالدولة الإسلامية كانت أعتى وأوحش من نظيرتها الصينية.

إن القاعية الكبرى الحاضنة لهكذا تنظيم هي سلطة إشتراكية أو شيوعية. وهذه السلطة هي التي كان يتوجب على حكمائنا إقامتها لانفاذ نظرياتهم لكن آفاقهم الفكرية والعضلية قصرت عنها. وبهذا المعنى يكتب لي الصديق (لي بان نون) أن الشعب الصيني ظل يثور طيلة ألفين سنة فلا تثمر ثورته سلطة شعبية حتى جاء الحزب الشيوعي الصيني فأثمرت. ويعني هذا أن المشاعية الشرقية كانت في حاجة إلى المشاعية الماركسية لكي تتحقق اطروحاتها في الحياة. ومن هنا كان التمايز الذي أفرد الشيوعية الصينية عن غيرها. فهي، مع الاعتذار لكتّاب «الثقافة الجديدة» الذين مجّدوا «إصلاحات» كلب الأمريكان دنغ شياو بنغ، قد حققت معجزة في تاريخ الصين بإقامتها مجتمع كومونة على بساط القارة. ويثبت ذلك بدوره أن الحكمة الشرقية لا تكفي وحدها

والماركسية لا تكفي وحدها فلابد من الشفع بينهما لإنشاء شيوعية فاعلة. ألا ترون كيف تعجز الماركسية في أوروبا وتتراجع وتعلن إفلاسها لأنها لا تجد هناك خلفية اجتماعية تتحقق عليها؟ ونحن في نفس الوقت وبنفس المقدار نلمس العجز القاتل للقوى التي تسعى إلى التغيير بالاستناد إلى اصولها التاريخية وحدها كالقوى السلفية، مع افتراض حسن النوايا وهو متوفر لدى القلة معدوم لدى الكثرة، وسوف يستحيل عليها تقديم برنامج يحقق الراحة للخلق ما لم تنشق على منظومتها الفقهية لتدامج بين تراثها المشاعي والاقتصاد الماركسي. وهي لن تقوى على ذلك أبداً مادامت رهينة مسلماتها التجارية الموروثة من قريش وبني أمية ومادامت تجعل احترام الملكية الفردية فريضة تضاف إلى الفرائض الخمس.

التنظيم المشاعي للمجتمع يعني البدء بالشيوعية من القاعدة وايصالها إلى القمة بدل الوضع المعكوس الذي طبقت به الشيوعية في الاتحاد السوفيتي بعد البلاشفة، أي من القمة لفرضها على القاعدة. وهو ممكن لأن جماهيرنا، إن في العراق أم في سائر البلدان العربية أم في عامة بلدان آسيا، هي جماهير مشاعية في الأصل، خلافاً لجماهير أوروبا المتماهية بالتجارة والتملك الفردي الحر منذ عصر الاغريق، والتي لم تعرف المشاعية إلا في العصر الحجري. وقد نبتت شخصية المجتمع عندنا في الصراع بين المشاعية والجماعية من جهة وبين النزوع الاقطاعي والتجارة من جهة أخرى. ومع أن المعسكر الآخر فرض ابهاماته على الوعي فإن الوعي المشاعي بقي هو الغالب لكون الاغلبية من الناس هم الفقراء. ويفسر ذلك سر الجماهيرية الواسعة التي يتمتع بها الحزب الشيوعي في العراق والمكانة التي يحظى بها الشيوعيين في سائر البلدان العربية التي منعتها ظروفها الخاصة جداً من احتضان حركة شيوعية بحجم الحركة الشيوعية في العراق. إن الفرد العراقي مستعد لقبول فكرة التنظيم المشاعي بتأثير هذا الوضع التاريخي. وبالطبع فإن قبوله يشتد مع التوعية، التي يجب أن تكشف له عن حقائق يعيشها وقد لا يحس بها وعن تاريخ مستقر يرجع إليه ولو أنه قد لا يعرفه إلا مشوهاً أو مبتوراً.

مخطط التنظيم المشاعي للمجتمع أقدمه للحزب الشيوعي العراقي وسأطالب به بعد سقوط نظام صدام حسين حيث ستنفتح الساحة للحضور الشيوعي الفاعل كما كان في السابق. وبالنظر للوضع الراهن لتطور المجتمع العراقي، والفرد العراقي تبعاً لذلك، فإن المبادرة في هذا المقام لن تأتي من الأفراد بل من الدولة. ويقتضي ذلك إيجاد تشكيل

حكومي يتولى تنفيذ المخطط. والصيغة المناسبة لهذه الغاية هي وزارة يتم استحداثها باسم «وزارة التنظيم المشاعي للمجتمع». ولن يكون هذا التشكيل بدعة مستغربة لأن عندنا وزارة للشئون الاجتماعية. ونظراً لدقة العمل في هذا المجال وصعوبة الالتزام به ينبغي أن تسلم الوزارة إلى شيوعيين من طراز مكسيم غوركي أخذوا الشيوعية من الشارع قبل أن يأخذوها من الكتب. ولن يؤتمن عليها المثقفون ولا الساسة المحترفون فهي اختصاص من همهم ايجاد الراحة للخلق لا لأنفسهم والذين يبيتون في همّ شاغل مع الناس لا ملأً بطونهم من اللحم والخمر.

تقوم الوزارة بتشكيل «لجان مشاعية» على مستويات مختلفة من الحارة والقرية إلى المدينة فيكون لكل حي ولكل قرية لجنتها المشاعية. وتتشكل هذه اللجان في استقلال عن اللجان والهيئات الأخرى وتتداخل عضويتها أو لا تتداخل، فوجود اللجنة المشاعية لا يلغي اللجنة الحزبية أو الهيئة البلدية بالنظر لاختلاف وظائف هذه الهيئات. كما أنها لا تتعارض مع المنظمات الشعبية كالنقابات لنفس السبب.

وظائف اللجنة المشاعية هي:

١ــ إنشاء أسواق شعبية توفر مواد المعيشة والاستهلاك العمومي بأسعار تتناسب مع القدرة الشرائية للفلاحين والعمال وعامة الكادحين.

٢ــ انشاء مطاعم شعبية تقدم الطعام للكادحين باسعار تناسبهم. وتدرس الوزارة الامكانات المتوفرة لتقديم الطعام مجاناً.

٣ــ انشاء مستشفيات تتمتع بمواصفات المستشفيات الاهلية، من حيث العلاج والعناية والنظافة، يعالج بها الكادحين مجاناً.

٤ــ المساهمة مع الهيئات الأخرى من رسمية وشعبية في توفير السكن اللائق للكادحين على أساس: مسكن واحد لكل عائلة لايقاف السكن المشترك لعدة عوائل في المنزل الواحد.

٥ــ العمل على حل أزمة الزواج وتوفير فرصه للشباب بحيث لا تبقى بنت بلا زوج وتختفي أو تقل «حالات العزوبة والتشرد في أوساط الشبان. ويستفاد في هذه المهمة من تجربة البابليين التي تحدثتُ عنها في مناسبات سابقة دون استنساخها نظراً لاختلاف النظم الاجتماعية. ويُستند في هذه المهمة إلى خطط يضعها الخبراء من المختصين بالبحوث الاجتماعية والنفسية بالتعاون مع العقلاء وأهل التجربة في البلاد.

إن تزويج البنت عند الشرقيين هو كاطعام الجائع في ضرورته ومشروعيته. وقد لجأ الغربيون إلى الاباحية في توفير هذه الحاجة للجنسين ونحن نريد حلها بطريقة لا تحول المرأة إلى سلعة، أو تجعلها بهيمة جنسية تتنقل بين الذكور وكأن الحياة ليس فيها إلا الجنس.

٦ــ المساهمة مع الهيئات الأخرى في حفظ الأمن الشعبي ومكافحة الجريمة والحؤول دون ظهور نمط الجريمة المنظمة الشائع في الغرب.

٧ــ التدخل في المنازعات العائلية أو ما بين الأهالي للمساهمة في حلها وتعزيز العلاقات السلمية داخل العائلة وداخل المعشر من غير أن يرتبط ذلك بتصور انتهاء الصراع بين الناس خلافاً للوضع الطبيعي للعلاقات الاجتماعية.

٨ــ تنظيم أهل الحي والقرية في أعمال النظافة للخلاص من القذارة المزمنة في شوارعنا وأسواقنا ووضع قواعد للنظافة العامة يلتزم بها الأهالي.

ضمانات نجاح المخطط وضمانات استمراره:

يرتهن نجاح المخطط كما قلنا بالالتزام الشيوعي ولذلك يقتصر العمل به على مجتمع يحكمه الشيوعيون. وقد حاول المسيح وحواريوه إقامة هذا الوضع داخل الامبراطورية الرومانية ولم يفلح أو يفلح أصحابه لأن الدولة القائمة على وضع مغاير لا تقبله. وهكذا كان مصير النظام القرمطي في سواد الكوفة إذ لم يتمكن حمدان بن الأشعث من تأسيس دولة على مقربة من مركز السلطة العباسية فلجأ إلى تنظيم دار الهجرة الذي تعرض لضربة مبكرة من السلطة المركزية قضت عليه كما قضى الرومان على مجتمع المسيح. ينبغي أن يكون مخطط التنظيم المشاعي للمجتمع ضمن سلطة شيوعية. أما ضرورته في ظل هكذا سلطة فتتأكد في فشل التجارب الشيوعية الحديثة عدا تجربة الصين، لأن الشيوعية فيها بدأت من القمة وليس من القاعدة وصارت مهمة للقيادة لا للجماهير. والسلطة بطبيعتها التسلطية والبيروقراطية لا تتحمل بناء شيوعي قاعدي.

الضمان الأول لنجاح هذا المخطط هو إذن في وجود سلطة شيوعية. وهو على أي حال لا يتحقق تلقائياً لأن السلطة الشيوعية قد لا تتقبله كما ذكرنا، وبالتالي فلابد من فرضه عليها، ويكون ذلك بادارة صراع داخلي يخوضه المشاعيون مع السلطة

الشيوعية. ومتطلبات هذا الصراع والنجاح فيه أبسط منها في الصراع الطبقي لأنه يدور في حلقة ضيقة داخل معسكر واحد.

أما ضمان استمراره فيتوقف على جملة أمور:

١ـ قوة المشاعيين وتماسكهم وراء مشروعهم بحيث يشكلون دائماً مركز ضغط على السلطة بتشعباتها الشتى لادامة المشروع.

٢ـ عدم التساهل مع العناصر الفاسدة التي تندس في وظائف اللجان المشاعية لاستغلالها لمصالح فئوية أو شخصية وضرب هذه العناصر بحزم عن طريق السلطة التي تتمتع بها الهيئة المشاعية الأم متمثلة في الوزارة. وهذا هو السبب في اختياري لهذه الهيئة صفة الوزارة وليس التنظيم الشعبي.

٣ـ تمكين الكادحين من الدفاع عن مكاسبهم المشاعية وعدم السماح بجعلهم مجرد مستهلكين ينعمون بالمكاسب مادام الوضع مواتي لهم فإذا حصل تغير انسحبوا إلى بيوتهم. وليس لدي فكرة جاهزة عن الكيفية التي سيتم بها للكادحين ايجاد آلية دفاع ضد أي اختراق لمشروعهم وسيكون ذلك من شأن الخبراء وذوي التجارب داخل الوسط المشاعي.

والمعوّل هو على وجود طليعة متثقفة بالارث المشاعي الذي يجب على الوزارة توفير مصادره وإثارة نشاط ثقافي يدور حوله لكي يتشبع به الوعي العام من خلال السعي للمدامجة بينه وبين الاديولوجيا الماركسية بعيداً عن رطانة الأكاديميين وتخريجاتهم المنطقية المفصولة عن مطالب الوجدان الشيوعي. وينصرف الطموح إلى ظهور فئة جديدة من المثقفين الكونيين تطور تجربة حكماء الصين والإسلام وتستعيدها بنفس الشروط الصارمة للمثقفية القديمة حيث يتم تجاوز ظاهرة المثقفين الصفاعنة من أفندية البرجوازية الصغيرة وهي الظاهرة الحاكمة الآن في الوسط الثقافي العربي.

هل يتعارض المخطط مع الديمقراطية والتعددية؟

الأفكار المطروحة هنا هي من نواتج الصراع الطبقي أي أنها أفكار منحازة. والفكر المنحاز لا يكون ديمقراطي. لكنه في نفس الوقت لا يكون قمعي بالضرورة. وينبغي التفريق بين العنف السلطوي وهو القمع في جوهره وبين الانحياز الطبقي. أنا حين

أدافع عن حقوق الكادحين والفقراء لا يلزمني بناء السجون ومعسكرات الاعتقال للأغنياء. هذه معادلة مختلفة ساهمت في تشويه التجارب الشيوعية الحديثة. بل اني لأنظر إلى تعليمات قائد عيّاري ببغداد في القرن الثالث الهجري عثمان الخياط فأتساءل عن السبب الذي جعل الشيوعيين الصينيين يحكمون على البرجوازية المؤممة بالفقر الأبدي والجوع. لقد دعا القائد العياري عثمان أصحابه أن لا يأخذوا جميع ما في المنزل الذي يسطون عليه وأن يكتفوا بنصف المحتويات تاركين لأهل الدار ما يعيشون به (هذا مع ظلمهم: هؤلاء الأغنياء أهل الدار وغشهم في المعاملة ومنعهم من الزكاة!) وقد فجعني تلميذ لي في الصين كان من أنبه تلاميذي حين أخبرني أنه لا يملك ما يكفيه لوجباته اليومية لأن والده صاحب المعمل الصغير قبل التحرير جرد من جميع ما يملك وأرغم على العمل براتب شهري يقصر عن حاجة عائلته. كان الشيوعيون الصينيون في حاجة إلى قلب عثمان الخياط حتى لا يكونوا ظالمين لغيرهم.

إن انتصارنا في الصراع الطبقي يضمن استيلاءنا على الخيرات المادية للمجتمع لإعادة توزيعها بالعدل، العدل الذي يعم الكادحين وغيرهم فلا يشبع واحد من جوع الآخر. وهذه هي التي نسميها ديمقراطية اجتماعية.

أما الديمقراطية السياسية فشأنها عسير. وهي تُطرح اليوم من جانب الغربيين وشراحهم العرب والشرقيين عموماً كمطلب مجرد يقفز من فوق حقائق الصراع الطبقي ويلغيها لحساب مساومة تداولية بين الطبقات. وترتبط هذه الدعوة عندنا بالهموم الضيقة للمثقفين مع أني أملك ما يسوّغ لي التشكيك في جدية الكثير منهم تجاه هذه المطالب لاسيما وأن فيهم من كان إلى سنوات قليلة يدعو إلى دكتاتورية الأمين العام او اي متسلط على مركز القرار في الحزب أو الدولة وإعطائه ليس فقط حق الهيمنة على الاقتصاد والسياسة بل وعلى الفكر أيضاً. وتتعدد الأمثلة والغرارات لو أردنا استقصاءها لتلقي ظلالاً من الشك على هذه التنقلات الخاطفة. على أني لا أجد ما يبرر لي اعتبار الديمقراطية السياسية من النوافل متذرعاً بعدم مصداقية دعاتها الجدد. لقد كانت التجارب الشيوعية الحديثة في حاجة إلى المدامجة بين نظام حكمها الشعبي وبين الديمقراطية كما تبلورت في الغرب الحديث. ولكل من الحكم الشعبي والحكم الديمقراطي أصول محققة في الفكر السياسي القديم والمعاصر في الشرق والغرب. وعندما استحدث الشيوعيون صيغة الديمقراطية الشعبية إنما كانوا يشيرون إلى هذا التمايز بين النظامين مع محاولة الدمج بينهما. وكانت هذه خطة لينين والبلاشفة التي

انقطعت بانقطاعهم عن قيادة دولتهم الجديدة. والحديث عن ذلك يطول ويخرج بنا عن حيثيات موضوعنا هذا. ولا أظن أحداً منا قادر الآن على تنظير مذهب شامل في الديمقراطية، وغاية ما جرى ويجري هنا هو ترجمة أو إعادة إنتاج ما يكتبه الغربيون. ولعل الجيل القادم من الماركسيين العرب أو الشرقيين أن يتصدى لحل هذه المبهمات بطريقة لم تصل إليها معرفتنا الراهنة. وبقدر ما يتعلق بمطالبنا الآنية فإن حل أزمة كازمة العراق يتوقف على ثورة مسلحة نامل أن يكون الشيوعيون في طليعتها. كما نامل أن ثورة كهذه لن تكون تكرار لما سبق بحيث تقيم نظام حكم كلياني قاهر. وما هو في قيد الممكن والواقعي أن تقوم التجربة الشيوعية القادمة على الديمقراطية والتعددية داخل معسكرها الخاص وأن لا تكون دموية في التعامل مع الخصوم الطبقيين بعد أن تنتزع منهم السلطة لأن ما يجوز للثورة في مرحلة نضالها لا يجوز لها في مرحلة السلطة.

وما يعني المشاعيين قبل هذا وذاك هو نفاذ مشروعهم في ظل سلطة تتقبله يكونون هم من أنصارها وداعميها ما استقامت لهم ويقفون بوجهها إذا فسدت أو تنمرت.

حول ملف ظاهرة العولمة

ملاحظات عن الثورة الاشتراكية وعن الدولة الوطنية والاندماج في النظام الرأسمالي العالمي

د. مجيد الراضي

اخذت «الثقافة الجديدة» تجتهد في تقديم مواد متنوعة حول قضايا عراقية وعربية وعالمية. وكانت فكرة الملف او المحور فكرة جيدة تجعل المجلة لا تعيش على البريد وحده، وانما تضع لكل عدد خطة ثم تشرع في تنفيذها. وقد حمل العدد ٢٦٩ ملفاً حول «ظاهرة العولمة» تناول بعض الملامح الاقتصادية في هذه الظاهرة المركبة والمتعددة الجوانب. وحبذا لو ان المجلة استكتبت المتخصصين في الجوانب الاخرى من هذه الظاهرة التي لا تقل، عندي، في اهميتها عن الجانب الاقتصادي، واعني بها الجوانب الثقافية والاجتماعية والمعلوماتية والقانونية التي جرت الاشارة اليها عرضاً في سياق الحديث العابر عن الثورة العلمية التقنية.

لقد اختلف عصرنا عن العصور السابقة اختلافاً جذرياً، فالثورة العلمية التقنية هي غير الثورة الصناعية. ولا شك في انها نقلت الرأسمالية العالمية في مراكزها الكبرى الى مرحلة جديدة، وساهمت بمقاييس واسعة في تغيير صورة المجتمع والتركيب الطبقي له وفي المقدمة منه تركيب الطبقة العاملة والعلاقة بين العمل الفكري واليدوي الى غير ذلك من تغييرات هامة جرت محاولات جدية لدراستها دون التخلي عن الخطاب «الايديولوجي السابق» مما قلل من قيمة هذه المحاولات والافادة منها في الواقع العملي.. ولكنّ عالمنا بقي عالماً غير متجانس، عالماً منقسماً الى مركز متقدم صغير الرقعة نسبياً، واطراف شاسعة متخلفة لم تصل حقبة الثورة الصناعية، اي لم تدخل عصر الرأسمالية من اوسع

ابوابه، وإن حلمت بحرق المراحل والدخول الى مابعد الرأسمالية او حتى عالم الاشتراكية. ومن هنا جاء الحديث عن العوالم الاول والثاني والثالث والرابع، غير ان هذا الحديث في معظمه لم يكن دقيقاً فقد اشتمل على تعميمات وتهويمات وخلط بين القيم والمفاهيم.

وقد تطرق بعض كتاب الملف الى قضية الاشتراكية وانهيارها (د.سعاد خيري مثلاً)، وأود لو سمحت لي هيئة التحرير بان أناقش بعض الافكار الواردة في مقالتها وفي المقالات الاخرى.

يتميز خطاب د.سعاد خيري دائماً بالتوهج والحماسة السياسية، وهذا يعني انها كثيراً ما تخطت الحواجز التي تضعها هي نفسها وتطلق عليها صفة العلمية. يعرف قراء «الثقافة الجديدة» ان الدكتورة سعاد كانت من المتحمسين القلائل في صفوف الشيوعيين العراقيين للبيروسترويكا، وقدمت العديد من المقالات حولها، ولم يكن احد يشك في انها كانت ترى فيها «المُخرجَ» من الازمة الخانقة للاشتراكية في الاتحاد السوفييتي اولاً، ودول اوربا الشرقية ثانياً. ولكنها اليوم تطلع علينا بفكرة حتمية انهيار التجربة الاشتراكية فتقول «على الرغم من مساهمة كل ما فعلته الامبريالية في انهيار المنظومة الاشتراكية ، فان انهيار التجربة الاولى لبناء الاشتراكية جاء نتيجة حتمية لاخطاء الحركة الشيوعية عموماً والاحزاب الشيوعية في بلدان المنظومة خصوصاً. . .» فما يعني مثل هذا الحديث اذا لم يعن تبريراً لكل ما جرى من تخريب للنظام الاشتراكي من الداخل والخارج. والغريب ان الدكتورة حتى في هذا الميدان تنقل الثقل في الاخطاء الى الحركة الشيوعية العالمية وكأنها هي التي فرضت سياستها على الاتحاد السوفيتي وبقية البلدان الاشتراكية ، وليس العكس.

إن التجربة التاريخية الملموسة تقول لنا إن من وضع سياسة الحركة واصر عليها وحارب بضراوة كل «المتمردين!» على أطرها هم القادة السوفييت. وهي لا تجهل ان الشروط الواحد والعشرين للانتماء للأممية الشيوعية هي شروط وضعها لينين، وليس غيره، وقد تطور الامر على يدي ستالين ليصبح عبودية مطلقة. وقد قال ذات يوم انه لو رفع خنصره لانهار نظام تيتو في يوغسلافيا. والخلافات بين الاتحاد السوفيتي والصين وكذلك بين الاتحاد السوفيتي والاحزاب الشيوعية الاوربية معروفة للجميع. ومعروف ، دون ريب، خبر المذكرة الشهيرة التي تقدم بها الزعيم الشيوعي الايطالي تولياتي عام ١٩٦٤ على ما اذكر. كما ان الشيوعيين الفرنسيين اصدروا في بداية

الثمانينات كتاباً شهيراً بعنوان «نحن والاتحاد السوفيتي»، بالاضافة الى برنامجهم «التحدي الديمقراطي» ورفضوا فيه الطريق الروسي للاشتراكية وقالوا ببناء الاشتراكية بالوان فرنسية. وقد وصل الامر بالدوائر السوفيتية، انذاك، حدّ تسريب اخبار الى الصحافة البرجوازية تشكك بموقف زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي جورج مارشيه من الاحتلال الغازي لفرنسا. وقد استخدم الاتحاد السوفيتي، مع شديد الأسف، أساليب غير اخلاقية بكل المعايير للطعن بالشيوعيين الذين خالفوه الرأي، وليس بعيداً عن الاذهان الموقف من الأمين العام للحزب الشيوعي الاسباني سانتياغو كاريللو الذي طرح خلافاته وآراءه منذ منتصف السبعينيات في كتابين شهيرين هما «حوارحول اسبانيا» و«الشيوعية الاوربية والدولة».

لقد شجبت الاحزاب الشيوعية الاوربية كلها تقريباً احتلال قوات حلف وارشو لتشيكو سلوفاكيا عام ١٩٦٨، غير ان الاتحاد السوفيتي كان دائماً ينجح في تلفيق «اغلبية» مصفقة تؤيده،، ومن الطريف ان المجموعة الغرباتشوفية قد جعلت في عام ١٩٨٩ ممثلي الاحزاب الشيوعية في مجلة «قضايا السلم والاشتراكية» يوقعون على وثيقة تدين هذا الاحتلال بعد مضي ما يزيد على عشرين عاماً من وقوعه. ويصعب اليوم النظر الى هذا العمل خارج اطار التمهيد لنقض الماضي بسيئاته وحسناته. ولا يفوتنا ان نذكر، هنا، ان معظم الاحزاب الشيوعية الاوربية قد أدانت الطريقة التآمرية- الانقلابية التي أزيح بها خروشوف عن قيادة الحزب والدولة، أما بقية الاحزاب الشيوعية في العالم فقد تلقت الحدث بذهول وتعاملت معه بارتباك.

وفي العالم الثالث لم تسلم الاحزاب الشيوعية من وصاية الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، إذ فرض عليها تكتيكات مغايرة لما كانت تراه وتريده وتدخل في شؤونها الداخلية، واجهض بذلك حركات ثورية كثيرة. ووضع القادة السوفيت ايديهم في ايدي قادة البلدان النامية ذات الانظمة الدكتاتورية الوحشية في قمعها لشعوب بلدانها، مما سبب احراجاً للحركات الوطنية الديمقراطية والثورية وأضر بمصداقيتها ومصداقية الاشتراكية باعتبارها نظاماً اقتصادياً- واجتماعياً وسياسياً اكثر تقدماً من الانظمة الاخرى ويستجيب بافضل الطرق لحاجات الانسانية وتطور الانسان الشامل. وهنا تطرح فكرة مفادها: ماذا نريد؟ هل نريد ان نبني نظاماً معيناً ثم نقيم الشعائر له ونعبده بغض النظر عما اذا كانت روافعه تستجيب لحاجات الانسان المادية والروحية المتطورة أبداً أم لا، أو أننا نريد ان نلبي هذه الحاجات بخلق افضل النظم القادرة على

اشباعها، اي ان ننظر الى هذه النظم في اطارها التاريخي وليس بوصفها كياناً متكاملاً مطلقاً مغلقاً على ذاته. وبعبارة اخرى، هل الاولوية للانسان ام النظام؟ وبما اننا نعرف ان كل نظام مهما كان سامياً فهو من صنع البشر خلقوه في لحظة تاريخية معينة وبالامكانات اوالوسائل المتوفرة لهم في تلك اللحظة لتهيئة افضل الظروف لتطورهم وخلق أحسن المناخات ملاءمة للعيش، توجب علينا ان نعيد النظر دائماً في الانظمة التي توصلنا اليها عبر ممارستنا الحياتية بما ينسجم والتطورات الجديدة في العالم المحيط بنا. واليوم أستطيع ان افهم بكل وضوح موقف كتّاب مشاهير من بينهم اندريه جيد وآرثر كوستلر وآخرون اطلعوا على التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي في العقد الثالث والرابع من هذا القرن واعلنوا انفصالهم عنها، وكانت بالنسبة لهم ذلك «الاله الذي فشل». أقول استطيع ان افهمهم، بل واعذرهم في موقفهم الى حد كبير، ولكن لا ارغب قطعاً في ان اضع نفسي في موضعهم.

في اواخر الخمسينيات واوائل الستينيات جرى تسابق مرعب لشق الحركات الشيوعية والثورية في العالم الثالث. وكنا ذات مرة في بغداد في بداية الستينيات نناقش مسألة التطابق بين السياسة الخارجية السوفيتية ومهمات الحركة الثورية في العالم الثالث: كنت من القائلين بضرورة الفصل بين السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي كدولة لها مصالحها، وهي محكومة –اولاً واخيراً– بالقانون الدولي الذي يحدد سلوك الدول ويمنعها من التدخل في الشؤون الداخلية لبعضها البعض، اما الحركات الثورية فهي حركات شعبية ينبغي ان تكون لها استراتيجية خاصة بها نابعة من مصالحها ومصالح شعوبها في النضال من اجل تقرير مصيرها بأنفسها. واذا بالشهيد المحامي عبد الرحيم شريف يقف الى جانبي في المناظرة قائلاً ان هذه المسألة على مايبدو مدار بحث وتساؤل ، وقد استشهد بالزعيم الشيوعي السوداني الشهيد عبد الخالق محجوب الذي كان يرأس وفد الحزب الشيوعي السوداني الى المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ، وكان قد عارض بشدة مثل ذلك التطابق وذكر ان اثره سيء في الحركة الثورية السودانية. وفي عام ١٩٦٤، وكنت مختفياً عن الانظار في بغداد من جرّاء ملاحقة النظام الدكتاتوري وعواقب ردة شباط ١٩٦٣ السوداء، واذا بي أسمع تعليقاً من راديو موسكو يحذر الشعب السوداني الثائر، آنذاك، على حكم الجنرال ابراهيم عبود العسكري الدكتاتوري من دسائس الامبريالية ومغبة الانخداع بها، مع ان كل الدلائل كانت تشير الى انتفاضة شعبية عارمة عُرفتْ ، فيما بعد ، بثورة اكتوبر ١٩٦٤،

وكانت تطالب برحيل الحكم العسكري الاستبدادي، وبالديمقراطية والحكم المدني البرلماني. وكان قبلها بقليل قد زار السودان بريجنيف وركب سيارة مكشوفة بمعية الجنرال عبود ماراً في شوارع الخرطوم ملوّحاً بيديه للعابرين او المتجمهرين. وبعد انتصار انتفاضة الجماهير الشعبية في السودان أجرت صحيفة «الجمهورية» القاهرية مقابلة صحفية مع الشهيد عبد الخالق محجوب حول موقف الحزب الشيوعي السوداني من قضايا كثيرة داخلية وخارجية من بينها الخلاف السوفيتي- الصيني وموقف القطبين من الحركة الشيوعية السودانية، فذكر الموقف السوفيتي المؤيد لحكم عبود، وموقف الصينيين الذين حاولوا شق الحزب بتبني مجموعة صغيرة من كوادره. ولا يفوتني هنا التنويه بموقف القيادة السوفيتية المؤيد لمجموعة معاوية -أحمد سليمان التي انشقت عن الحزب ودخلت وزارة النميري. ومع انها كانت مجموعة صغيرة ومعزولة الا ان السوفيت كانوا يتعاملون معها على قدم المساواة مع الحزب الشيوعي السوداني.

هذه عينة وليس كل شيء، فلمصلحة من تقلب الحقائق؟ ولمصلحة من يجري الحديث عن اخطاء الحركة الشيوعية العالمية دون تمييز، بل ولاول مرة دون ذكر «طليعتها» المزعومة ومواقف الاملاء التي فرضتها على الاخرين؟ واذا كانت د.سعاد خيري تتحدث عن الحركة الشيوعية بالصيغة القديمة، فانما تريد -من حيث لا تحتسب- اعادة انتاج الاخطاء ذاتها. فالحركة الشيوعية المنظمة بالطريقة الابوية هي احدى الكوارث التي لحقت بالحركة الاشتراكية والتقدمية والديمقراطية العالمية. واعتقد ان على الشيوعيين في العالم ان يتخلوا عن فكرة ايجاد حركة شيوعية عالمية ذات مركز واحد، فاساليب التضامن في النضال متعددة وهي لا تقع تحت حصر. ولنأخذ العبرة من حل الكومنتيرن «الأممية الشيوعية» عام ١٩٤٣ حيث جاء في الاسباب الموجبة لهذا الحل ان رقعة الحركة الشيوعية قد اتسعت كثيراً، وان البلدان التي تمارس فيها الاحزاب الشيوعية نشاطها ذات ظروف متنوعة، وان الاحزاب الشيوعية -وهذا هو الأهم- قد أصبحت على درجة من النضوج بحيث انها تستطيع قيادة النضال في بلدانها. وهذا لا يعني أبداً الدعوة الى القطيعة بين مكونات الحركة، أو تحريم تبادل الخبرة في النضال على قدم المساواة ومحاولة الافادة من اساليب الاخرين في تحقيق المهمات المطروحة والتنسيق معهم في مواجهة المخاطر العامة أو تدعيم الظواهر الايجابية المشتركة، ولكن ينبغي ان يبقى الحسم، اولاً واخيراً، بايدي الاطراف المعنية.

والآن انتقل الى قضية مركزية اخرى هي ان انهيار التجربة «جاء نتيجة حتمية لأخطاء الحركة الشيوعية. . .» إنني اختلف مع د.سعاد في الحكم الجبري، واختلف مع كل القائلين بالحتميات في العمليات السياسة -الاقتصادية- الاجتماعية فهي عمليات مركبة شديدة التعقيد تدخل فيها عوامل متشعبة وتؤثر فيها التطورات المفاجئة في مختلف ميادين الحياة والعلم. فبالأمس القريب قالوا بحتمية انتصار الاشتراكية ـــ وليدالحتمية التاريخية ـــ واليوم يقولون بحتمية انهيار الاشتراكية. اذا كانت الدكتورة تعتقد حقاً بانهيار التجربة الاشتراكية حتماً، فلماذا أيدت هذه التجربة وضحت بالكثير من اجلها وعانت آلام السجن والتعذيب والتشريد؟ أليس هذا نوعاً من العبثية او الصوفية الثورية في احسن الفروض؟ أو القول مع الماركسي برنشتاين الحركة كل شيء أما الهدف فلا شيء. وإذا كانت تنسب هذا الانهيار الى الاخطاء فان معنى هذا انها تغلّب العوامل الذاتية على العوامل الموضوعية، وهي في هذه الحال لا تختلف، في قليل او كثير، عمن غلبوا او يغلبون فكرة تآمر او خيانة «الزمرة الغرباشوفية» في انهيار التجربة. ولكن اذا اردنا ان نفيد من التجربة ـــ ولا بد لنا أن نفيد منها ـــ فعلينا ان نبحث القضية برؤوس باردة بعيداً عن التبرير او الشعور بالذنب الخ.

والفكرة التي أريد أن اطرحها في هذا المضمار هي ان انتصار الثورة الاشتراكية في بلد متخلف نسبياً هو روسيا، حكم عليها بالفشل بسبب الحصار السياسي والاقتصادي وحرب التدخل والمؤامرات المتواصلة لتخريب النظام الجديد من الداخل والخارج. لقد خاضت الثورة الجديدة نضالاً جباراً وأحدثت اختراقاً رائعاً في صفوف الرأسمالية ودافعت بشرف عن حقها في البقاء وحق الشعوب بتقرير مصيرها بأنفسها. ولكن التآمر الرأسمالي أدى الى حرف الثورة عن مسارها الصحيح، فسادت في قيادتها روح الريبة والتربص بالآخرين، وتفشى مرض الشك بحيث اصبحت القيادة بعد موت لينين بسنتين تقريباً ترى في كل انسان خائناً محتملاً. وسادت فئة من البيروقراطيين تربع على قمتها وتحكمّ بمصيرها ومصير شعوب الاتحاد السوفيتي رجل عُرف بمطامحه الواسعة وقسوته المريرة، نسبت له كل الانتصارات وبُرّيء من الانكسارات والاخطاء، واصبحت معارضته بأبسط الاشكال لا تعني سوى الموت. وبُنيَ نظام أوامري فاجع وغربت الجماهير عن السلطة، ولم تعد ترى سوى صورة القائد في اليقظة والمنام. واستغلت الرأسمالية هذا الوضع لتقرن في اذهان الكثيرين الاشتراكية بالنظام البربري.

وليس لنا اليوم أن نحصر النظام الاشتراكي بالصورة التي رسمها الغرب له بعد ان

دفعه اليها دفعاً، فان ما قدمه الاتحاد السوفيتي الفتي لاطرافه المتخلفة جداً شيء عظيم الأهمية بكل المعايير السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية. وفي ميدان العلاقات الدولية ادخل نمطاً جديداً من العلاقات المتكافئة القائمة على حق الشعوب في تقرير مصيرها وعلى الاحترام المتبادل والتعايش السلمي بين الدول ، وخلق — لأول مرة في التاريخ — دعامة نزيهة تستند عليها الشعوب في نضالها للتحرر الوطني وتقرير مصيرها بانفسها واقامة الانظمة السياسية الاقتصادية التي تريدها. يضاف الى ذلك، انه سعى باستمرار الى ايجاد نظام امن جماعي في مختلف مناطق واقاليم العالم، وساهم الى حد كبير في فضح الدسائس الاستعمارية والامبريالية والحد من استغلال الشعوب وثرواتها الطبيعية.

ولكن هذا كله لم يكن بمقدوره ان يحول الاتحاد السوفيتي الى نقطة جذب بعيون ابناء الشعوب الاوربية المتطورة، ناهيكم عن الشعب الامريكي، وبخاصة في ظروف فرضت فيها الرأسمالية العالمية — وهي تقطر وراءها الرجعية العالمية بكاملها، والفئات المالكة من الطبقات القديمة وذوي الفكر الضيق من الفئات الوسطى والبرجوازية الصغيرة — على الاشتراكية معركة حياة او موت. كان ذلك صراعاً غير متكافىء ابداً، ولكن بلد الاشتراكية الأول صمد وقتاً طويلاً واستطاع ان يكسر الطوق بعد الحرب العالمية الثانية وتحطيم الفاشية التي ساهم بدور بارز فيه وقدّم تضحيات هائلة لانقاذ نفسه والبشرية كلها من طاعون الفاشية. ولكن الشعوب التي انضمت اليه في اوربا الشرقية — نتيجة الانتصار الحربي وليس التطور السلمي — كانت ايضاً فقيرة ضعيفة التطور (اذا استثنينا المنطقة التشيكية). فبهذا لم تزد في ثقل الاشتراكية، بل ربما أضافت اعباء لها. وفي اعقاب الحرب العالمية الثانية شن الغرب حربه الباردة ولوّح بالابتزاز النووي، ودفع الاتحاد السوفيتي نحو سباق التسلح المدمر الذي التهم موارده الاساسية، وكان بأشد الحاجة اليها لتعمير ما خربته الحرب ولمواصلة عملية تطوره الاقتصادي للحاق بالغرب الرأسمالي، ولرفع مستوى معيشة شعوبه.

تقول د.سعاد «لو نجحت الاشتراكية الفعلية في تحقيق علاقات الانتاج الاشتراكية وفقاً لقوانينها العامة على نطاق قطر واحد أو مجموعة اقطار، واستطاعت ان تجذب بقوة المثل بقية بلدان العالم، ولم يكن ذلك مستحيلاً. . .» (التأكيد مني –م.ر) هذا الافتراض المخالف لمسار التاريخ — اذ فشلت التجربة الاشتراكية في تحقيق ذلك — انما هو من انماط التفكير القائم على الاماني، ويقول المثل العراقي «لوزرعوها وما خَضْرَت». وأنا

أزعم ان بناء الاشتراكية في بلد واحد أو مجموعة بلدان فقيرة كان احد الاخطاء الجدية، وقد يكون الاستثناء من هذه القاعدة هو بناء الاشتراكية في بلد واسع الرقعة غني جداً وعالي التطور تقنياً، اي بلد رائد في كل المقاييس — او مجموعة من البلدان الغنية والمتقدمة رأسمالياً. وبذلك تتخلص من مصير القلعة المحاصرة، بل يمكن لها أن تتحول الى إنموذج يقتدى به. فلا أحد يريد اشتراكية افقر في ظل مجتمع يسلب منهم حقوقهم السياسية ويحرمهم من المشاركة في الحياة العامة على الرغم من الادعاء بضدها، وهي الصورة التي قدمها الغرب عن الوضع في الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية الاخرى، وهي ليست بعيدة عن الواقع كثيراً.

كيف واجه الفكر الماركسي السوفيتي «التلفيقي» هذا الوضع؟

راح المفكرون السوفيت المعزولون عن الواقع يُغرقون انفسهم والآخرين في سيل من الادبيات التي تتحدث عن المعجزة الاشتراكية، واخذوا يقدمون المقولات — في محاولة للهروب الى الامام — عن صيرورة الاشتراكية العامل الحاسم في التطور العالمي، بل ادعوا ان ميزان القوى في العالم يميل بحسم لصالح الاشتراكية، وان دول العالم الثالث يمكنها الانتقال الى الاشتراكية حتى وان افتقرت الى العوامل الذاتية ومن بينها الاحزاب الشيوعية القائدة لعملية التغيير. وهكذا أصبحت المقولات الايديولوجية «الكاذبة» بديلاً من الواقع السائر نحو التردي على النطاق الدولي. فقد بدأت الرجعية العالمية تشن هجومها المضاد في مناطق مختلفة من العالم، فانتصرت في ٨شباط ١٩٦٣ ثورة الردة الدموية في العراق، واعقبتها في عام ١٩٦٥ تصفية وحشية لنظام حكم سوكارنو في اندونيسيا، ثم حلّت هزيمة حزيران عام ١٩٦٧، فقصمت ظهر عبد الناصر البطل الثاني من ابطال حركة عدم الانحياز بعد سوكارنو.

وهكذا توالت الانكسارات، ولكن الايديولوجية الملفقة واصلت مزاعمها بالانتصارات وبقرب عهد تصفية الرأسمالية كتشكيلة اقتصادية اجتماعية. وتجلى عجز هذا الفكر السوفيتي في مواجهة الواقع في تعبير القادة السوفيت الذين قالوا انهم تلقوا هزيمة الدول العربية في حزيران ١٩٦٧ كمايتلقون الكوارث الطبيعية، اي انهم لم يكونوا يتوقعونها على الاطلاق. الا يعني هذا انهم «ملوك مفتحة عيونهمُ نيام»...

معروف انه منذ أواخر الستينيات أصاب المجتمع السوفيتي الفتور ومن ثم الركود الاقتصادي، وتعمق هذا الوضع في السبعينيات والثمانينيات. وجاءت حركة البيرسترويكا لتجهز عليه بشكل منظم. وكان قادة هذه الحركة الرئيسون غرباشوف

–شيفرنادزه– ياكوفليف هم المهندسون الفعليون للتصفية، وان «مأثرتهم» الكبرى أنهم حولوا «الاشتراكية» و«الشيوعية» الى جريمة في عيون الكثير من الناس، بل وحتى في عيون بعض «الاشتراكيين» و« الشيوعيين». ومع الأسف يبقى حتى بعد انكشاف دورهم المخزي من يدافع عنهم بمختلف الاساليب. إن مزبلة التاريخ من الاتساع بحيث وجدت لهم ولاضرابهم مكاناً لائقاً بهم بين القمامة النتنة.

والآن لكي تنجح التجربة الاشتراكية ينبغي ان تُقتحم قلاع الرأسمالية المتطورة، كما أشار ماركس الى ذلك، وليس ان تنبثق في أضعف حلقاتها كما حدث حتى الآن. وهذا الانتصار سوف يوفر لها امكانات مادية ومعنوية جبارة بحيث ان الاجزاء الاخرى من العالم الرأسمالي لا تستطيع تهديدها أو فرض الحصار عليها واجبارها على التراجع او الركوع. وفي الوقت نفسه ستكون المؤسسات الدستورية والقانونية والديمقراطية السياسية على درجة عالية من التطور بحيث لا يبقى أمام العهد الجديد سوى تعميق المحتوى الاجتماعي للديمقراطية واعطاء حقوق الانسان محتواها الحقيقي وليس الشكلي فقط. كما تصبح هذه الثورة قادرة على مد يد العون بمختلف اشكاله الى المجتمعات الاخرى التي تسعى الى الانتقال الى الاشتراكية.

إن انتصار الثورة الاشتراكية في الاطراف او البلدان المتخلفة بعد الآن هو جريمة بحق الاشتراكية كقضية انسانية. ومن هنا قلت في ردي على اسئلة للثقافة الجديدة قبل سنوات «ان الاشتراكية في العراق حلم معتوه». واذكر ان د.سعاد خيري عاتبتني على ذلك في براغ. لقد دحض الواقع نظرية «البؤر الثورية» في الريف، وها هو يدحض نظرية نشوء الاشتراكية وتطورها في اطراف العالم الرأسمالي، وعلينا أن نقبل حكم التاريخ وان نتلاءم معه.

وفي هذا الصدد يبرز سؤال لماذا لم يحدث ارتداد كامل على الرأسمالية كتشكيلة اقتصادية–اجتماعية بعد نشوئها؟ وعندي ان هذا الامر واضح جداً فقد قامت الثورة البرجوازية في بلدان حدثت فيها الثورة الصناعية التي بنت القاعدة المادية للتحول الى الرأسمالية كنظام سياسي وقانوني، ورافقتها او سبقتها حركة فكرية تنويرية شاملة. فهي اذن نشأت في رحم المجتمع الاقطاعي وحطمت جدرانه الواحد بعد الآخر. وعندما حدثت محاولات الارتداد مثل عودة الملكية في فرنسا بعد الدكتاتورية العسكرية النابليونية، كانت أطرها تختلف عن الأطر القديمة، وشق المجتمع الجديد طريقه رغم التعرجات وجهود شدّه الى الخلف. واكبر الظن ان هذا سوف يحدث بالنسبة للاشتراكية

كتشكيلة اقتصادية– اجتماعية كاملة وليس طوراً أول في الانتقال الى الشيوعية، وهذه فكرة جديدة بالمرة تحتاج الى دراسة عميقة ليس بمقدورنا الاضطلاع بها. ان توسيع مكتسبات الطبقات العاملة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية هو في رأيي الخطوة الاولى في سبيل الانتقال الى المجتمع الجديد. ولذلك فان النظرة القديمة الى الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ينبغي ان تتغير من اعتبارها رشوة لهذه الطبقات تلجأ اليها الطبقات الحاكمة بغية الحفاظ على نظامها الرأسمالي الاستغلالي الى اعتبارها تمارين ضرورية في حصول هذه الطبقات على أهلية للمشاركة في السلطة السياسية بعد تحسين نصيبها من الثروة الاجتماعية . أي ينبغي لنا أن نلغي التعارض القديم بين الاصلاح والثورة، فكل اصلاح عميق هو مقدمة ضرورية للثورة، وان كل ثورة لا تسبقها اصلاحات اقتصادية واجتماعية وسياسية عميقة تكون عادة طفرة نحو المجهول في احسن الفروض، وتتحول بمرور الزمن الى هرة تأكل ابناءها في صراعهم العقيم من اجل السلطة.

أرادت د.سعاد أن تثبت بجرة قلم طرفاً واحداً من مقولة للينين كانت ذات تأثير بالغ في مسيرة التاريخ العالمي الحديث الذي افتتحته ثورة اكتوبر، وهي القول بان الامبريالية عشية الثورة الاشتراكية وانها اعلى مراحل الرأسمالية.

أثبتت الكاتبة الطرف الأول من المقولة ونفت الطرف الثاني وجعلت تحققه مرتبطاً بشيء لم يتحقق، اذ كتبت «برهن بناء الاشتراكية في اول تجاربه، ان الامبريالية حقاً عشية الثورة الاشتراكية. وكان يمكن ان تكون اعلى مراحل الرأسمالية لو...». أول ما يلاحظ على هذه الصياغة استعمال الاداة «لو»، وهي كما يقول النحويون حرف امتناع لامتناع، وهذه الصيغة لا تصلح في معالجة واقع صلب لا يقبل الايهام او التوهم، فدخول الرأسمالية مرحلة جديدة في تطورها يلغي هذه المقولة ويدرجها ضمن محاولات فهم الواقع في فترة معينة واعطاء هذا الفهم صيغة الاطلاق دون الاحتراز لما يأتي به المستقبل. أما القول بان الامبريالية عشية الثورة الاشتراكية بدليل النجاح الأولي للثورة الاشتراكية، فهذه مسألة تحتاج الى الكثير من التدقيق. فهل كان النظام الذي أعقب ثورة اكتوبر نظاماً اشتراكياً، أو أنه استطاع في مسيرة العملية الثورية ان يتحول الى نظام اشتراكي حقيقي؟ اننا نقول في محاولة للاجابة عن هذا السؤال الكبير انه كان لثورة اكتوبر شرف تحطيم احتكار السلطة الرأسمالية. وقد بذلت الجماهير العاملة جهوداً جبارة لكي تتحول الثورة الى نظام اشتراكي ولكنها عجزت عن ذلك بسبب عدم توفر

الشروط المادية، أو نقصها، لهذا التحول أولاً، وبسبب المقاومة الشرسة التي أبدتها الرأسمالية لحقبة طويلة. وهذا يعني أول ما يعني، ان التربة لم تكن ممهدة لاستنبات النظام الاشتراكي، ولكنه لا ينفي ان تكون الاشتراكية بوصفها النظام الاكثر عدالة من الناحية الاجتماعية هي البديل مستقبلاً عن النظام الرأسمالي، وان التعميم الذي يلجأ اليه اليوم منظرو الرأسمالية بقولهم انها نهاية التاريخ الانساني ليس سوى ايهام للنفس وخداع للاخرين ولده ويولده الانتصار السهل الذي حققته الرأسمالية العالمية وساهمت في الاعداد له قوى الردة الداخلية بقيادة غرباتشوف.

***

ولو انتقلنا الى المحور الثاني من العولمة الاقتصادية، وهو الصراع بين الدول الوطنية ورأس المال العالمي لوجدنا ان البحوث الثلاثة الموضوعة وهي لسعاد خيري وعزيز سباهي وصالح ياسر حسن ركزت على هذه الموضوعة من زاويتين مختلفتين: الأولى قالت بتجاوز سيادة الدولة الوطنية ودافعت عن هذه السيادة -بهذا القدر أوذاك- وهذا ما قامت به د. سعاد والاستاذ سباهي الى حد ما، والثانية، خالفتهما الرأي على نحو واضح، إذ اكد د.صالح في اكثر من موضع «ان العولمة الرأسمالية بالضد مما هو شائع من التاكيد على تقليص دور الدولة / الأمة لصالح عولمة رأس المال، هي عبارة عن تلك العملية التي تحدث على «مسمع ومرأى» الدولة الرأسمالية و«بتفويض» منها «والعولمة» لم تضعف دور الدولة بل أعادت صياغته عبر عولمته واضفاء المزيد من «الحيوية» عليه. «والملاحظ ان الدولة الوطنية في العالم الثالث قد غابت عن بحث د.صالح، ودار بحثه في الاساس حول دور الدولة الرأسمالية المتطورة، وهذا شان البحوث المترجمة. وهو محق في ذلك - الى حد بعيد- إذ ان العولمة ما هي إلا محاولات رأس المال العالمي لتخطي الحدود والحواجز الوطنية وايجاد أفضل الاساليب والوسائل لحل الخلافات بين اطرافه وعناصره الرئيسة في سعيها لتوسيع اسواقها ولتحقيق أعلى الارباح . وفي العادة تقع الدول النامية بشكل عام ضحية لهذا التوجه، وان كان بعض عناصرها يحاول الاندماج في هذا التيار الرأسمالي العالمي على أمل الحصول على نصيب ولو ضئيل من الأرباح.

يبدو لي ان رأس المال العالمي لا يزال يرى أحسن رافعة له تتمثل في الدولة الرأسمالية القادرة على الاحتفاظ بجيوش جرارة مزودة بأحدث الأسلحة والتقنيات الحربية للدفاع عند الضرورة عن حقه في استغلال قوى العمل والثروات الطبيعية

والشعوب في العالم الثالث بشروطه الخاصة التي كثيراً ما تكون مجحفة ، سواء في بلده أم في البلدان الاخرى. فعندما هدد صدام حسين منابع النفط في الخليج باحتلاله الكويت استطاع رأس المال العالمي بقيادة رأس المال الامريكي حشد قوات عسكرية هائلة في المملكة العربية السعودية لا زالة هذا التهديد ولاعلان حقبة جديدة في العلاقات الدولية بعد زوال النظام الاشتراكي. كما ان عقود السلاح السخية لا تزال تشكل أحد مصادر الارباح للرأسماليين. كان البعض يتوهم ان زوال الكتلة الاشتراكية وحلف وارشوسوف يفضي بالنتيجة الى تلاشي حلف شمالي الاطلسي. غير ان التجربة تقول لنا ان الرأسمالية العالمية عززت حلفها العسكري، وهي تحاول بجد توسيعه ليشمل بلدان اوربا الشرقية، كما مدت عمله ليشمل مناطق اخرى غير واردة أصلاً في معاهدته، واشركت لأول مرة بعد الحرب العالمية الثانية الجيش الالماني في عملياته، وان جاء ذلك بشكل رمزي وفي حدود معينة.

طالب د. صالح في نهاية بحثه باستراتيجية عالمية «لجبهة العمل وحلفائها تأتي كرد فعل طبيعي على الجبهة الأممية لرأس المال». ولكنه رفض «الترويج للمنابر الاممية السابقة، فهذه الصيغ تجاوزها التاريخ لانها كانت متكئة على مركز «يفكر» بالنيابة عن الاخرين، ونتائج ذلك معروفة!»

ودافعت د.سعاد بحماسة عن الدول الوطنية والسيادة الوطنية، وحتى عن السيادة الوطنية الامريكية، في مواجهة «اللجنة الثلاثية» التي «ترمي الى تحويل الولايات المتحدة الى اقليم داخل حكومة عالمية» اذ ان معاهدة قانون البحار تُخضع بحار العالم ومحيطاته لاشراف الأمم المتحدة من خلال هيئة تسمى «السلطة الدولية لقاع البحار»، وتعتبر امريكا ذلك« جزءاً من خطة لاخضاع سيادة الولايات المتحدة للأمم المتحدة!» إن الدافع الواضح للمعارضة الامريكية –وان جاء مغلفاً بالدفاع عن الدستور الامريكي– هو انها تعتبر نفسها السيد الوحيد في العالم– كما هو حاصل فعلاً – ولا تريد التنازل، ولو ظاهرياً، عن هذه السيادة المطلقة على العالم. ولكن الشيء الأكيد هو أن أعالي البحار والمحيطات لا يمكن أن تقع تحت سيادة أية دولة بمفردها. والدستور الامريكي ليس شيئاً مقدساً لا يمكن المساس به، فهو كأية وثيقة صدرت عن الهيئات التشريعية العليا يمكن تعديله بالأساليب الدستورية المتبعة في امريكا ذاتها، اذا ما أرادت الدولة الامريكية ان تتلاءم مع شركائها الرأسماليين الآخرين في العالم.

وضع الاستاذ سباهي القضية في اطار الصراع بين رأس المال العالمي والدولة

القومية بصفة عامة وطرح تساؤلات من قبيل:

« هل تؤدي العولمة الى الغاء الدولة القومية؟» «وهل أصبحت التبعية أمراً لا محيص عنه بالنسبة للدول المتخلفة؟».

اعتقد ان السؤال الثاني سؤال بلاغي اكثر منه سؤالاً حقيقياً، إذ متى كانت الدول المتخلفة دولاً غير تابعة؟ إن مصير المحاولات البائسة لفكاك هذه الدول من التبعية معروفة جيداً لكل المطلعين على تطورات حركات التحرر الوطني. والآن بعد زوال الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية في اوربا الشرقية لم يعد لمثل هذه المحاولات من مؤيد، بل نرى الجميع يتسابقون في اكتساب الحظوة لدى الأسياد الرأسماليين الكبار، وكل ما يمكن عمله اليوم هو الحد، جهد الامكان، من الآثار السلبية لهذه التبعية المقيتة. والاستاذ سباهي يدرك ذلك فيقول : «إن وضعاً معقداً ومأساوياً كهذا يتطلب جهداً جماعياً من جانب البلدان النامية للضغط على المراكز الرأسمالية من أجل تعديل شروطها للاستثمار الخارجي». وحتى هذا الأمر صعب المنال في الظروف الدولية الجديدة التي أخضعت العالم كله الى قطب وحيد هو الرأسمالية العالمية، ولم يعد أمام الدول النامية من خيار:

«إما الموالاة وإما الحسام» كما يقول الشاعر. ولن تسند الرأسمالية في طورها الجديد الى الدول النامية وشعوبها سوى دور متخلف في تقسيم العمل الدولي. والمُخرج الوحيد من هذه الأزمة يكمن في تقديري في التساوم على تحسين شروط الاستثمار وشروط التبادل التجاري بصفة عامة لما فيه مصلحة الدول النامية، وزيادة حصة الفئات الكادحة والفقيرة في هذه الدول من الدخل القومي وتحسين شروط عيشها ونيلها حقوقها السياسية كاملة، أي اشاعة الديمقراطية في المجتمعات النامية، وذلك للحد من الاثار السيئة للتبعية . ولايحق لنا أن نخدر هذه الشعوب بأوهام «سيادة وطنية» لا يمكن تحقيقها، في حين تتغذى وتنتعش على هذه الأوهام انظمة دكتاتورية بدائية وهمجية في وحشيتها. وبكلمة اخرى، المساعدة بالعمل والتنوير على تحويل الطبقات العاملة والكادحة في العالم الثالث الى طبقات واعية لذاتها ومصالحها، او على حد قول ماركس تحويلها من طبقات في ذاتها الى طبقات من أجل ذاتها.

طبيعي ان تسعى الرأسمالية في طورها الجديد بعد أن اجهزت على خصمها اللدود، ولو وقتياً، الى أن تحول الرأسمالية الى نظام عالمي حقاً، وان تصفي بقايا الانظمة القديمة – السابقة على الرأسمالية– في زوايا العالم المختلفة لما فيه خدمة مصالحها. فما

هو موقفنا من هذه العملية التي لا مرد لها؟ هل يمكن اعتبارها عملية سلبية، وبالتالي، الوقوف بوجهها وعرقلتها؟ وما هو البديل في هذه الحال خارجاً عن نطاق البلاغة الخطابية الفارغة؟

يعتبر البعض من الرأسماليين الجدد في الدول النامية وكذلك دول اوربا الشرقية ان الانضواء الى راية الفاتح الامريكي هي الدليل الوحيد على التحضر الانساني والضامن الوحيد للثروة المكتسبة حديثاً، وهذا ما يتجلى بأبلغ صورة في التهالك على الانضمام الى الحلف الاطلسي لدى الفئات الحاكمة وجزء لا يستهان به من الرأي العام في بلدان أوربا الشرقية العائدة الى الرأسمالية.

كما نجد -على سبيل المثال- اصداء لهذا الموقف في صفوف المعارضة العراقية. وما التعويل على العامل الخارجي في احداث التبديل المطلوب في العراق سوى شكل من اشكاله الكثيرة. وقد عبرت بصراحة تامة عن هذا الرأي جريدة بغداد الناطقة باسم «الوفاق الوطني العراقي»، ودعت في افتتاحية لها بعنوان «نحن والعالم... نحو علاقات جديدة» في ٢٦ نيسان ١٩٩٦ الى تصفية حال الخصومة بين العالم العربي والغرب، وتساءلت «... فلماذا تخفق الدول العربية في الوصول الى النتائج المؤملة في ارساء أسس لمثل هذه العلاقات، في حين نرى دولة صغيرة مثل اسرائيل استطاعت بنجاح مد نفوذها الى قمة الهرم السياسي في أهم دول العالم؟» ان مثل هذه المقارنة مجحفة حقاً، ولا تأخذ في الاعتبار من هي اسرائيل، ومن هو العالم العربي، وما هي طبيعة نظرة الغرب الي الطرفين، ولا نوع العلاقات التي تربط كلاً منهما بالغرب؟ فما دولة اسرائيل في نهاية المطاف، إلا امتداد للغرب الرأسمالي وبشروطه الخاصة في قلب العالم العربي. أما العالم العربي فما هو في احسن الفروض سوى سوق واسعة لمنتجات الرأسمالية ومصدر للمواد الخام بشروط يفرضها رأس المال العالمي. وحرب الخليج الثانية دليل بارز على ذلك. لقد شكلت الولايات المتحدة الامريكية «قوات التدخل السريع» ومركز قيادة الشرق الاوسط في السبعينيات لمواجهة الاوضاع المتفجرة في منطقة الخليج العربي. واعلن الرئيس الامريكي كارتر منطقة الخليج، وعلى وجه التحديد منابع النفط، منطقة حيوية للمصالح الامريكية، وهذا ما يذكرنا في جانب منه بالمنطقة الحيوية للنظام الفاشي الهتلري.

ومن الطريف ان مشادة كلامية وقعت في مجلس العموم البريطاني على إثر اجتياح صدام حسين للكويت، فتساءل نائب عمالي: لماذا كل هذه الحماسة في الدفاع عن

الكويت؟ هل كانت امريكا وكان الغرب سيهبان لنجدة الكويت لوكانت الكويت تزرع جزراً بها فبادره نائب محافظ بالسؤال: وهل كان صدام حسين سيغزو الكويت لو كانت مزرعة جزر؟ وهكذا يمكننا تحوير القول الفرنسي الشهير: فتش عن المرأة الى فتش عن النفط!

لقد تحدث الامير خالد بن سلطان أحد قائدي حملة «عاصفة الصحراء» في كتابه الكبير «مقاتل من الصحراء» عن طبيعة المعركة فحددها بوضوح ، فهي بالنسبة للسعودية كانت معركة من أجل الحفاظ على مكانة المملكة العربية السعودية ودورها المتميز ضمن منظومة الخليج العربي بالتحالف مع امريكا والغرب، أما بالنسبة لامريكا وحلفائها الاوربيين واليابان فقد كانت دفاعاً عن منابع النفط. ويمكن ان يُسلك المشاركون الاخرون لمصلحة احد الطرفين (صدام حسين أو المناوئين له) في هذه المأساة البشعة شخوصاً واحداثاً في باب مرتكب الكبيرة بوضعهم في منزلة بين المنزلتين» . وهذا التقويم لا يمكن ان يُفهم – باية حال من الاحوال– على انه تقليل من المسؤولية الاجرامية لنظام صدام حسين والمؤيدين له بحق العراق والشعب العراقي وكذلك بحق الكويتيين. ونحن هنا نفحص الحقائق فقط ولا نوزع الاتهامات.

ولنعد الى المسألة الاساس، وهي تصفية مخلفات الانظمة السابقة على الرأسمالية في بلدان ما يسمى بالعالم الثالث، وبالتالي، دمجها في النظام الرأسمالي العالمي مع ايجاد الشروط الملائمة لهذا الدمج. إنني أعتقد ان هذا الدمج على الرغم من كل المحاذير هو مسألة وقت لا غير. وان الرأسمالية المنتصرة التي لم يعد يهددها أحد في المدى المنظور تسعى الى ان يتم هذا الدمج وفق شروطها وليس وفق شروط شعوب العالم الثالث. ويمكن النظر الى الصراع بين الولايات المتحدة الامريكية وحلفائها من جهة وبين نظام صدام حسين في العراق من الجهة الاخرى في هذا الاطار. وهكذا سارعت الولايات المتحدة الى اسناد حكم «عدوها!» صدام حسين عندما انتفض الشعب العراقي ضد سلطته الغاشمة في عام ١٩٩١ في ذروة «عاصفة الصحراء». فهي لا تريد ان تغامر في تبديل لا يضمن شروطها، وتفضل الانتظار والتأكد من هوية القادمين الجدد. وعلى أية حال، ليست هي المكتوية بنار صدام وحكمه، كما ان هذا الشعب الجموح، أعني ، الشعب العراقي ينبغي أن يُرَوَّض، فلا يفكر مرة اخرى بالافلات من اسطبل السيد الامبريالي.

هذا يعني أننا أمام مفارقة وخيار مفتعل هو الديمقراطية السياسية وحقوق الانسان مع التحكم الرأسمالي العالمي المبطن واحياناً، الصريح والهادف الى ابقاء المسافة الفاصلة بين العبيد والاسياد بطريقة متحضرة، أو دكتاتوريات عسكرية وشبه عسكرية

تتاجر بالقيم الوطنية القومية أو القيم الدينية ، أو بهما معاً. إن الرافعة الرئيسة اليوم للرأسمالية العالمية هي راية حقوق الإنسان في مواجهة الانظمة التعسفية، ويبدو انها خطوة لا محيدَ عنها، اذ ان القفز من الانظمة الاستبدادية المتخلفة دفعة واحدة الى الاشتراكية أصبح أمراً غير وارد أساساً، على فرض انه كان ممكناً ذات يوم بوجود النظام الاشتراكي العالمي. وكل ما نستطيع ان نفعله هنا، ان ندرك هذه الحقيقة اولاً، وان نتفادى جوانبها الاكثر سلبية، وان نحسن شروط التعامل مع بلداننا في ظل النظام الرأسمالي العالمي. ان الثورة العلمية – التقنية ارتفعت بمستوى الانتاج واساليبه الى درجات عالية جداً وأصبح توسيع الأسواق وخلق «الطلب الفعّال» بلغة الاقتصاد ، أي الناس القادرين على الشراء فعلاً يجعل من بين مهمات الرأسمالية المندفعة وراء الارباح تحسين شروط عيش الجماهير الكادحة لكي تكون قادرة على شراء منتجاتها. وهذه ناحية ايجابية عرضية. والرأسمالية لضمان عائدات استثماراتها الضخمة من مصلحتها ان تكون الاوضَاع الداخلية مستقرة، ولذا فانها سوف تشجع خلق دولة القانون والمؤسسات الدستورية لكي يتم التعامل بين الفرقاء في اطار «الشرعية القانونية». وليس دون مغزى الاصرار على إعادة الممتلكات المؤممة الى اصحابها في دول اوربا الشرقية، وقد جرى على تأميمها ما يزيد على اربعة عقود. ويقصد بذلك التأكيد في اذهان الجماهير ان مصادرة الملكية، حتى وإن تمت لما فيه الصالح العام، هي عملية غير قانونية واجرامية في الوقت نفسه، بغض النظر عن طبيعة الملكية وكيف تمت حيازتها. فالنظام الرأسمالي يعترف بالملكية، حتى وان كانت مسروقة، والماهر هو القادر على تثبيت حق الملكية وتسجيله باسمه. وقد نمت في البلدان التي أعيدت اليها الرأسمالية زمر من المحتالين والمتلاعبين بالاموال العامة ومنظمي الجريمة على أسس تجارية. وتزكم الأنوف كل يوم فضائح الجرائم الاقتصادية وعصابات المتاجرين بالمخدرات والدعارة، وقد أخذ الرأي العام يعتبرها أمراً طبيعياً، ولا يعيرها كبير اهتمام.

على الرغم من هذا كله نقول ان الامر لمختلف بعض الشيء بالنسبة لبلداننا ، وان المساعدة على خلق دولة القانون والمؤسسات الدستورية عملية ايجابية كبري ينبغي أن لا نقلل من أهميتها.

وعلينا في إطر هذه العملية ان نبدي اكبر قدر من الاهتمام بحقوق الانسان وأولها حقه في العيش الكريم وضمان العمل والحق في التأمين الصحي المجاني وحرية الاعتقاد والضمير والتعبير عن الرأي دون ملاحقة أو مساءلة وحرية الصحافة

والاجتماع والتظاهر، وتنظيم المجتمع المدني بخلق الاحزاب السياسية والنقابات والجمعيات المهنية والتعاونية وغيرها من المنظمات، واجراء انتخابات عامة سرية حرة ونزيهة في فترات زمنية محددة دستورياً، وضمان المشاركة الفعالة للمواطنين في الحياة العامة والاجتماعية وفقاً للرغبة والكفاءة.

ليس بالضرورة أن تسفر هذه العملية عن صعود الشخصيات والفئات الموالية لرأس المال العالمي الى سدة الحكم، فطبيعة القوى السياسية التي سوف تشارك في صياغة مستقبل البلاد تحددها برامجها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومدى ثقة الجماهير الشعبية بها ووعي الفرد وخياره، ولا بد لهذه القوى بعد فوزها بثقة الناخبين ان تتصرف وفقاً لارادة الاغلبية. وتكتسب العملية التنويرية في هذا المجال أهمية كبرى، إذ ان الأمية بمختلف انواعها هي السائدة في بلداننا . كما ان المشاعر الدينية لجماهير كادحة غفيرة قد تكون عقبة في صياغة مستقبل ديمقراطي، إذ ربما رفعت الى السلطة الفئات المتاجرة بالمشاعر الدينية، وهي فئات غير ديمقراطية وذات ميل لفرض دكتاتورية دينية تعود ببلداننا الى اجواء القرون الوسطى. ويزيد في خطورة هذا الخيار ان القوى السياسية الديمقراطية والعلمانية بصفة عامة قد فشلت بدرجات متفاوتة في قيادة الجماهير الكادحة نحو تحقيق اهداف سياسية واقتصادية واجتماعية عقلانية، أو انها تورطت في دعم انظمة حكم دكتاتورية بحجة تحقيق التقدم الاجتماعي. وقد عبّر عن هذه الحالة الاخيرة رالف دارندورف (انظر: ث.ج العدد ٢٦٩) بقوله: «فالتسلطية مغرية حقاً في البلدان التي تتبنى سياسة اقتصادية تحديثية قبل ان تتمدن مجتمعاتها وتمارس الديمقراطية السياسية.»

واذا رفضنا هذه العملية فما علينا الا التفتيش عن افغانستان جديدة لاقامة حكم ثوري! او ربما اشتراكي فيها! ألم يكن من الأفضل بما لايقاس لو ان القوى الافغانية التقدمية ذات الرؤوس الحامية والخطاب السياسي العاطفي لم تقدم على الاطاحة بالنظام الملكي في عام ١٩٧٨؟ إن الواقع حقيقة صلبة لا يمكن تجاوزها بالتمنيات، وان الوعي الذاتي ليس كل شيء، بل ان نضوج الشروط الموضوعية يقع خارج هذا الوعي أولاً واخيراً.

وقبل ان افرغ من هذه الاراء والافكار التي استثارها في ذهني ملف «الثقافة الجديدة» أود لو اتسع صدر كتابها لبعض الملاحظات اللغوية. تميزت مقالة الاستاذ سباهي بلغة رصينة محسوبة، ولكنه لجأ الى استعمال خاطىء كثيراً مايتردد هذه الأيام، اعني، صيغة

«تَطال»، وهذه صيغة لا وجود لها والأصل فيها ان تكون «تطول» من فعل الماضي طال. أما صيغة «تُطال» فهي صيغة مبنية للمجهول مثل يُقال ويُنال بضم الياء، وهي غير مقصودة في هذا السياق. وفي المقالة المترجمة الأولى لفت انتباهي ان المترجم او المحرر شكّل كلمة «مَخرَج» (ص٢٧، العدد ٢٦٩) بفتح الميم وفتح الراء والصواب هو أنْ تُضم الميمُ أي ان تكون مُخْرَج» لانها اسم مفعول ، واسم المفعول من فوق الثلاثي يبنى بضم الميم وفتح ما قبل الآخر. وفي (ص٣٢) من المقالة نفسها ورد تعبير «غير مرغوبة» والصواب «غير مرغوب فيها». ووردت في مقالة «العولمة والطبقة العاملة» ترجمة لعبارة Degradation of labor بـ «اختزال العمل» (ص٤٧) والاولى ترجمتها بـ «الانحطاط بالعمل» بمعنى ضد الارتقاء به، ومن الغريب ان عبارة انحطاط العمل ترد في اسفل الصفحة ذاتها.

كما ترجم د.حسن مصطلح Global بالكوني، واعتقد ان هذه الترجمة خاطئة لان مقابل كلمة كون هي كلمة Cosmos خاصة ونحن الآن في عصر الفضاء الخارجي. ولكن الكاتب اضطر مرة الى استعمال كلمة عالمي مقابل كلمة Global. ويبدو لي ان الكاتب حاول التفريق بين الكوني Global والدُوَلي International ولكن اضطر الى الخلط بينهما في تضاعيف المقالة. وفي الختام آمل أن يتقبل الأخوة الكتاب ملاحظاتي هذه برحابة صدر لانها تعبر عن احترام عميق لجهودهم الفكرية.

براغ

٣ حزيران ١٩٩٦.

نحو تنظير واقعي للبنية الاجتماعية في العالم العربي*

د. ثائر كريم

٤ـ النخب: حلقة جوهرية في سلسلة التراتبات الاجتماعية

يمكن الاشارة الى وجود محورين أساسيين تدور حولهما الكتابات المتعلقة بظاهرة «النخبة» أو «النخب» القائمة في العالم العربي. المحور الأول يمثل محاولة ربط تحليل واقع النخب والجماعات الاجتماعية مع التحليل الطبقي عبر السعي لتبيان وجود آلية معينة للتفاعلات المتبادلة بينها، كما هو الأمر لدى جيمس بيل وكارل ليدن وغيرهما، بينما يولي المحور الثاني أهمية مستقلة لظاهرة النخب، بدون اقحامها بالظاهرة الطبقية، كما يلاحظ عند جورج لينسوفسكي[٣٦]. فهو يركز على وجود قدرات تنظيمية بعيدة الأهمية في تقرير الانتساب إلى، أو تبوّء موقع متميز ضمن النخبة. وفي الواقع فان تشديده على خاصية المهارة التنظيمية يمكن تبريره إلى حد كبير بالمعطيات الشخصية والتاريخية لسير حياة الكثير من قادة الانقلابات أو الحركات الجماهيرية أو الأحزاب القائمة في العالم العربي. وتنم تلك المهارة، كما يشير عن نمط معين من أنماط التفوق على الجماعات المتنافسة قد تمثل الميزة النوعية الفاصلة للنخبة الجديدة في سياق صراعها مع النخب الأخرى التي قد تكون متفوقة على الأولى وفقاً لمعايير ثقافية أو خبرات علمية... الخ[٣٧].

* نشرت الحلقتان الأولى والثانية من هذه الدراسة في العددين السابقين وحلقة هذا العدد هي الأخيرة ـ ث.ج ـ

إن الكثير من دارسي النخب القائمة في العالم العربي يعرجون، في سياق التحليل، على تعريفات بوتومور للنخب. فقد بحث النخب من زوايا مختلفة أبرزها زاوية عملية استبدال وتعدد النخب القائمة وذلك عبر طرحه لمفهوم «النخب المضادة» للنخب السائدة، وكذلك زاوية المضامين الموضوعية المتولدة من مفهوم النخبة(٣٨). وحسب بوتومور فإنه يمكن تعريف النخبة، وظيفياً، كجماعة مهنية تتمتع غالباً بـ«مكانة» راقية ضمن النسيج الاجتماعي، كما يمكن تعريفها سياسياً، أي كـ«نخبة سياسية» تتألف من جماعة صغيرة قد تمارس فعلياً السلطة السياسية وتدخل حسب فهمه، ضمن مفهوم «الطبقة السياسية» التي تحوي كل الجماعات التي لها تأثير سياسي في المجتمع المعني(٣٩). ويبدو أن الرؤى العامة لمفهوم النخبة تلتقي في نقطة مشتركة تتلخص في أن النخبة تمثل جماعة صغيرة من الأفراد الذين يتمتعون بمميزات خاصة تتيح لهم التفوق على الآخرين، ويقومون أيضاً بنوع من الفعل الاجتماعي المؤثر الذي ينتج في نهاية الأمر قابلية الاستحواذ على أكبر ما يمكن استحواذه من المنافع المادية والمعنوية. وباستثناء هذه النقطة المشتركة، فإن تلك الرؤى تفصح عن تنوع واختلاف فيما يتعلق بالعناصر الملموسة التي ينبغي ادراجها في إطار النخب المعينة.

ويمكن القول باختصار إنه إذا تركنا جانباً إمكانية قيام نخبتين أو أكثر تستحوذان على المواقع الحاسمة في عملية صنع القرار السياسي، وهو أمر وارد تماماً في ظرف تاريخي معين، فإن وجود نخبة واحدة مركزية محاطة باطار أو بأطر من النخب الثانوية هو الأمر الأكثر شيوعاً في أكثر الحالات «الطبيعية» أي التي لا يتعرض أثناءها النظام الاجتماعي ـ السياسي إلى هزات شاملة تصل بالبلد إلى حالة الفوضى وشلل الحكم التام. في العادة لم تشكل الفوضى الشاملة وانهيار صور الاستقرار المعتادة إلا استثناءات تاريخية في حياة أي مجتمع. وإذا كانت الحال كما عليه فإنه، بالإضافة إلى ضرورة إدراك كيفية تغير النخب المركزية والعوامل الحاسمة الكامنة وراء ذلك، هناك أيضاً سؤال هام يستوقف الباحث في هذا السياق هو: كيف تدوم وتنمو العلائق بين النخب المركزية وإطارها أو أطرها العامة وكيف يجري إمداد النخب المركزية بالأفراد في حالات الضرورة العادية، مثلاً إبان حدوث وفيات أو أمراض أو ما شاكل من العوارض.

هناك على الأقل أربع شبكات تعمل لتمتين الروابط بين النخب المركزية وإطارها العام من النخب الثانوية وتقوم في نفس الوقت مقام قنوات للحراك السياسي نحو الأعلى صوب أبواب النخب المركزية. أولاً، هناك شبكة الخطوط الرسمية على امتداد

هرميات السلطة والإدارة الحكومية المدنية والعسكرية بوظائفها العديدة. وثانياً، ثمة شبكة العلاقات الشخصية التي يمكن أن تبدأ من الطفولة وتمتد عبر الحي والمدرسة والعمل لتشمل كل الأواصر الزبائنية والمحلية والعائلية. ثالثاً، شبكة الاتصالات التنظيمية إذا كانت النخبة على اتصال بحزب سياسي أو تجمع ثقافي أو ما شاكل. ورابعاً، شبكة الاتصالات السرية التي تقيمها، من كل بد، النخبة المركزية لإدامة التعرف على ما يجري داخل إطار النخب الثانوية أو الإطار الاجتماعي الأعم. ومن البديهي أن تتصل تلك الشبكات بعضها ببعض على نحو وثيق للغاية ولكن قد يكون توفير معطيات دقيقة عن الأفراد المنضوين تحت لواء تلك الشبكات هو الأمر الأعوص حقاً الذي يواجه الكثيرين.

إن صورة التراتبات الاجتماعية، في بلدان مثل العراق أو الأردن وغيرهما، تكون ناقصة لو جرى التركيز فقط على الجماعات والتنظيمات والتجمعات الكبيرة إذ أن المجموعات الصغيرة تفرض نفسها في الكثير من الأحيان باعتبارها الأكثر قدرة على الاستمرار والتواصل والحفاظ على النفس لاسيما في الظروف السياسية الصعبة أو التمزقات الايديولوجية أو تازمات تحديد الهوية. ويمكن الاتفاق التام مع بعض الباحثين في الإشارة إلى الأهمية البارزة التي تتمتع بها، وتمتعت بها أيضاً في سياق التاريخ السياسي والاجتماعي للبلدان الإسلامية، الجماعات غير المؤطرة شكلياً في الوقت الذي كانت فيه الجماعات المؤطرة شكلياً ورسمياً هي التي تتمتع بالمكانة الأبرز في العالم الغربي(٤٠). وتتمحور تلك الجماعات غير المؤطرة رسمياً حول افراد يتفردون أو يتفوقون على غيرهم ببعض الخصائص، أو حول علاقات قرابية تتمفصل على روابط غير رسمية وشخصية للتنظيم قد تقيم واجهة خارجية لها عبر نوع من الترتيب الرسمي المؤطر. ويبدو أن هناك أسباباً كثيرة تدعو إلى الوعي بالأهمية التي تحظى بها المجموعات الصغيرة، المؤطرة أو غير المؤطرة شكلياً. ومن بين تلك الأسباب يمكن ذكر ١ــ ان تلك المجموعات الصغيرة تتمتع فيما بينها بثقة واطمئنان أكبر لسهولة معرفة الأفراد بعضهم بعضاً كما أن استقرارها والقناعة بالموقع الذي يشغله كل فرد أكبر مما هو عليه ضمن الجماعات الكبيرة وأسهل تحققاً؛ ٢ــ وكلما كانت الجماعة أصغر كلما زادت المنافع المتوزعة على كل فرد فيها، في الوقت الذي يصعب جداً تبين المنافع المادية أو المعنوية بالنسبة للكثير من الأفراد الذين في العادة يضعون المنفعة الشخصية في مصاف الأولويات إذا استثنينا الأعمال التي تقوم بها أقلية من الأفراد والتي لا يمكن أبداً

وضعها في إطار المنافع والمصالح الأنانية، مثل التضحية بالنفس لفكرة أو جماعة أو التبرع بالدم أو غير ذلك من الأفعال النبيلة؛ ٣ــ وقدرة الجماعات الصغيرة على التمتع باستقلالية أكبر في الأوقات التي تمارس فيها الأنظمة المستبدة سياسة لا ترحم، تجاه التنظيمات أو التجمعات الكبيرة غير الخاضعة لنهجها وخططها إذ تعتبر مثل هذا الوجود المستقل تهديداً مباشراً لوجودها؛ ٤ــ بالإضافة إلى أن ضعف أو تأزم الولاءات الايديولوجية والأشكال التنظيمية الكبيرة المناسبة لها، مع مختلف الضغوط الخارجية، تفضيان دوماً إلى تفكك التجمعات الكبيرة إلى جماعات صغيرة ربما غير مؤطرة شكلياً وأشبه ما تكون بالحلقيات المبنية أبداً على الروابط والولاءات الشخصية والعائلية والمنطقية... الخ.

وغالباً ما يتبدى التاريخ التنظيمي للنخب كتاريخ للمجاميع الصغيرة التي تنبع من الأواصر العائلية القرابية، المدرسية، أو العمل في المؤسسات الحكومية المختلفة. ومن الممكن ملاحظة وجود مثل هذه المجاميع الصغيرة داخل الأحزاب والتجمعات الايديولوجية السياسية الأوسع أو ذات البعد الاقتصادي الطبقي باعتبارها شيئاً مفروضاً لا مفر منه قد يعكس روح الفردية والزبائنية والعلاقات الباطنية التآمرية كتعبير ضروري عن جانب واسع من الحياة السياسية العربية. وبالرغم من أن الأفراد، في حالات ليست بالقليلة، كثيراً ما يتطلعون إلى خارج العائلة، وبالتحديد إلى ما بعد الأساس العائلي للسياسة، إذا كانت الروابط خارجها توفر وسيلة للارتقاء أكثر فعالية ونجاحاً، فإن الأواصر العائلية والقرابية تبقى في المرتبة الأولى من حيث تامين شبكات الاتصالات في الحياة التنظيمية الداخلية للنخب. إن العوائل، كما يشير الباحث في قضايا النخب المصرية روبرت سبرنغبوري «تشكل مركزاً بارزاً لشبكات الاتصالات الشخصية التي تضاعف فرص أبنائها في إقامة العلاقات المفيدة»[٤١].

وبالرغم من الصعوبة الكبيرة لتمييز الجماعات الصغيرة، غير الشكلية المنشغلة بالسياسة، عن تلك غير المنشغلة بالسياسة، فإن ثمة إمكانيات فعلية مارست فيها مثل تلك الجماعات نشاطاً سياسياً بارزاً رغم ضآلة قيمتها كفاعل جماعي فعال قياساً إلى الجماعات الكبيرة إذا كانت فعالة. إن تأثيراً مباشراً للطبيعة الفردية والزبائنية في إقامة الروابط الاجتماسياسية وانتقاء الأفراد، مثلاً لمختلف المواقع الوظيفية على قاعدة الخدمات المشتركة، يرفع قدر الحلقيات إلى فوق. كما أن سيادة نمط السلوك الأبوي المتعالي ليس فقط في العلاقات العائلية والمدرسية والمهنية العربية، عموماً، بل، وهو

الأنكى من ذلك، في ظاهرة السلطة وممارستها الحكمية، تفضي إلى توسيع تغلغل وزيادة شيوع الطابع الفردي الزبائني كجوهر أساسي للروابط.

إن سياسات النظام والزعامة الأبوية، كما تتجلى في الشرق الأوسط، تعكس، وتستند على، مجموعة خصائص(٤٢) أهمها: ١ــ العلاقات الشخصية المكونة للمجتمع بما فيها شبكات الصلات الشخصية التي يقيمها الرئيس، القائد، الزعيم، المدير. . . الخ والمتضمنة تحديداً معلومات أساسية عن مواقف وأفكار الأصدقاء والأعداء. ٢ــ القرب والبعد بما لهما من أهمية إثر دنو وتباعد الأشخاص من الزعيم أو الرئيس وغيره من أفراد النخب المتميزين على مضمون ونتائج السياسات الأبوية أكثر من تأثير المسوغات العلمية والعملية. ٣ــ إن الأفراد والعلاقات غير الرسمية من خارج سياق المؤسسة الرسمية تساهم أحياناً كثيرة مساهمة مباشرة في صياغة العلاقات الأبوية الشخصية. وهنا يتجلى أثر التنظيمات الباطنية والنخب السرية غير المكشوفة. ٤ــ وفي ظل غياب أطر الديمقراطية الشرعية المقننة للصراع الايديولوجي والسياسي على الحكم وخيارات تطور المجتمع فإن القادة والرؤساء وغيرهم من أقطاب القوة يسعون من كل بد إلى ممارسة تنظيم وترتيب المنافسة والتحاسد بين الأشخاص والجماعات المكونة لهيكل السلطة وفقاً لطرقهم الخاصة التي عادة ما تناقض كلياً الطرق المقننة والمؤسسة. إن تلك المنافسة ذاتها تؤلف بالضرورة أحد الجواهر الرئيسية للنظام السياسي والتي ليس على الزعيم إلا استخدامها بالطريقة المناسبة لإحكام استمرارية السيطرة. ٥ــ الجسارة العسكرية والمسلحة عموماً، بما فيها الشجاعة الجسمانية للأفراد، تشكل أداة محورية للرئيس في تدعيم قواه المركزية.

وبتقديري، إن النخب المركزية للأنظمة الجديدة الموصوفة بالثورية، التي استحوذت على السلطة في عدد من البلدان العربية ابتداء من مصر بعد انقلاب يوليو ١٩٥٢، تمثل، وإلى حد كبير، روح الأبوية الحكومية(٤٣) التي تتلخص بأن تلك النخب، ولاسيما زعيمها، تعتبر نفسها التجسيد المطلق للثروة والقوة في البلد وأن الحكومة ينبغي، لاعتبارات سياسية واقتصادية، أن تستند إلى جيش كبير من العاملين في حقول الادارة والاقتصاد والدفاع الذين يعتاشون على «كرم» السلطة، أي على «أحقية» السلطة بالتصرف التام بموارد البلاد حسب هواها. أما المجتمع، خارج إطار النخبة المركزية والتجمع المتوسط للنخب العامة، فينتظم على امتداده عدد لا يحصى من الولاءات المحلية المتجزئة التي غالباً ما تعرقل وتقف بالنقيض من أشكال التضامن الاقتصادية الطبقية

التي تتجاوز الفوارق الأثنية والمناطقية والدينية وغيرها.

ويمكن القول إن مدى اتساع أو ضيق القنوات الاجتماعية القائمة بين النخبة المركزية والجمهور الذي قد يظهر أيضاً بمظهر «الكتلة» بالنسبة للنخبة الحاكمة يعتمد على بعض العوامل التي ربما يكون أبرزها ١ــ درجة استقرار وشدة فعالية الجهاز العسكري والتعبوي للنخب؛ ٢ــ فعالية دعايته لاضفاء الطابع الشعبي على اجراءاته بالترابط مع قوة الخطاب السياسي المرافق للبرامج الايديولوجية المطروحة من قبل النخبة.. إن مدى تقلص أو اتساع الأساس الاجتماعي للنخبة المركزية يتصف بطابع تاريخي متغير وفقاً للآفاق الايديولوجية والسياسية الاجتماعية للنظام النخبوي القائم جنباً إلى جنب مع مختلف الظروف الاقتصادية. في كل الأحوال، إن أي نظام أبوي تسمح نخبته الاستراتيجية بحراك واسع نسبياً ضمن تجمع للنخب الوسيطة، بل تبقيه دائراً حول ثنائية «النخبة ــ الجمهور» يواجه مصاعب قاسية جداً ربما كانت قد وعت حقائقها كل الأنظمة الناشئة بعد الإطاحة بالحكومات الملكية في بلدان مثل العراق ومصر وليبيا سوية مع بلدان أخرى. تلك الأنظمة يجمعها السعي للظهور بمظهر المتقيد برغبات الجمهور «الكتلة» وإنها ليست فوق المجتمع بينما تلقنه بكل الوسائل الطاعة العمياء لرغبات وسياسات النخبة ورمزها. وفي هذا السياق يبدو مبرراً تشديد حميد أنصاري على أهمية النخب الوسيطة باعتبارها الأداة المتوسطة بين النخب والجمهور وتتمتع بجملة خصائص تجعلها قادرة على اتخاذ دور وسيط لا مفر منه بالنسبة للنخبة المركزية. ومن هنا يتفق أنصاري مع باحثين آخرين على أن الضباط المصريين، مثلاً الذي استحوذوا على السلطة في ١٩٥٢ سعوا إلى التحالف مع «الطبقة الزراعية الوسطى» على حد تعبيره والمكونة من ملاك اراض مؤثرين يملكون بين ١٠ و٥٠ فداناً ومن هنا أيضاً فإن الاصلاحات الزراعية لم تخفض حد الملكية عن ٥٠ فداناً[٤٤].

ومن جهة أخرى، إذا كان الطابع الاختزالي المتطرف لثنائية النخبة ــ الجمهور ينبع من استبعاد النخب الوسيطة القائمة ضمن المساحة الفاصلة بين النشاط الاستراتيجي للنخبة المركزية من جهة وواقع النشاط اليومي للجمهور من جهة أخرى، فإن هناك اختزالية مفرطة أكبر ترفع من مرتبة الرئيس ورمز النخبة إلى حد يلغي وجود النخبة والأفراد الداخلين فيها وتقسيم العمل البالغ الأهمية القائم بينهم. إن الظهور المتكرر للأفراد الطامحين إلى تبوء مركز القيادة والفشل في ذلك يدل، فيما يدل، على عدم القدرة على ايجاد وانجاح تقسيم العمل والرضا بالمواقع في الاطار النخبوي المناسب.

خاتمة

في تحليل الجماعات الاجتماعية ثمة أهمية فائقة لإشكالية طبيعة نشاطها الاقتصادي من حيث انتاجيته أو عدم انتاجيته وبالترابط مع نوع الملكية، الخاصة غير الرأسمالية أو الرأسمالية. إن إشكالية النشاط الاقتصادي تلك توفر محكاً حاسماً يتيح ادراك جوهر الجماعات الاجتماعية وعلاقاتها المركبة ببعضها البعض، والأهم تعيين موقعها وموقفها من السلطة ــ الدولة. علاوة على ذلك فإن التحديد الاقتصادي ــ السياسي لطبيعة العمل من حيث انتاجيته أو عدم انتاجيته بمثابة المعيار الأساسي للتحديد يشير أيضاً إلى وجود افتراض ضمني «منطقي» بأن البلدان العربية، على الأقل بلدان مثل مصر وسورية والعراق لاتزال تمر بمرحلة السيرورة الرأسمالية ليس إلا، أي نفي تميّز اللحظة التاريخية الراهنة بنضوج العناصر الرئيسية للبنية (التشكيلة) الرأسمالية الاقتصادية الاجتماعية. ثمة فقط، حسب هذا الطرح، تقدم تدريجي لمسير الهيمنة والسيادة للتنظيم الرأسمالي ليلقي بظله على مجمل ميادين الإنتاج.

هذا الافتراض يناقض افتراضات أخرى، ربما طرحها أصحابها بشكل حقائق لا تقبل الجدل. إن أبرز تلك الافتراضات وأكثرها مدعاة للحذر، من وجهة نظر كاتب المقالة، هو الافتراض الأول القائل بتكرس هيمنة وسيادة الشكل الرأسمالي لتنظيم العمل اجتماعياً، وكذلك الافتراض الثاني القائل بانغلاق كل سبيل بوجه الهيمنة والسيادة الممكنة لهذا الشكل ايضاً. ومن الواضح أن تبني أياً من هذين الافتراضين يمكن أن تترتب عليه نتائج غاية في التباين لزاوية النظر والاستنتاجات التي تنطلق منها أو تصل إليها الأبحاث السوسيولوجية.

إن العوامل الأخرى الأكثر أهمية والمعزِّزة لمصداقية اختيار هذا المعيار تتلخص بعدم مواكبة الأحجام العامة والتنوع في تركيبة الانتاج المادي ازاء اتساع وتاثر وتركيبة الطلب الاجتماعي، وهو واقع قد نجم إلى حد كبير نتيجة للتدفقات الواسعة النطاق للثروات البترولية وما رافقها من فورة في النشاطات الريعية والخدمية؛ ثم هناك أيضاً ضخامة النفقات الحكومية، الاستهلاكية أو العسكرية على نطاق كبير بمقابل تقلص وضآلة الاستثمارات الانتاجية، لاسيما الأهلية قياساً إلى تلك النفقات؛ وكذلك اتساع الأعداد الإجمالية لأولئك العاملين في قطاعات الخدمات وغيرها من ميادين العمل غير المنتج مقابل بطء نمو عدد العاملين في الفروع الانتاجية... وغيرها من التشوهات في الاقتصاد العام.

ومن الممكن الاتفاق تماماً مع رأي باحثين مثل آلان ريجاردز وجون ووتربوري(٤٥)، على أن مفهوم «البرجوازية الصغيرة» ينطبق فقط على أولئك الذين يمارسون النشاط الاقتصادي بأنفسهم، غالباً، أو يلجأون إلى استخدام قوة عمل محدودة. وهؤلاء هم أيضاً أصحاب الملكية والعاملين في قطاعات عديدة كالتجارة والصناعات الصغيرة والحرف والخدمات والزراعة. إن هذا المدخل يمكن أن يضفي الكثير من الملموسية على إشكالية «البرجوازية الصغيرة» ويمكن أن يقدم عوناً كبيراً في تمييز عناصرها والتفريق بينها وبين العديد من الجماعات المخلوطة بها خلطاً تعسفياً.

إن هذا المدخل لتناول وضع وطبيعة القوى المنضوية تحت عنوان «البرجوازية الصغيرة» يوفر أرضية متينة لتصنيفها سوية مع الشرائح الأخرى للبرجوازية المتوسطة والكبيرة، وهو تصنيف له مسوغاته العملية والمنطقية أيضاً بالرغم من أن الكثيرين يودون، لاعتبارات ايديولوجية أو سياسية، أن يجعلوا تلك الفئات البرجوازية الصغيرة «تتأرجح» هنا وهناك. ومن هنا فإنه ينبغي أن تفرز من بين صفوف البرجوازية الصغيرة تلك الجماعات التي لا يعكس نشاطها الاقتصادي لا إنتاجاً ولا تداولاً للسلع انطلاقاً من ملكية خاصة لشروط الانتاج. وإذن يمكن إدراج الجماعات الاجتماعية من قبيل الموظفين المدنيين والعسكريين، المهنيين كالمحامين والأطباء والصحفيين والمثقفين المختلفين والقائمين على شؤون الدين وغيرهم، تحت مفهوم «الفئات الوسطى» ذي المدلول التصنيفي وليس مفهوم «الطبقة الوسطى» الذي يمكن أن يحمل مدلولاً ماهوياً، بمعنى الكيان الفعلي.

وفي بلدان مثل العراق ومصر لم تحسم فيها بعد مسألة سيادة وهيمنة البنية الرأسمالية بسبب العديد من العراقيل الداخلية والخارجية أمام اكتمال شروط تجديد الانتاج الاجتماعي برمته وفق روح التنظيم الرأسمالي، فإن السلطة السياسية، وليس المجال الاقتصادي، هي التي تشكل نقطة الانطلاق الحاسمة في تعيين أشكال وتركيبة ومكانة النشاط الاقتصادي المنتج وغير المنتج نيابة عن المجتمع ككل. إن السلطة بمعنى قوة الحكم، أو ربما حكم القوة السلطوي، هي العامل المنبث في مجمل ميادين الحياة الانتاجية والاجتماعية والذهنية والملزم لها بالانصياع التام إجباراً. لذا فإن المغزى الأكثر أهمية بالنسبة لتحليل الجماعات الاجتماعية المختلفة يتمثل في فهم مكانتها وعلاقتها وموقفها من السلطة ـــ الدولة من جهة وشكل إدارتها وتوزيعها للثروة الوطنية من جهة أخرى.

الهوامش

(٣٦) Se Lenczowski, George, (1975), Some Reflections on the Study of Elites, in Lenczowski, George (ed), Political Elites in the Middle East, Washington, D.C., P.3.

(٣٧) المصدر السابق، ص٥.

(٣٨) Bottomore, T.B. (1964), Elites and Society, New York, p.9.

(٣٩) يبدو أن استخدام مفهوم «الطبقة السياسية» هنا، كما في مواضع أخرى، هو من باب التصنيف فحسب إذ من المستبعد أن يكون بالإمكان، علمياً أو عملياً، إثبات أن المجموعات السياسية ذات التأثير في بلد مثل مصر، على سبيل المثال، تكون طبقة بالمعنى الجوهري لهذه المفردة.

(٤٠) Bill, J. and Leiden C. ibid., p. 78

(٤١) Springborg, Robert (1975), Patterns of Association in the Egyptian Political Elite in Lenszowski, George (ed.), ibid., p.97.

(٤٢) ثمة بعض التفاصيل القيمة عن هذا الموضوع لدى جيمس بيل وكارل ليدن في مصدرهما الذي سبقت الاشارة إليه ص١٥٥ وما بعدها، وكذلك لدى شاهروف أخوي، مصدر سابق ص٧٥ وما بعدها.

(٤٣) إن مفهوم الابوية الحكومية مستخدم هنا للتفريق عن الأبوية التقليدية التي توصف بها، عادة، الأبوية القبلية والعائلية. ويمثل هذا المفهوم بديلاً لمصطلح الأبوية الجديدة الموظف من قبل بعض الباحثين إذ يبدو لي أن استخدام مفردة «الجديدة» أحياناً إزاء مفاهيم قائمة بغية وصف تطورات تتجاوز ما يمكن أن يدل عليه المفهوم القائم يمثل نوعاً من الكسل الذهني لايجاد المفهوم المناسب الذي يمكن أن يختصر تلك التطورات.

(٤٤) Ansari, Hamid (1988), "Limits of Rulling Elites. Autonomy in Comporative Perspective" in Dawisha, Adeed and Zartman William (eds.), Beond Coercion: The Durability of the Arab State, London, p. 221

(٤٥) Richards, A. and Waterbury, J., ibid., p. 409-10 وتجدر الإشارة أن الباحثين يستندان إلى تعريف معياري نوه إليه د. سمير أمين في كتابه «الأمة العربية والصراع الطبقي» ويمتد بجذوره إلى تقاليد الفكر الاقتصادي الكلاسيكي.

العلاقات الاجتماعية - السياسية في بابل

بين القرنين السابع والرابع ق.م

محمد دندمايف

(١)

التاريخ السياسي – لعب الكلدانيون الدور الحاسم في نشوء الدولة البابلية الحديثة، وكان لهم الدور الأكبر في تطورها اللاحق فيما بعد. ولا شك ان بابل مدينة للقبائل الآرامية، التي ينحدر منها الكلدانيون، بالازدهار الاقتصادي الذي عرفته خلال تلك المرحلة والذي لم يسبق له مثيل. إحتلّ الكلدانيون جنوب البلاد في النصف الثاني من القرن التاسع ق.م. وراحوا يزحفون تدريجيا باتجاه الشمال. اخذ الفاتحون الجدد بالحضارة البابلية القديمة وهضموها جيداً، واتخذوا من مردوخ –الرب الأعلى لبابل– إلهاً لهم. في نفس الوقت شهدت كافة مرافق الدولة الآشورية عملية تدريجية لاحلال الآراميين محل المواطنين الأصليين في مختلف المرافق لكن الدور القيادي لم يعد للكلدانيين، بل للآراميين الشماليين، عبدة الإله سين، إله القمر. وإحتل سين عند الآشوريين فيما بعد نفس المنزلة التي كان يحتلها الإله آشور.

في سنة ٧٢٩ق.م. فتح الملك الآشوري تجلاتبليسر الثالث مدينة بابل، وبذلك فقدت البلاد استقلالها. لقد تحول الكهنة وكبار موظفي الدولة في المدن الشمالية الى ركيزة للسيطرة الآشورية، فيما اخذ الكلدانيون المبادرة للكفاح من اجل الاستقلال، فكسبوا تعاطف فقراء المدن. لقد كان ذلك مبرراً لسنحاريب ليقوم بهدم بابل سنة ٧٠٢ق.م وبعد وفاة أسر حدون قسمت الدولة الآشورية الى شطرين: في آشور يحكم الملك اشور

بانيبال -منذ سنة ٦٦٩ق.م.- وفي بابل أخوه الملك التابع له شمش شم أوكين. ولكن شمش اعلن العصيان ضد اخيه عام ٦٥٢ق.م. ولم تخمد الاضطرابات إلا بعد مرور أربع سنوات. توفي اشور بانيبال سنة ٦٢٩ق.م. تاركاً الحكم لسين شار أشكور، وهو ذاته الذي كان (حسب ر.بورجير) يحمل في بابل الاسم الثلاثي آشور أتيلا ايلاني، وهو الملك الآشوري ما قبل الأخير.

في سنة ٦٢٦ق.م. أعلن الحاكم الكلداني نبوبولصر- كان يبسط نفوذه على جنوب البلاد- العصيان. وفي نهاية تلك السنة نصب نفسه ملكاً بابلياً، وأسس بذلك مملكة جديدة. على إثر ذلك بدأت حرب ضروس تواصلت عدة سنوات بين الآشوريين والبابليين من أنصار نبوبولصر. في البداية حقق الآشوريون انتصارات هامة وبسطوا نفوذهم على وسط وجنوب البلاد. وفي تشرين الأول من عام ٦٢٦ق.م. فقد الملك شاراشكن السيطرة على بابل. وخلال الفترة ٦٢٢-٦٢٠ جرى صراع مرير حول مدينة اوروك انتهى بهزيمة الآشوريين. ركز الآشوريون دفاعاتهم حول مدينة نيبور، التي حاصرتها قوات نبوبولصر لفترة طويلة، مما دفع بأهالي المدينة الى بيع أطفالهم ليتحولوا الى رقيق، بسبب عجزهم عن إعالتهم. لم يترك الآشوريون نيبور الا في سنة ٦١٥ق.م. وفي تلك السنة نقل نبوبولصر الحرب الى بلاد آشور ذاتها فهاجم مدينة آشور. واضطر البابليون الى التراجع، ولكن في سنة ٦١٤ق.م حلت بالآشوريين كارثة كبرى، وذلك إثر الضربة المميتة التي وجهها اليهم ملك الميديين كي اخسار، بعد اتفاقه مع ملك بابل نبوبولصر. وسقطت آشور قبل وصول البابليين، وعلى انقاضها وقّع كي اخسار ونبوبولصر وثيقة السلام. وفي عام ٦١٢ق.م سقطت عاصمة الآشوريين-نينوى. بعد ذلك عاد كي اخسار مع الجزء الأكبر من قواته الى مقر اقامته. صمد الآشوريون في حران بضع سنوات، لكنهم طُردوا منها الى سوريا سنة ٦٠٩ق.م.

أثار التحالف الجديد بين الميديين والبابلين والانتصارات التي احرزها مخاوف المصريين كثيراً، لذلك سارعوا الى التحالف مع الآشوريين، بالرغم من انهم لم يتحرروا من السيطرة الآشورية إلا في عام ٦٥٥ق.م. في عام٦٠٨ق.م. وصلت القوات المصرية بقيادة الفرعون نخو الثاني الى الفرات، وحارب البابليين ثلاث سنوات متواصلة، مستعيناً بما كانت سوريا تقدمه له من مساعدات، اذ كانت تخضع لحكمه. لكن الاشوريين هزموا في هذه الحرب. وفي عام ٦٠٥ق.م. ألحق البابليون بقيادة نبوخذنصر الثاني، ابن نبوبولصر، الهزيمة بالجيش المصري عند مدينة كركميش. وفي عام ٦٠٤ق.م. بسط البابليون

سيطرتهم على الجزء الاكبر من سوريا وفلسطين. وفي سنة ٦٠١ ق.م. نظموا حملة باتجاه الحدود المصرية، لكن المعركة لم تحسم لصالح أي من الطرفين المتحاربين.

في عام ٥٩٧ ق.م. جهز نبوخذنصر حملة باتجاه القدس. وبعد حصار طويل فتحها وسبى الآلاف من سكانها الى بابل، ونصب عليها ملكاً جديداً اختاره بنفسه. وبذلك اصبحت سوريا وفلسطين تحت سيطرة البابليين. وفي سنة ٥٩٥ ق.م. حدث تمرد في بابل، لكن نبوخذ نصر استطاع ان يسيطر على الموقف وقبض على قادة التمرد قبل ان يستفحل ويتسع.

بعد وفاة نبوخذ نصر في سن ٥٩٧ ق.م بدأ الصراع بين المجموعات الأثنية الرئيسية في بابل: بين الكلدانيين والآراميين الشماليين. وخلال خمس سنوات تعاقب على الحكم ثلاثة ملوك: أميل مردوخ، ونرجال شر اوصر (أو نرجلصر) ولباشي مردوخ. وفي أيار من سنة ٥٥٦ استولى الآرامي نبونيد على الحكم. وقد سعى القائد الجديد الى توحيد القبائل الآرامية في آسيا من أجل تشكيل دولة موحدة قادرة علي صد الخطر القادم من جهة بلاد فارس. لهذا السبب اعار نبونيد اهتمامه بالاله سين، فاعاد بناء معابده وبنى معابد جديدة في بلاد بابل وخارجها، وخاصة في حران. وبالرغم من كونه من اتباع الالهة البابلية التقليدية، مثل مردوخ ونيرجال، إلا انه فضل عبادة الإله سن، مما أثار استياء الكهنة وسكان المدن القديمة: بابل، بارسيبا، نيبور، لارسا، اوروك، وأور. لكن معارضيه كانوا مشتتين، وكان كل معبد يحاول ان يقدم الهته في المقام الأول. وحين لم يجد الدعم والتأييد اللازمين في بابل سعى الى تعزيز الاجزاء الغربية من البلاد. انشغل نبونيد لأكثر من عشر سنوات يحارب في اقليم تيماء في شبه الجزيرة العربية، تاركاً الحكم في بلاد الرافدين لنائبه –ابنه بيل شاصر. واذا كانت الدولة البابلية الحديثة في بداية عهد نبونيد قد شملت بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين وبلاد الميديين فان المقاطعة الاخيرة اصبحت سنة ٥٤٦ ق.م. تحت سيطرة الفرس. في تلك الفترة وضعت مصر وبابل خلافاتهما جانباً، خوفاً من الحروب القادمة مع بلاد فارس.

في شهر آب من عام ٥٣٩ ق.م. انهزم الجيش البابلي امام القوات الغازية بالقرب من مدينة اوبيس الواقعة على نهر دجلة. وفي يوم ١٠ تشرين الأول استطاعت قوات غوبري، قائد الملك كورش ان تحتل مدينة سيبار بدون قتال، وبعد يومين سقطت مدينة بابل. اعلن كورش ان قواته دخلت بابل بدون قتال وحررت اهلها من ظلم نبونيد، الذي وجه اليه تهمة الاستهجان بآلهة البلاد وازدرائه لها. أعاد كورش تماثيل الآلهة التي سبق ان رفعها

نبونيد من المدن البابلية وأعادها الى معابدها الأصلية، وسمح للشعوب التي أجبرت على البقاء في بلاد الرافدين بالعودة الى اوطانها الاصلية. انتهج الفرس تجاه السكان الاصليين وديانتهم سياسة مخالفة كلياً للسياسة التي كان يتبعها البابليون والآشوريون، وساعدهم ذلك كثيراً على بسط نفوذهم على البلدان الواقعة الى الغرب من بلاد الرافدين.

بعد سيطرته على بابل أبقى كورش شكلياً على المملكة البابلية، ولم يجر أي تغيير جوهري في البنية الاجتماعية للبلاد. أصبحت بابل مقراً من مقرات المملكة الاخمينية. ولم تشهد الحياة الاقتصادية تغيرات جوهرية تذكر. وبالرغم من سيطرة الفرس الا ان معظم وربما جميع الشخصيات المهمة في الجهاز الاداري حافظت على مواقعها السابقة، لقد سعى كورش الى تهيئة ظروف طبيعية للحياة الاقتصادية، وتطوير تجارة التصدير والاستيراد، والمحافظة على الوسائل التقليدية لادارة البلاد. أضف الى ذلك ان حكم كورش لم يعتبر سيطرة اجنبية لانه استلم السلطة شكلياً من يد مردوخ، وفق المراسيم المقدسة. ومع ذلك فقد تحولت بلاد بابل من دولة مستقلة الى ولاية تابعة للدولة الاخمينية وفقدت استقلالها في السياسة الخارجية، في حين اصبحت السلطة العسكرية والادارية العليا بيد نائب الحاكم الفارسي[1].

لم يحدث اي تغيير في سياسة الفرس تجاه البابليين خلال حكم قمبيز. في عام ٥٢٢ق.م وعندما كان قمبيز في مصر استولى اخوه باردا على الحكم في ايران. وسرعان ماتم الاعتراف به كملك لبابل ولسائر البلدان الاخرى. في شهر ايلول من تلك السنة استولى داريوس الاول على الحكم بعد ان قتل باردا. وفي هذا الوقت حدثت انتفاضة في بابل بزعامة نبوخذ نصر الثالث، استطاع داريوس ان يقمع الانتفاضة في شهر تشرين الاول. وحين كان داريوس الاول منشغلاً في تهدئة الشعوب الاخرى اشتعلت في بابل انتفاضة اخرى في شهر اب ٥٢١ ق.م بقيادة نبوخذ نصر الرابع. لكنها قمعت ايضاً في نهاية تشرين الثاني. وللحد من النزعات الانفصالية أقدم داريوس الاول على اصلاحات ادارية ومالية مهمة، سمحت بتكوين نظام متين لادارة شؤون الدولة ومراقبة البلدان المستعمرة ونظام لجبي الضرائب، ووسع ملاك العسكريين. ويبدو ان هذه الاصلاحات

(١) ان رأي دندماييف مستمد هنا من نصوص تعبر عن وجهة نظر المنتصرين الفرس، وتنطوي على تشويه واضح لحكم نابونيد آخر ملوك بابل. ومما يدعو للاعتقاد بكذب دعوى الحكام المحتلين ان بابل ثارت غير مرة بعد هذا الاحتلال، وإن كان مصير هذه الثورات الفشل - ث.ج.

انطلقت سنة ٥١٨ق.م. واستمرت عدة سنوات. وقد نتج عنها قيام نظام اداري جديد في بابل والبلدان المستعمرة الاخرى. ولم تطرأ على هذا النظام اية تغييرات جوهرية حتى نهاية حكم الاخمينيين.

بعد احتلال بابل اختار كورش نائباً له على هذه البلاد وهو البابلي نابي اخو بوليت، الذي كان يشغل هذا المنصب في عهد نبونيد. لكنه قام بعد مرور اربع سنوات (سنة ٥٣٤ق.م) بتشكيل ولاية واحدة ضمت بلاد الرافدين وبلاد ما وراء النهر (ebir-nari)، اي البلدان الواقعة الى الغرب من نهر الفرات –فينيقيا وسوريا وفلسطين. واختار الفارسي غوبار وحاكما على هذه الولاية، وظل يشغل هذا المنصب اكثر من عشر سنوات. وفي سنة ٥٢٠ق.م. اختار الفارسي اوشتانو حاكما للولاية، ولكن سرعان ما قسمت فيما بعد الى ولايتين، فنصب اوشتانو حاكما على بلاد الرافدين، والفارسي تتاني والياً على بلاد ما وراء النهر. وكان الحاكم تتاني من الناحية الادارية خاضعاً لحاكم بلاد الرافدين.

كانت المهام الادارية والعسكرية في عهد كورش وقمبيز مركزة في يد شخص واحد هو حاكم الولاية – المرزبان ـــsatrap ـــ وتشير الى ذلك، على الخصوص، الوثائق المتعلقة بنشاط المرزبان جوبارو في بابل وبلاد ما وراء النهر، حيث كان يجمع بين نائب الحاكم المدني والعسكري. قام داريوس بتقليص سلطات المرزبان وذلك بفصله بين مهام المرزبان ومهام السلطات العسكرية. اصبح المرزبان في بابل وفي البلدان التابعة الاخرى موظفاً مدنياً يحتل قمة الإدارة ويشرف على تطبيق النظام القضائي والحياة الاقتصادية للبلاد، ويتابع جباية الضرائب. بعد اصلاحات داريوس اخذ الفرس يتبوءون المراكز الحساسة في جهاز الدولة وتركزت في ايديهم أهم المراكز المدنية والعسكرية. وأخذوا يعينون كقضاة في مؤسسات المقاطعات البابلية.

خلال عهد احشويرش عرفت بابل تغيرات سياسية مهمة، وخاصة بعد سنة ٤٨٢ق.م ـــ حين انتفض البابليون بقيادة بيل شيماني في المرة الاولى وبقيادة شمش ريبا في المرة الثانية. لقد هدمت بابل عن آخرها وهدم معها معبدها الرئيسي إيساجيلا أما تمثال الإله الأعلى مردوخ فقد نقل الى بلاد فارس. واختتمت هذه الاجراءات بإلغاء المملكة البابلية، التي ظلت قائمة حتى ذلك الوقت ويحكمها ملك الفرس. كان الملك الاخميني حتى ذلك العهد يحمل لقب ملك بابل، ملك البلاد. ثم اقتصر اللقب بعد احشويرش على ملك البلاد. وتميز التاريخ اللاحق للدولة الاخمينية بكثرة الاضطرابات وعدم الاستقرار في مختلف الولايات، وكثرة الانقلابات في القصور. كل ذلك ادى الى اضعاف الحكم

المركزي للدولة. في عام ٣٣١ ق.م. دخلت قوات الاسكندر المقدوني الى بابل.

قبل الانتقال الى التاريخ الاجتماعي ـــ الاقتصادي لا بد من الاشارة الى مايلي: ساد في الوسط العلمي خلال القرن التاسع عشر رأي مفاده ان الشرق منذ تفكك النظام المشاعي البدائي وحتى العصر الحديث تميز بنوع خاص من التطور، او بالاحرى طغى عليه طابع المحافظة والركود. المالك الأعلى للأرض هو الملك. أما الذين يزرعون الارض فهم في احسن الاحوال من الملاكين. لم يطرأ أي تطور في التكنيك والتجارة، كما لم تحصل اية تغيرات جوهرية في البنية الاجتما-اقتصادية للمجتمع ورافق كل ذلك تلك السمة المميزة التي لم تتغير: الاستبداد. ليس من الصعب ان نجد تفسيراً لهذا الرأي. كانت دراسة الشرق القديم في بداياتها، ولم تكن في حوزة العلماء الكثير من المعلومات. ولكن بحكم العادة اتضح انه ما يزال لهذه الاراء الخاطئة تأثيرها الكبير في العالم الغربي وفي وسطنا العلمي ايضاً. فلو نحينا جانبا خصوصية تطور الرأسمالية وما يميزها من هزات لقاعدة الانتاج وتجديدها، فلا أظن ان باستطاعة احد ان يحدد اية سمات جوهرية اخرى يمكن ان تميز الشرق عن دول غرب اوربا ما قبل الراسمالية. لم يكن في الشرق لا استبداد بدائي ولا استبداد ثابت، وأشك بوجود أية صفات عامة من شأنها كما يزعمون، ان تميز بلدان الشرق القديم ـــ من مصر وحتى الصين ـــ عن الدول القديمة في اوربا. لقد قطعت بلدان الشرق طريقاً طويلة من التطور الاقتصادي، والتقني، والسياسي والروحي. لنأخذ على سبيل المثال ما حصل في حدود دولة واحدة، ولنقل سومر: ان سومر في الالف الثالث ق.م. تختلف كثيراً عن بابل في الالف الاول ق.م. بحيث تقودك هذه المقارنة بشكل عفوي الى التساؤل: أحقا لم يتغير النظام الاجتماعي والقاعدة الاقتصادية في بلاد الرافدين بشكل جذري خلال ألفي عام ؟ لقد عرفت البلاد تغيرات كبيرة وهامة جداً، مقارنة بالعهد البابلي القديم. ومست هذه التغيرات الأنظمة الاجتماعية واللغة والعادات ونمط الحياة، وحتى صيغ الوثائق والنصوص.

وعلينا ان نأخذ بنظر الاعتبار ان الفترة التي نحن بصددها ـــ بين القرنين السابع والرابع ق.م. ـــ شهدت هي الاخرى تغيرات كبيرة. لقد كان المجتمع البابلي في القرن السادس يختلف بوضوح عن مجتمع القرن الذي سبقه، وتميز القرن الخامس بتغيرات جذرية في القوانين المتعلقة بالارض. لذلك لا يمكن النظر الى المرحلة التي ندرسها كوحدة لا تتجزأ، وعبارة «القانون البابلي الحديث» التي تستعمل للتعبير عن الفترة الزمنية المحصورة بين القرنين السابع والأول ق.م هو تعبير شكلي. ويمكن قول الشيء

نفسه عن تعبير «القانون البابلي القديم». ويقسم سان نيقول هذه الفترة، حسب الوثائق المتوفرة ، الى مرحلتين: المرحلة الأولى التي تمتد من القرن الثامن وحتى نهاية عهد داريوس الاول. والمرحلة اللاحقة تشمل الفترة المتبقية.

الفئات الاجتماعية: تبقى البنية الفئوية ــ الطبقية للمجتمع البابلي في الألف الاول ق.م. بعيدة عن الدراسة التفصيلية. يتألف المجتمع من فئة الاحرار الذين يتمتعون بكامل الحقوق «مواطن كامل الحقوق ــ mar boni»، ومن العبيد ومجموعات مختلفة من المواطنين التابعين او مواطنين شبه احرار. يعتبر الاحرار الذين يتمتعون بكامل الحقوق اعضاء في الجمعيات الوطنية، او مجالس الشورى – puhru– التي كانت تتمتع بسلطة قضائية محدودة تسمح لها بالبت في القضايا العائلية والقضايا المتعلقة بالملكية. ولكن من غير الواضح حتى الآن ان كان جميع الاحرار يتمتعون بكامل الحقوق (على سبيل المثال المستوطنون الأجانب) وهل كان يسمح بالانتقال من فئة اجتماعية الى اخرى؟

يبدو ان الامتيازات التي كان يتمتع بها سكان المدن الكبيرة، والتي حصلوا عليها في العهد الكاشي ــ على سبيل المثال الاعفاء من الضرائب ــ قد الغيت منذ عهد الملوك الكلدانيين ، بالرغم من ان المواطنين حافظوا على تاثيرهم الكبير في مراكز الادارة المحلية. من المعروف ان نبونيد قد أعفى معبد اجيشنوجال في أور من الضرائب ومنحه امتيازات معينة وذلك بمناسبة زيارة ابنته لهذا المعبد. لكن هذا القرار لم يشمل جميع سكان أور، بل اقتصر على فئة صغيرة من موظفي وكهنة المعبد.

تتضمن بعض الوثائق تلميحات عن اضطرابات اجتماعية عرفتها البلاد في مناطق مختلفة. يتحدث نص أدبي يعود الى زمن نبوخذ نصر الثاني عن صدور قوانين جديدة، وهناك تأكيد على ان «الناس أكلوا بعضهم مثل الكلاب، القوي ينهب الضعيف»، والقضاة ياخذون الرشوة ولا يدافعون عن الفقراء، والولاة يعتدون على المعاقين والأرامل، والمرابون يأخذون فوائد مرتفعة جداً. وهاجم الكثيرون البيوت واستولوا على المزارع. وورد في احد نقوش نبونيد ان «الناس في بابل، بورسيبا، نيبور، أور، ولارسيا وفي مدن اخرى افترسوا بعضهم البعض مثل الكلاب». ونقرأ اخيراً في احد النقوش ان داريوس يعلن بان الفوضى قد عمت البلاد، وقد قتل الناس بعضهم البعض ، واستطاع ان يعيد الهدوء، بعد ان وضع كل فرد في مكانه، الاغنياء والفقراء على حد سواء.

مازلنا نجهل تفاصيل هذه الاحداث. يمكن مثلاً ان يكون نبوخذ نصر يشير الى التمرد الذي وقع في بداية حكمه، وحديث نبونيد عن احتجاج سكان المدن على سياسته، الذين

لم يشكلوا جبهة معارضة واحدة بل انشغلوا في صراع داخلي. اما داريوس فربما يتحدث عن الانتفاضات التي عمت البلاد عند استلامه الحكم.

القوانين: لم تعرف الحقوق الشخصية في بابل خلال العهد الاخميني اية تغيرات مهمة، بالرغم من أن الكثير من المؤسسات العمومية تعرضت الى التأثير الايراني. لكن التحولات الاقتصادية والتغيرات في ادارة الدولة التي حصلت في نهاية حكم داريوس الاول ادت الى حدوث بعض التغيرات في مجال القانون.

كانت السلطة القضائية من اختصاص المحاكم الملكية ومجالس الشورى المشكّلة من ذوي الحقوق الكاملة وإدارة المعابد.

الملك هو المرجع القضائي الأعلى ـــ على الأقل منذ العهد البابلي الحديث ـــ وهو الحاكم، كممثل للملك في العهد الاخميني. أما التنافس بين المحاكم الملكية ومجالس الشورى ـــ بدأ منذ عهد الملوك الكلدانيين واستمر لقرون عديدة ـــ فقد انتهى بهزيمة مجالس الشورى، التي تقلصت صلاحياتها وأصبحت دائرة اختصاصها مقتصرة على النظر في الخلافات المتعلقة بالملكية وبعض الجرائم ذات الطابع المحلي. وحتى عندما كان المجلس ينظر في قضية ما فإن المحاكمة تدار من قبل كبار موظفي المعبد. وهناك المحاكم التابعة للمعابد التي كانت تنظر في القضايا المدنية والجنائية، ومن ضمنها القضايا التي لا علاقة لها بالمعبد بشكل مباشر. لكن الأحكام الصادرة عن هذه المحاكم كانت تخضع للاستئناف في المحاكم الملكية. وفي حالات غير قليلة كانت السلطة القضائية للمعبد تشمل دائرة أوسع من موظفي المعبد. وكانت محاكم المعابد تخضع للمحكمة الملكية، وخاصة في القضايا المهمة، حيث تستلم منها التعليمات الضرورية، وعليها ـــ محاكم المعابد ـــ أن تزود المحكمة الملكية بكل المعلومات الضرورية. كانت المحاكم الملكية تنظر في القضايا المهمة، وخاصة في جرائم القتل، ناهيك عن القضايا المتعلقة بالتمرد والعصيان والمؤامرات. وتتشكل المحكمة الملكية من خمسة أو ستة أشخاص. كان رئيس المحكمة الملكية في مدينة سيبار هو الكاهن الأعلى في معبد ايببار، وكان يتمتع بصلاحيات قضائية واسعة. كانت المحاكم تنظر في القضايا المتعلقة ببيع الدور السكنية وملكية الأرض بحضور موظفي المعابد. ونجد في الوثائق الشخصية عن البيع والشراء والايجار، التي تعود إلى القرن الخامس ق.م.، أن المحاكم كانت تنظر في هذه القضايا بحضور حكام ملكيين.

يبدو أن القانون البابلي الحديث كان يلزم المتعاملين بتدوين صفقاتهم تحريرياً.

وكانت العقود تنظم من قبل كتبة محترفين وبحضور شهود عادة ما يتراوح عددهم بين ثلاثة وعشرة أو حتى أكثر. ويكون العقد بنسختين وفق صيغ محددة، فيتسلم كل طرف نسخته. وبدءاً من العهد البابلي الحديث، يُذكر في العقود أن الطرفين اتفقا طواعية (ina hud libbisu). وخلافاً للصيغة الوحيدة التي كانت سائدة في العهد البابلي القديم، ظهرت في العهد البابلي الحديث عدة صيغ مختلفة، بضمنها وثائق بصيغ الحوار انتشرت على نحو واسع خاصة في القرن الخامس. وكانت وثائق بيع الأملاك المنقولة (الماشية، المراكب، العبيد) تختلف بصيغتها عن وثائق بيع الأملاك الثابتة، مثل الدور والأرض. ويتضمن العقد مكان وتاريخ توقيعه والغرامة المترتبة على الإخلال بشروطه. ثم يختم بأختام المتعاقدين والشهود.

القانون المدني: يختلف قانون الزواج في الألف الأول جوهرياً عما كان عليه في العهد القديم. فقد تغير الموقف من الزواج على وجه الخصوص. فلم يعد الرجل يستطيع شراء الزوجة على غرار ما سبق. وأصبحت المرأة تتمتع باستقلالية كبيرة، فبإمكانها أن تملك وتتصرف بما تملك حسبما شاءت (بيع، استبدال، إيجار. . . الخ). وحسب القانون تنال الزوجة عند وفاة الزوج حصة من تركته، حتى وإن لم يكن لها أولاد. لكن شهادة المرأة لم تكن مقبولة في العقود. وفي الحالات التي يدور فيها الحديث عن نقل ملكية المرأة على يد الزوج أو الابن أو أحد الأقرباء، فإنها في الغالب تحضر عند الاتفاق على الصفقة. إلا أن المرأة كان يحق لها أن تكون طرفاً في العقود الموقعة. ويبدو أن النساء كانت لهن أختامهن في القرنين الخامس والرابع ق.م. (كانت لنساء اليهود أختامهن منذ القرن السادس ق.م.) أما تعيين النساء في المناصب الهامة فكان نادراً جداً. وظلت الأسرة البابلية بزوجة واحدة، على غرار ما كانت عليه في العهد البابلي القديم. أما إذا شاء الزوج اتخاذ زوجة ثانية فإنه ملزم بدفع غرامة كبيرة جداً للزوجة الأولى حتى وإن لم تنجب له أولاداً

ترجمة: د. عدنان عاكف

عن كتاب «العبودية في بابل»

(التتمة في العدد القادم)

جامعة بغداد.. واجباتها واهدافها

د. عبد الجابر عبد الله

نشرت هذه المقالة في مطلع الستينات (اي بعد حوالي سنتين من تاسيس الجامعة التي عُهدت رئاستها الى عالمنا الراحل) وتليت في الندوة التي اقامتها رابطة الاكاديميين العراقيين، في لندن بتاريخ ٢٩ حزيران حول التعليم العالي والبحث العلمي في العراق، مع الاشارة الى احتفاظ افكار د.عبد الجبار باهميتها في عراق اليوم وذلك باستثناء التفاؤل الواضح فيها حول آفاق الجمهورية الوليدة بغياب الديمقراطية السياسية، وهو تفاؤل ساد اليسار داخل العراق وخارجه.

الواجب الأول للجامعة تدريس مختلف المهن التي تحتاج جمهوريتنا اليها، واعداد المهنيين القادرين على القيام بالاعمال الاعتيادية التي تتطلبها الحياة في بلد متمدن راق، ولا بد ان يستهدف هذا التدريس اعداد الخبراء القادرين على الابداع ضمن اختصاصات المهن المختلفة، بالاضافة الى تسيير الاعمال الاعتيادية. فالعراق اليوم في فترة انتقال يتحول خلالها من بلد بدائي كثرت ثرواته الطبيعية وقل استغلالها، الى بلد متقدم راق يتطلع الى وضع تلك الثروات في خدمة الشعب لترفع مستوى معيشته ولينعم بالرغد والرفاء. وللقيام بهذا الواجب تعمل الجامعة على ان تحور مناهجها التعليمية وتقدمها حتى تكون في مصاف المناهج اللائقة بالتعليم الجامعي، وان تقوم بتهيئة الوسائل

اللازمة للقيام بالتدريس قياماً متقناً وعميقاً وتتلخص هذه الوسائل بتوفير المختبرات التعليمية واستكمال اجهزتها وادواتها واستكمال المكتبة وتزويدها باهم المراجع والنشرات والمجلات، وتهيئة قاعات الدراسة والمطالعة، وتوفير العدد اللازم من المدرسين المتخصصين.

والواجب الثاني: تربية الشباب تربية صحيحة تهيؤهم لان يكونوا مواطنين صالحين في الجمهورية العراقية. والمواطن الصالح في نظرنا من كان متمتعاً بالصحة السليمة، جسمية كانت ام عقلية، ومن كان ناضجاً في ثقافته الاجتماعية، واعياً لمطاليب العصر المتطور، ومن كان واقفاً على ميول جمهوريته ونزعاتها متفهماً اهدافها مؤمناً بواجباته الوطنية تجاهها، قادراً على الاضافة الى فلسفتها ما من شأنه ان يؤدي الى تقدمها وتطويرها، متمكناً من التفكير الايجابي في القضايا التي تعرض له، مستعداً لتنفيذ ما يعهد اليه من الاعمال بروح متقبلة منطلقة، وايمان بصحتها ووجاهتها، مروضاً نفسه على حب النظام والتقيد بالحميد من العادات الاجتماعية والسلوك المتزن المقبول. وللنهوض بهذا الواجب تعمل الجامعة على ان تهيء ما يلزم لذلك في محيطها وفي مناهج اعمالها ونظم حياة اسرتها، وان تجعل من ذاتها مجتمعاً علمياً تتحقق فيه الاهداف السامية لكي يحيا الطالب داخلها فيمارس الصفات المنشودة ممارسة كافية تمتزج في طباعه امتزاجاً حتى اذا ما ترك الجامعة وامتزج بالمحيط الخارجي كان عاملاً من عوامل رفع ذلك المحيط الخارجي الى مستوى الحياة التي الفها داخل الجامعة. وتستعين الجامعة على تأدية هذا الواجب بإنشاء الاقسام الداخلية الكافية، المجهزة باحدث السبل التي تساعد على حياة فردية راقية وحياة اجتماعية متقدمة، وبانشاء القاعات الصالحة لممارسة سائر الفنون الجميلة لكي تربي في الطالب الذوق السليم والميل الى الاستمتاع المفيد ويعتاد الطريقة المجدية لقضاء اوقات الفراغ واشباع رغبة الانسجام والتآلف الطبيعي. وبانشاء الوسائل الضرورية لممارسة الالعاب الرياضية بمختلف انواعها على ان يفرض على الطالب الاشتراك بتلك الالعاب بصفتها جزءاً ضرورياً من ثقافته الجامعية. وان تنظم الجامعة المحاضرات التثقيفية العامة وتحسّن للطلاب حضورها والمشاركة في مناقشتها وان تنظم الحلقات الجدلية، والجمعيات العلمية، وتحبب للطلاب المساهمة فيها، على ان تعودهم على اصول الجدل العلمي والالتزام بقيوده وشروطه، وان تنظم السفرات القصيرة والطويلة الامد، داخل البلاد وخارجها، فتعود الطالب على الحياة الكشافية وتربي فيه روح الاعتماد على النفس والثقة بها. وفوق كل ذلك تعنى الجامعة

بتنظيم الطلاب ضمن اتحاد الطلبة العام وتشارك في ارشادهم ومعاونتهم وتقترح عليهم بعض اوجه نشاطهم وتشجع صحافتهم ونشراتهم، حتى تنضوي معظم اوجه النشاط الجامعي الطلابي تحت لواء اتحادهم. ومجمل القول في هذا الواجب الثاني اي واجب التربية، انه ينتظم كافة اوجه الحياة التي لا تتناولها المناهج الدراسية.

أما الواجب الثالث للجامعة فهو واجب البحث العلمي. وهنا لا بد لنا ان نقرر ان الكثير من جامعات العالم الراقية تسلم بان البحث العلمي هو واجبها الرئيس، وتعتبر التدريس واجباً ثانوياً يتأتى عرضاً اثناء القيام بهذا الواجب.

وهذا هو الفارق الاساسي بين الجامعة، وبين مجموعة من الكليات والمعاهد، فالمفروض في الكليات والمعاهد المهنية ان تتخصص بالتدريس وتتفرغ له، اما ما يقوم به بعض اعضاء الهيئة التدريسية من بحوث فانما يتأتى عرضاً وربما كان مردها الى رغبة فردية تنشأ في الباحث نفسه. ومن هنا نشأ السبب في ان بعض الدول قد اخذت عزل المعاهد والكليات المهنية من الجامعات، وقصرت الجامعات عندها على الكليات المتفرغة للعلوم الحرة، التي تؤهل الطالب للبحث العلمي.

والبحوث العلمية عموماً على نوعين، بحوث اساسية وبحوث تطبيقية.

فاما البحوث الاساسية فهي التي يتوخى منها الاضافة الى معلوماتنا العلمية البحتة. وتحصل بتطوير النظريات القائمة وتقديمها وابتداع نظريات جديدة، واستخلاص النتائج الجديدة من النظريات القائمة. والجامعة هي الموطن الاول لهذا النوع من البحوث، فالعلاقة واضحة بين تعليم النظريات وبين ابتداعها. غير ان ما نسميه (بالحقائق العلمية) ليست حقائق ثابتة مطلقة قد بلغت صفة الكمال النهائي. بل الصفة الغالبة عليها كونها حقائق نسبية معرضة للتغيير والتبديل. ولذلك كان لزاماً على الجامعة ان تفحص هذه (الحقائق) وتعرضها الى التجارب الدقيقة ثم تحاول اصلاحها حينما يتضح الخطأ فيها، ونبذها متى بان فيها الانحراف عن مستدلات التجارب العلمية.

وربما كان هذا سبباً في ان الكثير من الجامعات قد جعلت شعارها «البحث عن الحقائق وفحصها والدعوة اليها وتلقينها».

واما البحوث التطبيقية فالغرض الاول منها اخذ النظريات العلمية القائمة واعتبارها حقائق نسبية مفيدة، ومحاولة وضعها في صيغ البحوث التطبيقية انما تنبثق عن المتطلبات الفاشلة في المجتمع. وكثيراً ما يحصل ان ترصد الظاهرة وتنشأ الحاجة الى الاستفادة منها قبل ان يهتدي البحث الاساس الى حل معضلتها والتوصل الى نظرية

مقبولة بشانها. ولذلك كان من واجب البحث التطبيقي ان يفتش عن فرضية تجريبية تخضع الظاهرة لها، ثم يستغل تلك الفرضية ويصف طرق الاستفادة منها ريثما يهتدي القائمون على البحث الاساس الى حل الغازها كما انه كثيراً ما يحصل ان يأخذ الباحث التطبيقي نظرية قد اعتبرت كانها نظرية صالحة، ثم يضعها حيز التنفيذ العلمي فيبان له خطأها وعدم صلاحها، عند ذلك ينبه الى مواطن الضعف فيها. ومن هذا نرى ان للبحوث الطبيقية ثلاث غايات رئيسية هي:

١- دراسة حاجات البلد ومشاكله القائمة وتشخيصها ووصف افضل الطرق العلمية لتأمينها في ضوء النظريات العلمية المعروفة.
٢- دراسة النظريات القائمة وتفهمها وفحصها والتأكد من مطابقتها للنتائج التجريبية، فمتى تبين فيها شيء من الخطأ نبه اليه واقترح حذفها او تبديلها او تحويرها.
٣- دراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية وفحصها ومحاولة اشتقاق القواعد التجريبية التي تخضع لها، ثم ربطها بالحياة العامة بغية الاستفادة منها.

ومن الجدير بالذكر ان البحث العلمي امر واحد لا حدود فاصلة بين نوعيه، فالبحث الاساس ينبغي له ان يتفهم الباحث التطبيقي ويبين نظرياته في ضوء نتائجه، كما ينبغي للباحث التطبيقي ان يستوعب نظريات الباحث الاساس ويتفهمها. وكثيراً ما يمارس الباحث الواحد للنوعين من البحث في آن واحد. والى جانب النوعين المذكورين من انواع البحث العلمي، لا بد من وجود حلقة الوصل بين المفكر والعامل. وحلقة الوصل هذه هي التكنولوجي. فالباحث التطبيقي ياخذ النظريات من الباحث الاساس ويصف الطرق لاستغلالها والاستفادة منها في الحياة الاعتيادية ثم يعطيها الى الاخصائي في التكنولوجيا لكي يبين له الآلية التي تعمل بموجبها، او الجهاز الذي ينفذ تصاميم الباحث، وعند انعدام الاخصائي بالتكنولوجيا تبقى دراسات الباحث مجرد خطط مرسومة على الورق.

اما ما يلزم توفره للنهوض بالبحث العلمي فيلخص بما يأتي:

١- توفر العلماء المجربين الذين مارسوا البحث واعتادوا على طرقه وتطبعوا بطباعه. فالعالم كالعامل لا يأتيه العلم بطريقة الوحي والتجرد، بل يتعلمه ويعتاد عليه ويمارسه ويزداد رسوخاً به كلما ازداد ممارسة له.
٢- توفر المختبرات والاجهزة اللازمة للقيام بالبحث. ومختبرات البحث تختلف عن مختبرات التعليم، واجهزته ليست اجهزة التعليم، بل انها تتطلب الكثير مما لا تتطلبه

اجهزة الدراسة.

٣- توفر مراجع البحث في المكتبة وتداول المنشورات والمجلات التي تنقل نتائج ما توصل اليه العلماء في مختلف البلدان الاخرى الى العالم المحلي بحيث يكون على اتصال دائم بالتيارات الفكرية العالمية يتأثر بها ويؤثر فيها. فالعلم بطبيعته مظهر اممي شامل، والعالم الذي يعزل نفسه في برج عاجي لا يلبث ان يقضي على مواهبه ويقبر نفسه في برجه هذا.

٤- توفر الجو العلمي الذي يساعد على البحث والانتاج ويشجعه ويحث العالم على شحذ مواهبه.

واما ما تستهدفه الجامعة للنهوض بهذا الواجب الرئيس فيتلخص فيما يأتي:

١- تهيئة العلماء بارسال البعوث الى الجامعات الخارجية للتدريب على البحث والممارسة واستقدام العلماء الاجانب ممن تضلعوا فيه، وتيسير العمل لهم في داخلها، وتدريب الموهوبين من شبابنا، طلاباً كانوا ام مدرسين.

٢- اقامة مختبرات البحوث والعمل على استكمال نواقصها واضافة ما تحتاج اليها.

٣- التأكيد على ضرورة انشاء مكتبة لائقة بالبحث والاشتراك بالمجلات العلمية المهمة والاتصال بمؤسسات البحث الخارجية وتبادل النشرات معها. وتشجيع النشر داخل الجامعة لنقل ما يتوصل اليه علماؤها الى الخارج وتشجيع النقد العلمي النزيه للتاكد من قيمة ما قد ينشر في الداخل والخارج.

٤- اقامة المؤتمرات العلمية والحلقات الدراسية لمناقشة الانتاج الجديد وتمحيصه ومبادلة الرأي في المشاكل القائمة.

٥- تشجيع الاشتراك في المؤتمرات العلمية الخارجية وارسال الوفود اليها وتلخيص اهم ما يعرض فيها ونشره بين اسرة الجامعة.

٦- منح الجوائز للباحثين المتفوقين والترفيه عنهم والاعتراف بقيمة مجهوداتهم.

وفوق كل ذلك لا بد من رسم الخطط العامة للبحوث العلمية. بحيث تنظم في مشاريع علمية تؤلف وحدات قائمة بذاتها، ويعمل في كل مشروع نخبة من الاساتذة والطلاب على شكل فرقة متضامنة واحدة يساعد كل منهم الاخر ويشارك في ارشاده. ولهذا فان الجامعة جادة في تأسيس مجلس علمي أعلى يقوم على وضع تلك الخطط وتحديد واجبات المشاريع واعمالها. ولا بد من الاعتراف بالبحث العلمي كعمل مستقل يتطلب الانصراف عن سائر الواجبات الاخرى. فمن اهم ما يتطلبه الباحث ان يتوفر له الوقت وان

لا يقطع عليه سلسلة افكاره واجبات جانبيه يضطر الى القيام بها لتطمين قوته اليومي.

والبحوث العلمية لا تزدهر وتتركز الا اذا نشات في الجامعة دراسات عالية تجعل تلك البحوث من شروط الشهادة التي تمنحها وتفرضها فرضاً وتعنى بنتائجها. ولهذا فان الجامعة جادة في البدء بتنفيذ مشروعها بفتح دراسة الماجستير في الاقسام التي تتأكد من صلاحها لمثل هذه الدراسات.

ان جامعة بغداد، كما اسلفنا، ما تزال طفلة لم يمض على ولادتها الحقيقية اكثر من سنتين، والاهداف جسام لا يسهل تحقيقها بمجرد الرغبة وحسن النية. ولا بد من الانتظار مدة قد تطول قبل ان تُبلغ تلك الاهداف النبيلة. ولكن هذا لا يمنعنا من ان نسير على الطريق القويم المؤدي الى بلوغها وان نزود انفسنا بما تتطلب اليه من متاع. ومتى يتاكد لنا ذلك نستطيع ان نطمئن الى اننا واصلون الى تلك الاهداف عاجلاً أو آجلاً. ومتى تستكمل الجامعة نواقصها وتبلغ سن الرشد تتقدم في توجيه هذا البلد نحو المدنية العلمية السعيدة.

واخيراً لا بد من التاكيد على ان الاستقرار من اهم ما تتطلبه الجامعة للقيام بواجباتها. ولا يتأتى الاستقرار الا بالاستقلال. واذن فلا بد من ضمان استقلال الجامعة لتكون بعيدة عما قد يستجد من الاهواء والنزعات. ان احكام العلم كثيراً ما تكون قاسية وكثيراً تقابل لأول وهلة بالاشمئزاز والاستهجان. فاذا تعرض العلماء الى شيء من الضغط او الاذى وجدوا انفسهم في جو لا يشجعهم على التصريح بما يتوصلون اليه من النتائج، وضاعت الفائدة منهم وتحولوا الى اتباع بعدان كانوا قادرين مرشدين. واذن فالشرط الاساس لممارسة الحرية الفكرية هو الشعور بالحصانة القانونية واستمداد القوة والصلابة من ذلك الشعور. ونحن اليوم في الجمهورية العراقية، ننعم بالانسجام التام بين اهداف جمهوريتنا الشعبية وبين اهداف العلم والحرية الفكرية ولذلك فأننا لنعتقد مخلصين بأننا قادرون على تحقيق اهداف الجمهورية وتطويرها وتقديمها عن طريق ممارستنا استقلالنا وضمان الحصانة لاعضاء اسرتنا. ومن اجل ذلك فالجامعة جادة في ان تتقدم بطلب سن قانون جديد يحقق لها هذا المطلب الاساس.

«اصول الصابئة (المندائيين) ومعتقداتهم الدينية»

عرض: ثائر صالح

عن دار المدى، صدر هذا الكتاب الذي يطمح الى عرض مختلف الفرضيات التي وضعها الباحثون حول اصل الصابئة (المندائيين). وقد تصدى مؤلفه الباحث العراقي المعروف عزيز سباهي لمهمة ضخمة، وهي نقل النقاش العلمي حول هذه الطائفة من اوربا والغرب الى منطقتنا، كما وضع تساؤلاً بعد الآخر حول مستقبل هذه الطائفة الرافدينية الصغيرة التي تقطن وسط وجنوب العراق والا هوازبايران.

وقد عرض المؤلف صورة اوضاع بلاد الرافدين منذ اواخر القرن الرابع ق.م، منذ احتلال الاسكندر المقدوني العالم القديم، وعرج على التاثيرات الفكرية والدينية البابلية، وعلاقة المندائيين بيوحنا المعمدان والطوائف المعمدانية التي انتشرت شرقي الاردن، والحركات الفكرية – الدينية الغنوصية (المعرفية). ثم فحص بإمعان فترة قلّما درسها الباحثون في الشرق الأوسط، هي فترة دويلة ميسان في القرون الميلادية الأولى.

ويقدم الكتاب خدمة كبيرة للمكتبة العربية، بتقديمه دراسة علمية وموضوعية عن الصابئة. فبحثه في الاجواء الفكرية التي مر بها العراق منذ الحكم السلوقي ولغاية قرون سبقت الفتح الاسلامي –نحو ألف عام من تاريخ العراق القديم– هو انجاز كبير. فلم تأخذ هذه الفترة حقها على يد الباحثين، على العكس من الفترات التي سبقتها (ومثلت العصر الذهبي في الحضارة الرافدينية في العصور القديمة)، والتي تلتها (فترة الحضارة العربية الاسلامية الزاهية في القرون الوسطى بحسب تقسيم الأوربيين للعصور التاريخية).

وهذا الاستعراض التاريخي – الفكري ضروري لفهم الحركات الفكرية والدينية والفلسفية آنئذ في المنطقة، تلك التي مهدت لظهور المسيحية والمندائية والمانوية وغيرها من الاديان التي تأثرت بالفكر الغنوصي (المعرفي)، وعاشت في صراعات مريرة فيما بينها.

صابئة البطائح ام صابئة حران؟

خاض سباهي غمار مسألة شائكة –لا تتميز بها الدراسات المندائية وحدها– وهي: مدى دقة ما كتبه المؤرخون القدماء عن الصابئة؟. ويخلص المؤلف الى أن الكتاب الاوائل انهمكوا في صراع شديد بين الاديان والطوائف، فلم يكتب الكتاب المسيحيون الأوائل بموضوعية، بل تشوب أعمالهم الصبغة الايديولوجية (أو التحزب ان شئتم) للفكر الذي سيطر عليه اباطره الروم البيزنطيون بعد تبنيهم الدين المسيحي كوسيلة لفرض سيطرتهم الروحية على الاقاليم التي حكموها. ولم يسلم من القمع الفكري والجسدي حتى المسيحيون الذين ينتمون الى طوائف اخرى شرقية مثل السريان والاقباط. وفي المقابل، دعمت الدولة الساسانية الاتجاه المسيحي النسطوري، الذي مارس عين الاساليب القمعية بوجه مخالفيه في الرأي والمذهب، لا سيما الطوائف غير المسيحية.

لذلك فان من تناول قضية الاديان في القرون الاولى للمسيحية، لم يكن موضوعياً في تناوله، وحكمته الانتماءات الدينية لاستخدام قلمه كوسيله من وسائل التحريض ضد الخصوم. كما ساهم رعاة الكنيسة الاوائل في تدمير او تحريف كتب مخالفيهم في الدين والعقيدة وتشويهها.

اما الكتاب المسلمون، فقد اعتمدوا الرواية الشفوية، التي كانت غالباً المصدر الوحيد لما وضعوه عن المندائيين ولم يكلف معظمهم نفسه عناء البحث في صدق هذه الروايات الا فيما ندر. كما تسبب انعزال الطائفة وانغلاقها على نفسها وسرية ادبها الديني في تشوش الصورة العامة المتكونة عنها. وقد زاد في التشوش ما رواه (أيشع القطيعي) عن «انتحال» صابئة حران اسم الصابئة على عهد المأمون طمعاً في التعامل المتسامح الذي خص به القرآن الكريم اهل الكتاب. فلم يسرد هذه الرواية احد غيره. ومما يزيد الشك بصحتها صعوبة التصديق بأن مثقفاً كبيراً مثل المأمون لا يعرف شيئاً عن دين العدد الكبير من المترجمين والعلماء الصابئة الحرانيين الذين عملوا في دار حكمته وبلاطه، وخدموا الفكر العربي الاسلامي (مثل ثابت بن قره الطبيب، والبتاني الفلكي المشهور،

وابو جعفر الخازن والكاتب ابو اسحق ابراهيم بن هلال الصابي وعشرات غيرهم). وقد استمر الصابئة لليوم في ترديد هذه الرواية المزيفة خوفاً من اتهامهم بعبادة الكواكب، وهي ذات التهمة التي الصقها امثال ايشع بالحرانيين، لتاليب اتباع الدين المسيطر (الاسلام) على هؤلاء.

أما الباحثون الاوربيون، فقد ابدوا اهتمامهم بالقضية المندائية منذ القرن السادس عشر، واعتبروهم مسيحيين من اتباع القديس يوحنا بادىء الوقت، ثم خلطوا بينهم وبين السبأيين (صبا وسبأ)، وسموهم الناصريين تارة بعد ان قرأوا في كتبهم مصطلح الناصورايي (من ناصيروثا وهي المعرفه الدينية والناصورائي عندهم هو الكاهن المتبحر بعلوم الدين) وخلطوا تارة ثانية بينهم وبين النصيريين (وهم من العلويين) ولم تتوضح الصورة الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، على يد علماء فطاحل مثل برانت ونولدكه وليد زيارسكي الذين اجادوا عدداً من اللغات السامية ومنها اللغة المندائية. وجاء هذا التطور بفضل الطفرة الفكرية التي ساعدت على التخلص من القشرة الدوغماتية وسيطرة الكنيسة على الحياة الفكرية واسهمت اعمال علماء وفلاسفة كبار مثل برونوباور في نقد تاريخ المسيحية بشكل علمي في هذه الطفرة. ومنذ ذلك الحين ترجم الغربيون غالبية الادب المندائي الى اللغات الاوربية وصدرت عشرات المؤلفات وعدد لا يحصى من البحوث الى اليوم.

تحتل قضية الفكر المعرفي (الغنوصي) حيزاً مهما من سباهي. فهو يعرفها بانها:

«حركة فكرية ودينية متعددة الاوجه، برزت منذ القرن الأول الميلادي، وإن كانت جذورها تمتد الى ما قبل ذلك... ولم تكن الغنوصية... نظاماً فكرياً واحداً، كما لم تتجمد عند الصيغ الاولى التي ظهرت فيها... وقد تلاشت في العصر الوسيط، ولم يبق من فرقها سوى المندائية... ولا يمكن التوصل الى المعرفة –حسب فهمهم– من خلال العمليات الذهنية المباشرة يشابه لما يسميه المتصوفون بالكشف. ومهمة العمل الغنوصي هي تحرير النفس البشرية من إسار الجسد الدنيوي» (ص١٤٦). وقد تأثرت الغنوصية الشرقية (المندائية والمانوية والديصانية) بالفكر الثنائي الزراد شتى الفارسي (مصدره الثنائية البابلية) بتجلياته في الصراع بين النور والظلام، الخير والشر.

«وعلى العموم تعكس الغنوصية نزوعاً للتقصي عن اصل الكون والحياة وما يتحكم بالطبيعة من قوة... انها لا ترضى بالايمان السلبي وحده انما تبحث عن العلل المحركة

(ص ١٤٩). وتعتبر مخطوطات نجع حمادى في مصر والادب القبطي من أهم مؤلفات الادب الغنوصي الموجود حالياً الى جانب الادب المندائي.

الجذور البابلية للمندائية:

ويعقد المؤلف مقارنات بين الدين المندائي والمعتقدات البابلية التي سارت نحو التوحيد شيئاً فشيئاً حتى وصلت الذروة على يد الملك الكلداني الاخير نابونايد عبر الاصلاحات الدينية التي ادخلها. وقد اثارت هذه الاصلاحات الكهنه البابليين ضد نابونايد، فدفعهم ذلك الى التواطؤ مع الملك الفارسي كورش مما ساعده على اسقاط الامبراطورية الكلدانية. كان نابونايد ابناً (او حفيداً) لكاهنة اله القمر في معبده الشهير في حران، ولعل نابونايد واخناتون الفرعون المصري (الذي دعا الى التوحيد) هما من عزز بذرة التوحيد عند العبرانيين في طريقهم الطويل من تعدد الالهه (ايلوهيم=الهة بالجمع) ليتربع يهوه عرش السماء دون منازع.

ومن بين اهم اوجه التشابه بين الفكرين البابلي والمندائي المنزلة الرفيعة للمياه، وهذا امر طبيعي بالنسبة لسكان جنوب العراق حيث المياه مد البصر. كما يلتقي المندائيون بالبابليين حتى في مظهرهم وملبسهم، في تحريم حلق اللحى وشعر الرأس، ويلبس الكهنة ملابس بيضاء خاصة، وتشابه طقوس دفن الموتى ومعتقداتهم بصدد الروح ومحاسبتها. وهناك نقاط التقاء كثيره بين اسطورة الخليقة البابلية والمندائية (بالرغم من عدم تجانس الاخيرة وتشوشها وغموضها)، ومنها الاعتقاد بوجود عالمين منفصلين منذ البداية، احدهما عالم النور والاخر عالم الظلام (اصل الثنائية) وحدوث تمرد في عالم الظلام ضد عالم النور وقمع هذا التمرد (من قبل اله شاب هو مردوخ لدى البالبين، وهيبل زيوا عند المندائيين)، ثم خلق الانسان من عنصرين سمائي وارضي (دم الاله كنغو والطين عند البابليين، اما المندائيون فيعتقدون بان الجسد الارضي احتوى على الروح وهي قطعة من عالم النور).

وخلاصة القول ان تأثير الفكر البابلي شديد الوضوح في النصوص المندائية، ويعطي هذا انطباعاً بأن الجزء الأهم من الدين المندائي انما ظهر وترعرع في بيئة رافدينية العناصر.

ويفرد المؤلف فصلاً خاصاً للعلاقة بي المندائية وطوائف البحر الميت وهو يبدأ باستعراض ثمين لمادة نادرة في المكتبة العربية، فقد ترجم المؤلف مقاطع وافية من

النصوص التي كتبها المؤرخون القدماء مثل يوسف فلافيوس (صاحب كتابي تاريخ اليهود وحروب اليهود وهو مؤلف يهودي عاش في القرن الأول الميلادي) وفيلون الاسكندراني (وهو فيلسوف يهودي من الاسكندرية متأثر بالفكر اليوناني)، ويلينيوس الكبير (مؤرخ روماني وصاحب كتاب تاريخ الطبيعة). وتناولت المقاطع حياة الاسينيين الذين حلا لبعض الباحثين اعتبارهم اصل المندائيين. كذلك تطرق المؤلف الى اعمال المؤرخين المسيحيين الاوائل وترجم مقاطع من لفافات البحر الميت المعروفة بمخطوطات قمران تتعلق ببعض الجوانب القريبة من طقوس ومعتقدات المندائيين مثل التعميد والنظرة الثنائية للعالم وصراع النور والظلام وسرية التعاليم والاصطفاء. ومن جانب آخر اشار ايضاً الى الاختلافات. فالقمرانيون طائفة يهودية متشددة تحبذ العزوبية (على العكس من المندائيين الذين يفضلون الزواج وانجاب الاطفال). ويتطرق الكاتب الى المعلومات الشحيحة المتوفرة عن الطوائف الدينية التي قطنت شرقي الاردن وحوضه، مثل الناصورائيين (وهم في الاصل بالعبرانية نوصري ها-بريت، المحافظين على العهد وهي التسمية التي اطلقها القمرانيون على انفسهم ومختصرها نوصريم) والاوسيين (في الاصل العوسيين ان صحت التسمية، وهي بالعبرانية عوسى ها-توراه، بمعنى مطبقي التوراة، عوسيم) والمصبوثيين (مصبوثا بالارامية تعني التعميد، وهي طائفة تتميز بالتعميد كما يبدو)، والهيميروبابتست (من اليونانية وتعني المتعمد في النهار) واتباع الحسح الخ... وهذه الطوائف قريبة من بعض ولانعرف عن معتقداتها شيئاً سوى اسمها، ولربما تكون تنويعات لطائفة واحدة، وفي الحقيقة يمثل هذا الموضوع بحراً من الرمل كلما بنيت اساساً فيه ينهار، بسبب تداخل الامر وتشوشه. فمن اسماهم المؤلف بالناصورائيين (هل هم الناصريين، ام النزيرين، ام نوصريم ام...؟) اثاروا اشكالات جدية عند بحث القضية المندائية، فمن الباحثين من اشار الى ان اصل كلمة النصارى جاء من هذه الكلمة بعد اعتناق شطر منهم المسيحية، ومنهم من قال بانهم اصل الصابئة المندائيين وانهم هاجروا من حوض الاردن الى بلاد الرافدين (والناصورايي عند الصابئة فئة الكهنة التي هاجرت من فلسطين هرباً من اضطهاد اليهود). واعتقد ان جانباً من التشوش سببه عجز اللغة اليونانية التي نقلت لنا المعلومات حول هذه الطوائف عن التمييز بين الاحرف السامية المختلفة، مثلاً كلمة عوسيم العبرية كتبت Ossenes باللغة اليونانية، التي عادت الينا بشكل انيق هو الاوسيين القريب من الذوق العربي، وما هو الفرق بين Nasorae و Nazarae فحروف الزاء والسين والصاد وحتى الشين تكتب

بحرف S او Z باليونانية، وبهذا تحولت كلمة آشور الى آسور ومنها اشتقت كلمات مثل سوريا وسريان بسبب خلو اليوانية من حرف الشين.

ميسان والابجدية المندائية:

تقع ميسان في المنطقة المحصورة بين نهر كارون ونهر الكرخة ودجلة شرقاً، حتى مدينة اقاميا (قرب الكوت)، ونهر الغراف غرباً ونهر الفرات والاهوار التي يصب فيها. ومن أهم مدنها الكرخة التي شيدها الاسكندر المقدوني والتي تقع عند شط العرب، وكانت مركزاً تجارياً مهماً يتوسط الطريق بين الهند والبتراء ومصر وشمال بلاد الرافدين، غير انها بدأت تفقد اهميتها منذ القرن الأول الميلادي.

ويبدو ان المندائيين شكلوا جماعة دينية مهمة في منطقة ميسان (ميشان بالآرامية، ميشين بالعبرية وميشيون بالفارسية)، التي حصلت على استقلال نسبي قرابة ثلاثة قرون، عبر استغلالها مصالح الدولة الاقليمية الاقتصادية والتوازنات القائمة بينها. ويتضح الدور المهم للمندائيين عبر استعمال الابجدية المندائية لسك نقود دويلة ميسان، ويعتقد بعض الباحثين بأن العيلاميين اقتبسوا خطهم من الخط المندائي، ومصدر هذا الخط الحروف النبطية (وهي مصدر الخط العبراني الحديث المعروف بالمربع، وكذلك مصدر الخط العربي).

ختاماً فان كتاب الباحث سباهي أحد المصادر الهامة عن الصابئة المندائيين، ويتميز بعمقه وعلميته وموضوعيته، وكذلك بتجرده من الحساسيات الدينية (التي تنبع بالاساس عن عدم معرفة المقابل بصورة جيدة وغلبة الاحكام الجاهزة والنزوع لاحتكار الحقيقة)، وبه تغتنى المكتبة العربية.

بودابست، حزيران ١٩٩٦

الـثـقـافـة والـهـويـة الـكـرديـتـان

عرض وتعليق: محمد توفيق علي

عن مـركز دراسات الـشرقيـن الأدنى والأوسـط، كلية الدراسات الشرقية والافريقية (SOAS) في جـامـعـة لـنـدن، صـدر كـتـاب Kurdish Culture and Identity الـذي قـام بتحريره د.فيليب كرينبروك وكريستين ألسن بالاضـافة الى مقدمتهما، يتضمن الكتاب فصولاً لـتسعة باحثين في الدراسات الكردية، منهم كردي من تركيا وكردي وكردية من إيران وفرنسية وهـولندي وامريكي ونمساوية وبريطانيتان. وتتكون أربعة فصول من مقتطفات ضافية من كتب لمؤلفيها، وثلاثة فصول من إختصارات لأطروحات الدكتوراه، واربعة فصول من دراسـات ميدانية في أنحاء مختلفة من كردستان المجزأة.

المـقدمـة هي عرض لـحالة الـشعب الكردي وثقافتـه مع عرض للفصـول التسعـة في معالجة النواقص التي يواجهها القارىء الغربي مع تعريف بالمؤلفين.

الفصل1. الكرد: الوضع الراهن والخلفية التاريخية: تأليف د. كندال نزان مدير المعهد الكردي في باريس ولـه مؤلفات عديدة. يقدم المـؤلف تـعريفاً موجزاً بـالشـعب الكـردي، قـوامه وتـعداده فـي كل قـسـم مـن وطنه وخـارجه. وبـصـدد وعيه بـهـويتـه القـومية، يقول: خلال القرن الـسـادس عشر، بينمـا كانت كردستان ترزح تـحت نير الانقسـامات الاقـطاعية، وصـف الشـاعر الـصـوفـي الكبير، مـلا الـجزيري، الذي كان شـاعر البلاط لأمير بوتـان، وصـف نفسـه بهذا البيت:

«إنني وردة في جنة عدن بوتان / إنني شعلة لفرسان كردستان».

وفي ١٥٩٦، أكمل معاصره، شرف خان البتليسي، تدوين تاريخ الشعب الكردي بالفارسية في مؤلفه العظيم «شرفنامه». وفي اواخر القرن السابع عشر، الف الشاعر الكلاسيكي، أحمد الخاني، ملحمته «مم وزين» وفيها يقول: «أترك للّه العليم / أمر الكرد في دول عالَمنا / لماذا يحرّمون من حقوقهم؟ / لماذا يحكم عليهم بالهلاك المحتوم؟ / لاحظ من موطن العرب إلى الجورجيين / كل شيء كردي، وأما بصدد القلاع / يحاصرها الترك والفرس معاً من الجهات الأربع / وكلاهما يجعلان الشعب الكردي / هدفاً لرماح القدر.»

يختم المؤلف بثلاث ملاحظات، الاولى هي استبدال المصطلح التاريخي قبل او بعد الميلاد بقبل او بعد العهد السائد. والثانية هي بمثابة دليل لمخطوطة الـ «شرفنامه» الرائعة والمصورة في مكتبة (بودليان) بجامعة اكسفورد. أما الثالثة فهي دليل للمصدر الآخر، النصّ الأصلي لملحمة «مم وزين» من إعداد بوز آرسلان (١٩٩٠).

الفصل ٢. الأدب الكردي المدوّن تأليف جويس بلاو، استاذة اللغة والادب والحضارة الكردية في المعهد الوطني لدراسة اللغات والحضارات الشرقية في باريس. تبدأ المؤلفة بنشوء الشعب الكردي من أصل ايراني وانحداره من آسيا الوسطى في الالف الاول او الثاني قبل الميلاد وتطور لغته ولهجاتها. بصدد اثنوغرافيا الأقوام، تعتبر المؤلفة الكَوران والزازا(الدملي) والهوارمي والباجلاني والشبك والسارلي أقواماً إيرانية غير كردية وكذلك الامر بالنسبة للغاتها الايرانية الشمالية الغربية.

وتقسم اللغة الكردية الى لهجات جغرافية وهي ١- الشمالية أو الكرمانجية ولها ثلاث لغات أدبية. -٢- الوسطى التي تقسم بدورها الى السورانية في الغرب والكردية في الشرق ولها لغة أدبية واحدة. -٣- الجنوبية التي تشمل لهجات مختلفة غير متجانسة في جنوب كردستان الايرانية وليس لها لغة ادبية مشتركة. تتطرق المؤلفة الى فشل محاولة الكتابة بالاحرف الرومانية والى دور الصحافة في القرن العشرين في تطوير اللغة الكردية. اما بصدد تغيير اللغة الكردية، فتقول بان الفضل في تكريد اللغة باخراج جميع التركيبات والمفردات الدخيلة يعود الى كُتاب الحقبة ١٩٢٠-١٩٦٠ وتخص بالذكر الاديب ابراهيم احمد والمرحوم توفيق وهبي وادموندز ومينورسكي كروّاد لهذه المدرسة اللغوية. وتشيد المؤلفة بالحيوية اللغوية والقومية للكرد.

الفصل ٣. التقاليد الشفوية في بادينان تاليف السيدة كريستين ألسن، وهي اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه بجامعة لندن، و تستند على دراسة ميدانية للمؤلفة في كردستان العراق وقد زارت كردستان تركيا وايران ايضاً .أجرت الباحثة تدوين الادب الشفوي للناطقين باللهجة الكرمانجية الشمالية تدويناً كتابة وتسجيلاً صوتياً لجماعتين اجتماعيتين مختلفتين وطائفتين مختلفتين، احداهما من الطائفة اليزيدية وهي تمارس طقوسها الدينية والاجتماعية كالاحتفال بعيد السنة الجديدة، وتعتبر الاداء من التقاليد الكلامية القديمة من حيث الشكل والمضمون. والاخرى متكونة من ارامل عشيرة بارزان المسلحة في مجمع سكني بالقرب من أربيل. واعتبرت الرثاء لرجالهن من التقاليد الكلامية القديمة من حيث الشكل، أما المضمون فيتسم بمدلولات اجتماعية وسياسية.

وترى ان الادب المنطوق يتطور بمرور الزمان واختلاف المكان وتباين الظروف، بينما يتسم الادب المكتوب بالثبات والاستقلال عن هذه العوامل.

تركّز المؤلفة على دور الادب المنطوق في ثقافة الشعوب الاصلية كالكردوترى ان بحوث التقاليد الشفوية في العالم تكشف حرية كبيرة في التفاعل بين هذه الثقافات. فمثلاً ، في ملحمة قلعة «دمدم» الكردية يعود باعث القصة الى العصور القديمة اذ يظهر في قصة «أيانيد» لـ «ڤيرجل» والتي نشرت عام ١٩ قبل الميلاد. وعلى صعيد الثقافة الكردية، تورد مثالاً لتأثير الادب المنطوق على الادب المكتوب فملحمة مم وزين تشبه قصة «ممي آلان» الشفوية. تقسم الباحثة هذه التقاليد الشفوية الى أربعة اصناف من حيث الموضوع وهي التارخة والرثاء والحب والاغاني الحربية وتتطرق الى حيوية ومكانة اللغة الكردية. وتعتبر الريف مستودعاً للتقاليد الشفوية الكردية المهددة بتأثير الراديو والتلفزيون والسكن في المجمعات. تلاحظ المؤلفة انتشار الحركة القومية والثقافة الشعبية في كردستان المحررة حيث الاعتراف الرسمي بالطائفة اليزيدية اكراداً اصليين بينما تبقى المكانة الاجتماعية لها كما كانت من قبل. ثم اشارت الى صعوبة قراءة الكردية المكتوبة بالاحرف الرومانية او العربية لدى الكرد المتعلمين باللغات الرسمية، التركية والفارسية والعربية. وترى ان النخبة المثقفة داخل كردستان عاجزة عن تلبية حاجات الناطقين باللهجات الصغرى.

الفصل ٤. نشوء الثقافة الاعلامية الكردية. تاليف امير حسن بور استاذ الاتصالات اللغوية في جامعة كونكورديا، مونتريال، كندا. من مؤلفاته كتاب القومية الكردية واللغة،

١٩١٨-١٩٨٥.

يصف المؤلف تأثير الاعلام في سيرورة التطور الثقافي الكردي ويربط ذلك بالخلفية التاريخية لهذه البقعة من آسيا الغربية بصفتها مهد الحضارة والكتابة. وشأن المؤلفين الاخرين، يلاحظ ان القراءة والكتابة في كردستان تتم باللغات الرسمية للأمم الحاكمة في المنطقة، أي العربية والفارسية والتركية. كما يلاحظ بأن نظرة الآخرين للغة الكردية هي إمتداد لنظرتهم الى المجتمع الكردي كمجتمع «عشائري أو رعوي-رحّال». يقارن الفتوحات الاسلامية للعرب في القرن السابع في اسيا بفتوحات الرومانيين في اوربا قبل ذلك. فالفتوحات الاسلامية انزلت الكردية واللغات المحلية الى لغات شعبية واعلت مكانة لغة القرآن، العربية، إلى الكلاسيكية. ويقارن ذلك بانحطاط مكانة اللغات الاوربية كالانجليزية والفرنسية والالمانية الى لغات شعبية إزاء رفع مكانة لغة الانجيل اللاتينية، الى الكلاسيكية.

يتحدث المؤلف عن نشوء وتشجيع القراءة والكتابة بلغة الأم ودور الشعراء في هذه العملية القومية اللغوية. ثم يقدم عرضاً للدواوين والتواريخ واللهجات واسماء مشاهير الشعراء. أدناه شذرات من قصيدة للشاعر حاجي قادر كويي (١٨١٧-١٨٩٧) باللهجة السورانية: «الدولة تبنى على السيف والقلم/ أنا أملك القلم ولكن لا سيف في الأفق/ لا يملك الحاج علماً ولا نقّارة/ كتب المسكين بقدر المستطاع/ لقد نفّذت كل واجباتي/ ولكن نسيج الأمة يعتمد على سيف الدولة.»

وبصدد اهمية الاغاني والاناشيد غير المدونة، يقتبس المؤلف بيتاً للشاعر نفسه يقول فيه ان هذه القصائد الفصيحة جميعاً تفتقر الى الشهرة لانها لم تدوّن كتابة، أما بصدد الشاعر احمد الخاني (١٦٥١-١٧٠٦) الذي كتب باللهجة الكرمانجية الشمالية، فيصفه المؤلف بمفكرّ القومية الكردية.

ويرى المؤلف ان الاقطاعية وطغيان العربية اهم عقبتين أمام تطور الكردية. ويشير الى زعم الشوفينيين بأن «جميع الأمم تملك الكتب باستثناء الكرد» وهو زعم تفنده الحركة الادبية الكردية التي تعتبر الكتاب بمثابة الماركة المسجلة الثقافية للسيادة القومية وميدان المعركة الثقافية غير المنقطعة. ويضيف بانه في تركيا وايران، تحرّم السياسة الرسمية للدولة النشر بالكردية و عند توفّر مجال النشر فان تكاليف الطباعة تفوق أسعار بيع المطبوعات.

ثم يتطرق الى تاريخ الطباعة في اجزاء كردستان من بينها مدينة رواندوز، لكنه يعتبر

الكتب الصادرة فيها بأنها «تتسم بالنزعة القومية المتطرفة والجهد غير المنقطع لتنقية اللغة.» كنت أعتقد ان مجرد تأسيس المطابع ودور النشر هو مؤشر للوعي القومي الذي تجلّى في البداية في تنقية الكتابة الكردية من المفردات الدخيلة. وكما قلت سابقاً إني ارى هذه العملية الادبية تنبع من فلسفة سياسية وليس من الموضوعية اللغوية.

الفصل ٥ الديانة والاديان في بلاد كردستان: تاليف فيليب كرينبروك استاذ دراسة اللغات والاديان الايرانية بجامعة لندن. من مؤلفاته تحرير كتاب الكرد: نظرة راصدة معاصرة، الذي بدوره يتضمن عشرة فصول لعشرة مؤلفين.

نظراً لمتابعتي لمحاضرات المؤلف سابقاً، كنت أتطلع الى التنوير الثقافي الذي وجدته في قراءة هذا الفصل. ولكنني لم أتوقع تعريفاً للغة والثقافة، او بالاحرى، العلاقة بينهما. فهو يقول: «في هذا الفصل، سوف نعتبر اللغة احد المركبات الرئيسية للثقافة.» ذكّرني هذا بالتعريف الاكثر شمولية لعالم اجتماعيات اللغة (آرمسترونغ) الذي اتبنّاه وهو: «الثقافة هي مجموع الاجوبة للأسئلة والمشاكل السائدة في مجتمع ما والتي تغلّف بلغة ذلك المجتمع.»

هذا ويستهل المؤلف بشرح انحدار الشعب الكردي ولغته وديانته من اصل هندو–ايراني. فيما يخص اللغة ، يتطابق هذا التفسير مع مصدرين آخرين استرشد بهما وهما للمؤلفين بي. كومري عن اللغات الايرانية ودي. إن. مكنزي عن لهجات اللغة الكردية.

يعرض ويقارن المؤلف الطوائف الدينية أهل الحق (علي الهية) والعلوية واليزيدية التي يعتبرها منشقة من الشيعة ويعتبر اليزيدية حركة صوفية عادت الى أصولها أو جذورها القومية. يقارن هذه الطوائف مع المذهب الشيعي ويقارن الاخير مع المذهب السني.

يتتبع المؤلف اطوار معتقدات وطقوس دينية مشتركة بين هذه الطوائف ترجع الى الديانات الزرادشتية الايرانية والمثرائية الهندية وحتى البوذية. هذا ويتطرق الى تأثير النزعة الصوفية على السياسة الكردية، اذ يقول: «يكفي ذكر الاواصر المتينة بين آل البارزاني والنقشبندية وكذلك مؤازرة جلال الطالباني للقادرية.» وذلك كمثال لانتشار هاتين الحركتين الصوفيتين في شمال وجنوب كردستان على التوالي. كما يتطرق المؤلف الى تاثير الفلسفة الصوفية على الثقافة الاسلامية وبالاخص على الادب الكردي الكلاسيكي، مثلاً على الشاعر ملا الجزيري الذي يعتبره «أبا الأدب الكردي».

ويشير الى تأثير الاديان السماوية الاخرى كالمسيحية واليهودية والمذاهب الهيلنية

(اليونانية) والمانيكائية على الديانة في كردستان تأثيراً لا يرقى الى تأثير الاسلام. وبصدد الاقليات الدينية، يصف المؤلف تعايش جالياتها مع الشعب الكردي ويصنف المسيحين من النواحي الاثنية والطائفية. أما من الناحية اللغوية فيلاحظ بأن لجميع المسيحيين لغتهم الام ويتكلمون الكردية كلغة ثانية.

الفصل ٦. العقيدة والطقوس الدينية والثقافة لدى طائفة أهل الحق.

تأليف د. زبا ميرحسيني، باحثة في قسم الدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية بجامعة كمبردج. أجرت بحوثاً عن العائلة والتغيير في الريف الايراني ودراسات ميدانية في المغرب. من مؤلفاتها، الزواج تحت التجربة: دراسة مقارنة لقوانين العائلة الاسلامية في كل من ايران والمغرب. هذا وسوف يصدر كتاب لها عن موضوع هذا الفصل.

تعقيباً على الفصل الخامس عن الديانة والاديان في كردستان، تركز الباحثة على دراسة ميدانية لطائفة اهل الحق المعروفة بـ(يارسان) في ايران والـ(كاكائية) في العراق وتعتبر عقيدتهم صوفية منشقة عن المذهب الشيعي. وتنعكس جذورها الزرادشتية في ثوابتها المدوّنة في قصائدها الشفوية و المبنية على أربع ركائز، وهي نقاء الجسد والروح، تواضع العقل، الصراحة مع الذات ومع الاخرين، والاخوة في التعامل معهم. أما رؤيتها الاخلاقية والجمالية فأنهاتتمثل في تضاد الحق والباطل، الظاهر والباطن، الباقي والفاني، الصفات وذات الروح، الواقع والمجاز. وركن عقيدتها هو تجلّي ذات الروح في شكل بشري وانتقال الارواح بين البشر من الأموات الى الأحياء.

تتمثل الدورةالكبرى للعقيدة في المراحل الاربع التالية: الشريعة، التصوّف، المعرفة والحقيقةالنهائية. وهي تجيز اداء الصلاة الرئيسية في أي مكان ووقت ، ولكن يجب مراعاة طريقة الأداء. تتمثل الخصائص المميّزة لها في البركة والشرافة و الزعامة الدينية (الشيخ). على الصعيد السياسي، تعتبر الطائفة حركة احتجاجية للريف الكردي على المذهب الرسمي للدولة ويتمثل كتابها المقدس في «كلام» وهي قصائد محفوظة تلقى في المراسيم الدينية باللهجة الكوزانية ولغات ايرانية اخرى يحرّم الزواج خارج نطاق الطائفة. وبصدد الحركة الانفتاحية التي تعلن عن معتقداتها للآخرين بنشرها كتابة، تعبّر المؤلفة عن سخطها وسخط المحافظين من الطائفة بنعتها بالطابور الخامس.

الفصل ٧. الزيّ الكردي – الاختلاف والتباين الاقليمي. تأليف ماريا.تي.أوشي.أستاذه مساعدة في دراسة الاقليات في الشرق الاوسط بجامعة لندن

ومن مؤلفاتها، كردستان ـ الامكانيات السياسية والاقتصادية. تستهل المؤلفة بمقدمة عن بدايات تدوين الزي الكردي كتابة وتصويراً فوتوغرافياً في انحاء مختلفة من كردستان وكذلك المتاحف الاوربية التي تحتفظ بها في أرشيفاتها واحياناً تعرضها. تلاحظ وضوح الاختلاف الاقليمي للزي الكردي، أما الاختلاف المحلي فلا يتبين إلا لأهل كل اقليم. بالاضافة الى الانحدار الجغرافي، يمثل الاختلاف مؤشراً للانتماء الديني او الطائفي كاليزيدية وأهل الحق مثلاً. وعلى الصعيد السياسي تلاحظ بأن من بين الفئة الثورية، ترتدي اليساريات الزي الرجالي اكثر من غيرهن. كما تلاحظ الباحثة ظاهرة التغيّر في الزي الكردي الذي يفوق مقداره على الصعيد المحلي على مقداره على الصعيد الاقليمي. أما على الصعيد القطري، فتتطرق المؤلفة الى تحريم ارتداء الزي الكردي في كل من ايران وتركيا سابقاً لكونه يمثّل تعبيراً مرئياً صارخاً عن الانتماء القومي. جرى ذلك التحريم على زي الرجال الذين يسهل تطبيق الاجراءات عليهم في الشارع، الامر الذي تعذّر تطبيقه على النساء في عقر دارهن. لذا تعتبر الباحثة الكرديات حاملات راية العلامات المرئية للهوية القومية. تقارن المؤلفة الازياء القومية على صعيد الشرق الأوسط وترى أن الرجل الكردي ثابت العزم على إرتداء السروال. كما تصف الزي الرجالي الموحّد الذي يرتديه الانصار (البيشمه ركه) والزعماء القوميون.

تتطرق الباحثة الى تأثير الحضارة الغربية على الثقافة الكردية والزي الكردي وكذلك تأثير العوامل الاقتصادية والاجتماعية كالهجرة من الريف الى المدينة وعادات القوم وخجل النخبة الكردية من ارتداء الزي القومي. فهي تعتبر الزي الأوربي عصرياً وعملياً أكثر. تلاحظ المؤلفة ظاهرة التغييّر في الزي القومي كجزء من التغييّر الثقافي للمجتمع الكردي والذي ينعكس أيضاً في تغيير لغته القومية. إذ تصف ظاهرة توحيد اللغة الادبية بانها بمثابة تكوين لغة مصطنعة. هذا ويتضمن الفصل رسوما للأزياء الكردية المختلفة اقليمياً ولكل من الرجال والنساء.

الفصل ٨. منسوجات السجاد الكردية. تأليف ويليام إيكلتن/ سفير اسبق لامريكا في سوريا ومعاون هيئة للأمم المتحدة في ڤينا ومنسق خاص لها في سرايڤو، يوغوسلافيا. من مؤلفاته، الجمهورية الكردية في مهاباد لعام ١٩٤٦ وآخر عن موضوع هذا الفصل.

يتحدث في البداية عن المغزى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لهذه الصناعة

اليدوية التقليدية. يعتبر صناعة النسيج الكردي تراثاً ثقافياً للشعب ويصف خصائصها من حيث التصميم والتركيب والتلوين بالاصباغ الطبيعية في السابق. يعتمد التصنيف الاقليمي لهذه المصنوعات على اختلاف الخصائص المذكورة. ويعتبر هذه الصناعة اختصاصاً للريف وللقبائل الرحالة. لكنه يستخدم عدداً من المصطلحات الفنيّة دون شرحها او ذكر ترجماتها الكردية. كما يفتقر النص الى الاسترشاد بمصادر اخرى والى المخططات او الصور.

الفصل ٩. ثقافة الاشغال اليدوية الكردية في سورية. تأليف كارين كرين التي اجرت دراسة ميدانية في سورية ونالت شهادة الدكتوراه على اطروحة عن عشيرة مير الكردية. وهي خبيرة في تقديم المعارض الثقافية لدى متحف ڤيينا الاثنولوجي. من خلال الدراسة الميدانية يتناول الفصل وسائل العمل والتكنولوجيا من حيث الخلفية الاجتماعية والدينية للمنتج. فمثلاً ، كانت صياغة الفضة في كردستان من اختصاص اليهود والنسيج من شعر المعز من اختصاص المسيحيين الآشوريين في منطقة حكاري (كردستان تركيا). ومن حيث المصطلحات التقنية، فبالإضافة إلى مخطط لآلة المنساج الأفقي، تُدوّن المؤلفة قائمة مرقمة بالأسماء الكردية لعشرة أجزاء من مكناتها مع ترجماتها الانجليزية. هذا ويتضمن الفصل مخططات لوشم النساء والنورس التقليدي والهاون الحجري. ويتناول الفصل الدراسة من حيث عُمر المصنوع.

تعتمد الباحثة دورة الحياة للإنسان أساساً للتصنيف. إذ تتطرق إلى دورات الطفولة والبلوغ ــ الزواج والحياة العائلية.

وتصف الحياة الزراعية وأدوات إنتاجها ودُور السكن التي تعتبرها تلبّي الأغراض الاجتماعية والبيئية.

تشير المؤلفة إلى ملاحظة الدبلوماسي البريطاني (سايكس) عام ١٩٠٨ عن ارتداء الزي القومي بأن أكراد وادي الفرات قد جرى تعريبهم جزئياً. وتتطرق إلى ظاهرة هجرة الرجال من الريف الكردي إلى المدينة بحثاً عن العمل وتحمّل المرأة المسؤولية الاجتماعية بالإضافة لرئاسة العائلة وغيرها.


أدب وفن

فؤاد التكرلي في روايته «الرجع البعيد»

يا لذلك الماضي.. يا لتلك الذاكرة!!

جنان جاسم حلاوي

هذه الرواية ليست عاديّة، ولم تكتب في فورة حالة معينة، وهي تستمد تميزها وأصالتها من صدقها في توثيق وضع الفرد العراقي في مرحلة معينة، بأسلوب فنّي وبناء روائي محكم.

في بيت بغدادي عتيق لا تكاد تحس فيه الا بالظلام والمتحركات الشبحية يبدأ الروائي راصداً خليّة بشرية، تكاد تجمد في مكانها، لولا ذلك الحدث المفاجيء الذي حرّكها واستفزّها: مجيء منيرة وأمها للبيت: منيرة ذلك الكشّاف الضوئي الذي بهر السمكات في قاع الظلمة، منيرة الشمس والنور، منيرة التي تبقى حتى بعد زواجها من مدحت منفردة، رغم أنها كانت قبل ذاك تبث عواطفها، وربّما شفقتها لعبد الكريم، الاخ الاصغر لمدحت، ولكنها تبقى مغلقة حتى يبدأ الروائي يكشف حالاتها عبر مونولوجات متعاقبة. منيرة اذن لم تعد لغزاً، ولكننا لن نعرف ذلك الا بعد ان بات الكل مكشوفاً كاسماك ميتة طافية على سطح الماء: كرومي العاجز، ومديحة المهمومة، وحسن العاطل السكير، ومدحت المحايد رغم وعيه بما يجري حوله، والعجائز النهمات الميتات وهنّ على قيد الحياة، وعبد الرزّاق الحاج اسماعيل لا يظهر الا نادراً ملتحفاً بالظلام... كانوا وكأنهم في مقبرة، لولا البنت الصغيرة سناء التي تتحرّك بينهم بنشاط لتضفي عليهم مسحة من وجود حيّ.

تبدأ الرواية بموت فؤاد العاجز جنسياً، فتترك هذه الحادثة اثراً لا يُمحى على نفسية عبدالكريم المُكنّى «كرّومي» فيفتح لنا الروائي باب ذلك البيت ويلجه متأبطاً الموت

بصحبة عبد الكريم ليبدأ الصراخ، والفزع، وتتفجّر الرواكد فجأة، غير انها سرعان ما ترجع لسكونيتها: فالبيت البغدادي ساكن رغم الهزّات التي يتعرض لها، بسبب سكونية العلاقات الاجتماعية وبطء تطورها.

الرواية تبدأ بموت فؤاد.. وتنتهي بموت مدحت ، تشرع قطبين جحيميين: موتين فتحا باب ذلك البيت ليحركا سكونه، ثم ليغلقاه، فيبقى هكذا ماضياً ساكناً، لا يُعنى الا قليلاً بالحاضر، ولا يأبه للمستقبل. فكرّومي غير مهتم بدراسته، وأبوه لايشجعه على المواصلة، مهملاً أخباره الدراسية، مهتماً بصحته، ببقائه قربه، مهتماً بحاضره لا بمستقبله. لقد كان يرعاه لأنه امتداد لماضيه، وكذلك الأمر بالنسبة لمديحة، فالاب لا يكترث الا قليلاً لزوجها المتسكّع حسين، ولا يسال عنه، ولكنه يحتضن ابنته لأنها حاضره وماضيه، لا يهمه كثيراً ما إذا كان زوجها حسين مادامت هي: ابنته ماضيه، قربها يجد في ابنتها سناء، حفيدته، تلك الاستمرارية الفائقة القوّة لشجرة العائلة، صلب الماضي الدائم الديمومة في الحاضر، رغم ان الطفلة يجب ان تمثل المستقبل.

اندحار اعظم شخصيتين في عالم الرواية العراقية:

فاذا كان هناك وعي فهو وعي الماضي، والاخلاص له، وهو اذ يدخل في صراع مع متغيّرات الحاضر (مجيء منيرة، وحب مدحت لها، وزواجه منها، وطرد منيرة لعدنان) ينهار لأنه لا يتلاءم معه، ولأنه مرفوض فمنيرة تتالق بشخصيتها، ومدحت يتزوجها، وعدنان يطرد. ومادام الماضي والحاضر، والفكر والواقع، والجوهري والثانوي في صراع فهم اذن في رحم التغيّر، الذي قد يتمخّض عن ردّة ورجعة الى الوراء، بصورة غير متوقعة، فتنتصر قوى الظلام والشر رغم عدم وجود مبرر لبقائها، وتنتصر افكار الماضي رغم عدم ملاءمتها للحاضر، حيث ان كل ذلك يتبع وضع القوى المتناحرة.. وطبيعة الظروف الموضوعية التي تؤثر عليها، وهكذا يموت مدحت، وتبقي منيرة وحيدة ، وينتفخ عدنان (المنتمي الى حزب فاشي) زهواً بموت مدحت، والعجائز يبقين على قيد الحياة يأكلن ويأكلن كل شيء، ويبقى حسين عاجزاً، ساخراً، يائساً، وكرومي مشلول الوعي، منهاراً.

كرّومي اذن رمز لعجز الاسرة، وحسين رمز لترديها، ومنيرة رمز لادانتها، والعجائز رمز لتفاهتها، ومدحت رمز لحيرتها، وعدنان رمز لوحشيتها، وسناء رمز لمستقبل مكبوح، وبذلك أحكم الروائي روايته بشخوص منتقاة بدقّة: فهم عاديون لا يحملون أفكاراً سياسة الا عدنان (وبشكل مبهم، عدواني) وان حملوها فهي شاحبة وغير واضحة،

وبالتالي فهي عادية بالنسبة للصراع المحتدم في تلك الفترة في العراق (١٩٦٣)، غير انهم يدخلون بعد ذلك الصراع بصورة او باخرى دون ان يُقسروا على ذلك ، رغم اختبائهم في بيتهم الكبير بعيداً عنه (اي الصراع) -الا ما ندر في تعليقات هامشيّة- وهكذا يكون للظرف الموضوعي دور كبير في بلورة وعي الشخصيات سلباً وايجاباً حتى في حدوث الردود المعنويّة البسيطة كتحول العجائز من اللامبالاة والتهام الطعام، الى متابعة أخبار القصف والرصاص، واخبار مدحت الذي ضاع واختفى فجأة.

لقد دخل الشارع الى البيت رغم انفه: دخل الحاضر على الماضي... فصرع المستقبل، بعد اندحار اعظم شخصيتين في عالم الرواية العراقية: مدحت ومنيرة.

الشخصية العادية تتيح كشفاً اكبر للواقع:

ان تناول شخصيّات عاديّة، تتبلور مواقفها تبعاً لتغيّر الوضع الذي تعيشه يتيح للكاتب حرية اكبر في الغوص الى اعماق نوازعها، وتطلّعاتها، فهي عبر تشوشها، وتخبطها، وادراكها العفوي للأمور، تظهر اكثر قرباً منا، واكثر انسانية. وذلك لان الشخصية العادية ذات الاهتمامات اليومية تدخل في صراع مع الواقع اليومي دون ان تستطيع الفكاك منه، حتى تسحق في النهاية، وكأن ذلك مقدّر عليها، وبذلك يكون رصد ابعاد الصراع وتبيان الشخصية وعجزها، والاشتباك غير المتكافىء بين قوّتين، احداهما في غاية الضعف، والاخرى في غاية القوة، منفذاً للغور في عمق طبيعة ذلك الصراع واشكالاته، لتحديد المواقف الانسانية التي تستجد بعد ذلك وتفرز، فتكون كشفاً وادانةً له: لذلك الماضي، لتلك العلاقات شبه الاقطاعيّة، للأسرة البطريركية، لكل القوى التي تقتل الانسان وكأنها القدر.

باختصار: فان الشخصية العادية تتيح كشفاً اكبر للواقع من خلال صراعها غير المتكافىء معه، مما يتيح لنا أن نفهمه بدقة اكبر ونَدينه.

بين «الوجه الآخر» و«الرجع البعيد»:

الوجه الآخر رواية التكرلي التي اصدرها في اواخر الخمسينات، ما تلبث وشائجها تتوثّق مع عمله «الرجع البعيد» الصادر في ١٩٨٠. ولقد نوّه القاص موسى كريدي الى تلك العلاقة الوطيدة بين عملي التكرلي حينما قال «هل التكرلي يعيد صياغة الوجه الآخر ويطوّر شخوصها ويطوّع مضمونها في عمل كبير ذي امتدادات واسترجاعات فكريّة كثيرة، اعتقد انه يفعل ذلك على نحو من الانحاء، فالعزلة والتركيز على العالم الداخلي للابطال والرواية المحدودة في المكان والتاملات وهموم الابطال واستخدام اللغة

المحكية، في الحوار والتداعي هي ذاتها تتردد اصداؤها في العملين».

ولو رجعنا قليلاً الى عمل التكرلي الأول: الوجه الآخر، لوجدناه يحكي قصّة ذلك الموظف الصغير: محمد جعفر الذي يعيش مع زوجته في احد أزقة بغداد، في غرفة متواضعة، يعاني من ازمة مالية، وزوجته في حالة ولادة، فيحاول ان يستدين المال باية طريقة، ثم يرهن ذهب زوجته عند أحد المرابين وهكذا تتعقد الأمور، وتفقد زوجته بصرها أثناء الولادة، ويتحول البيت إلى جحيم، وتصير زوجته مسخاً يدمر حياته، حتى يقرر في النهاية ارجاعها الى أهلها تخلصاً من المسؤولية.

محمد جعفر نموذج للموظف الصغير، المسحوق: هش فكرياً، غير مسؤول، يائس، عاجز، حتى انه لم يساعد مريضاً استنجد به، ثم يعرفنا الكاتب بصيرورته بعد عمى زوجته «لقد شعر بذاته وهو مجرّد من الايمان، ولا يزال يستخف بكل ايمان... بأشياء لا تحل اية مشكلة انسانية، لقد كان باستطاعة ذوي الايمان ان يعيشوا ويموتوا دون ايمانهم. شعر انه يفكر دون اساس ثابت يبدأ منه».

ومحمد جعفر اضافة الى ذلك كاتب فاشل كما سبق وان فشل في البكالوريا، وفشل في ان يقيم علاقات طبيعية مع اهله وأهل زوجته سعديّة. نتيجة كل هذا يقع محمد جعفر في دوامة الغربة والتشوش الفكريين، يقع في دوامة الحيرة التي تسحقه، وتدمره، فيبدأ يحدث نفسه: «لماذا لا تتناسق نفسه وافكاره وعواطفه، مع المجرى المظلم لهذا العالم التعيس.. أهي حساسية ايضاً، أهي قراءاته الماضية، أهو تركيبه الخلقي ومزاجه؟؟؟» ألا تشبه هذه الشخصية، شخصية كرّومي في «الرجع البعيد» في عجزها وفشلها؟ ألا تشبه شخصية مدحت في حيرتها وحياديتها، ثم في الخوف من اتخاذ موقف حاسم من وضعها، تاركة للقدر تحديد مصيرها؟ كرّومي فشل في دراسته ثم عجز عن توطيد علاقته العاطفية بمنيرة، ثم عجز عن فهم عالمه، نتيجة لتشوشه الفكري وقصور وعيه، وضعف شخصيته، كذلك محمد جعفر: كان فاشلاً في البكالوريا، ثم فشل في مواصلة ارتباطه بزوجته بعد عماها، ليقع اسير قبضة «قدر» لم يستطع هو فهم اسبابه...

الا تشبه هذه الشخصية شخصية مدحت الذي تخلّى عن زوجته في محنتها النفسيّة، وتركها تعاني شعوراً بالنقص لايطاق ليلجأ الى الخمرة؟ كذلك فعل محمد جعفر حين تخلى عن زوجته والتجأ الى اقرب مدفن ليدفن فيه مأساته: انها (سليمة) زوجة المرابي (سيد هاشم) التي اتخذها عشيقة له، ثم كان التخلّي النهائي وعدم تحمله المسؤولية، حينما دفع زوجته الى أهلها، تخلّصاً منها، بعد أن شارك هو في الأثم.

العجز واليأس والتردد في حسم المواقف هو ما جعل هذه الشخصيات تتألم وتتعذب وتشقى وتموت معتقدة ان القدر كان قد قدّر ذلك.

التكرلي وشخصياته:

يقف التكرلي خلف هذه الشخصيات باثاً أفكاره وكأنه يقول: لا ليس القدر، بل هناك ما هو اكثر واقعية: انها العلاقات الاجتماعية شبه الاقطاعية، المتخلفة، انها الاسباب الكامنة في طبيعة النظام السياسي السائد (آنذاك أوائل ستينات هذا القرن في العراق)، وفي تفتّت الوعي الذاتي للقوى الداخلة في الصراع ، وفي تركيبة الاسرة التي تستمد قوّتها من علاقات اجتماعية بائدة، عمادها التقاليد، واخيراً في تخلف ذلك الوعي الذي مسخ الانسان وشوه شخصيته.

في «الوجه الآخر» الكل يتجه الى هاوية مظلمة، عميقة الغور، تتدهور فيها وتتدمر أكثر وأكثر امرأتان تشوهتا بفعل الضيم والاضطهاد المركب: «سعديّة» يصيبها العمى، فتتحول الى مسخ يبكي ويلطم، و«سليمة» بنت الخامسة عشرة يزوجونها من مراب عجوز «تلك المجموعة من العظام الصدئة التي يدعونها سيد هاشم تضم كل هذه الليونة والبضاضة والفتوة، الا يتضمن هذا الوضع في اساسه جريمة لها عقاب عليها؟»

أما في «الرجع البعيد» فهناك عدة نساء يختلفن في موقفهن من الحياة، وهنّ جميعاً عاجزات الا منيرة، فهي رغم كونها ضحية الا انها ذات شخصية حسمت كثيراً من الامور: طردت عدنان وبعده كرومي، ثم راحت تتخلص من القيد الاقتصادي الذي يربطها بالاسرة في سعيها الجاد للعمل في التعليم في أقرب فرصة، اذ انهاتدرك ان خلاصها الاقتصادي -اعتمادها على نفسها في العيش مع امها- يخلّصها من الكماشة الاجتماعية في بيت الاسرة الكبيرة، وبذلك تكون سيدة نفسها، وحدها تقرر مصيرها دون ان يتدخل احد في ذلك، عكس «مديحة» التي بقيت في فخ الاضطهاد الاسري بعد ان تركت وظيفتها وانشغلت في المطبخ مع سناء. لقد برع التكرلي في ذلك حينما طرح قضيّة فكريّة مهمّة صاغها في حالتي منيرة ومديحة، فخلاص منيرة ووعيها ونقاؤها متأتّ من خلاصها من العلاقات الاجتماعية التي أفلتت من ربقتها بعد ان هيأت لها وظيفتها لقمة العيش دون ان تقع ضحيّة أب أو أخ أو زوج.

لذلك لم يستطع اي من افراد اسرة عبد الرزاق الحاج اسماعيل ان يستعبدها حتى العجائز التافهات حاولن اكثر من مرة مسّ شخصيتها الا انها بقيت منيرة: المحبوبة، النور، والشمس، بقيت الخلاص، والمستقبل الذي يتوّحد مع الصغيرة سناء، لشق ظلمة

ذلك البيت العتيق، ذلك الماضي، ذلك الظلم والاضطهاد.

منيرة كأي امرأة تعيش في مجتمع متخلّف تعاني من اضطهاد مركب: اضطهاد اجتماعي، واضطهاد اسري (من قبل الرجل) فالرجل الذي اضطهدها كان عدنان بعد ان اغتصبها، اكان يجب ان يكون خلاصها اذن بواسطة مدحت حين تزوجها؟ غير ان الاخير كان قد هرب وتركها لمحنتها: لم يخلصّها قدر ما أهانها، واذلها بقراره، ولعله اراد ان تحسّ بانها مجرد بغي، لا تستحق الزواج منه، رغم انه لم يفكر بذلك عبر مونولوجاته، ولكن موقفه هذا نابع من لا وعيه الذي أنبجس من عمق اعماقه، معتبراً المرأة بلا بكارة مجرد بغي: فشرف المرأة في بكارتها، وهكذا مفهوم الناس، ومفهوم مدحت الذي لم يستطع الخلاص من مفاهيم اسرته السلفية، وبهذا فان خلاص المرأة لا يتم على يد الرجل، لان لرجل اصلاً بحاجة الي من يخلصه من مفاهيمه، من استعباد العلاقات الاجتماعية له، ومن تاريخ كامل من الاضطهاد، والاستغلال والجهل، وبذلك فان خلاص المرأة من الاضطهاد يعني خلاص المجتمع نهائياً من كل انواع الظلم ان كان اجتماعياً او اسرياً.

القدر ذلك الشبح الجائل في ثنايا الرواية، هل كان قدراً موت فؤاد؟ هل كان قدراً أن تعيش منيرة والعار يجللها؟ هل كان قدراً بقاء كرّومي عاجزاً؟ هل كان قدراً موت مدحت؟

لا أظن ان التكرلي الذي يوهم بذلك يعتقد بذلك. فالواقع المتخلف القاسي في البيت، والصراع المحتدم في الشارع، واللاوعي بطبيعة مجرى هذه الامور، الا بعد الاصطدام بها، هو ما دفع الفاجعة الى ذروتها، فمدحت لم يكن ليموت لو كان واعيا وضع منيرة النفسي والاجتماعي، لو كان قد كلّمها وفهم مشاعرها، وحسين ماكان ليضيع هذا الضياع لو كان يستطيع ان يعيش سعيداً مكتفياً، لو لم يكن فقيراً، وعدنان لم يكن ليرتكب فعلته لو لم يكن يعيش في مجتمع يعاني من تشنّجات جنسيّة، وهيجانات سياسية....الخ.

اذن ليس هناك قدر، بل تاريخ ومجتمع وعلاقات، وضعف انساني، واضطهاد، واستغلال، ونزعة للحياة واخرى للموت، كانت السبب في كل الفواجع البشرية، التي ابتدأت بمأساة بروميثيوس ولم تنته حتّى الآن.

الرجع البعيد / رواية / فؤاد التكرلي / دار ابن رشد / بيروت / ١٩٨٠ / الطبعة الاولى.

زنقة بن بركة

إزدواج بنية الحرمان في البيئة المغلقة

سلام ابراهيم

اذا أخذنا في الحسبان الضعف النسبي للتقاليد الروائية العراقية وتخلف الرواية مقارنة بالشعر والفن التشكيلي والقصة القصيرة، يمكن اعتبار رواية الكاتب العراقي محمود سعيد «زنقة بن بركة» الصادرة عن دار الكرمل في عمان ١٩٩٣، والتي ذكر كاتبها في رسالته لي انها منعت من النشر في العراق عام ١٩٧٠، يمكن اعتبارها روّاية متقدمة ومهمة في سياق دراسة الرواية العراقية لأسباب ستظهر لاحقاً.

جاء نشر الرواية في وقت تشهد فيه الرواية العراقية نهوضاً يبشر بظهور كتاب جدد أتاح لهم الاستقرار النسبي وفسحة الحرية في المنفى تأمل التجربة العراقية الزاخرة بالتراجيديا واللامعقول في احداثها الدموية ومناخاتها العجائبية التي تتناص مع مناخات اساطير العصور القديمة وخرافات المخيلة الشعبية في العصور الوسيطة.

رغم ان الرواية تبني عالمها في بيئة غير عراقية -المغرب اواسط الستينات- إلا انها كشفت لنا بنية الازدواج التي تعاني منها شخصية المثقف العراقي المترعرع في بيئة اجتماعية متزمتة ضاغطة، وما يخلقه التصادم بين الحرية الداخلية، التي تطلقها الثقافة والتجربة وصلادة واقع مغلق قاس، ولا سيما في موضوع المرأة والجنس الذي لم يقترب النص النثري العراقي منه الا بحذر شديد، ونظرة سريعة لنتاجنا القصصي والروائي تبين لنا أن ثمة طهرانية وتحديدات مسبقة وتحفّظ والتزام بثوابت جعلت من المرأة مقسّمة تقسيماً جبرياً بين السقوط والعفاف، العاهره والأم.

أما بينهما فلا وجود لغير الحبيبة الحلم، أما نوازع الغريزة، وهواجس الليالي فلم تظهر الا لماماً وبحياء شديد، وذلك تأتي برأيي من طبيعة الواقع الاجتماعي المغلق، وقمع السلطات الشديد، وطهرانية الايديولوجيا التي ألقت بظلالها القوية على الأدب العراقي عامة والنثر خاصةً. ثمة استثناءات قليلة جداً ففي دراسة الدكتور عبد الإله أحمد عن «القصة العراقية» الصادرة عن وزارة الاعلام العراقية في نهاية السبعينيات بجزءين تناول بالتحليل مخطوطة رواية مكتوبة في الاربعينات للكاتب المبدع فؤاد التكرلي أحد أهم رواد القصة القصيرة الفنية. ويذكر انه حصل عليها منه لاغراض الدراسة فقط وهي عن عسكري متقاعد قضى عمره في المعسكرات يجد نفسه غريباً في آخر العمر ينظر بعينين شبقتين الى جسد ابنته المراهقة في اشكالية انسانية بالغة التعقيد. لكن لم يجرؤ التكرلي على نشرها رغم مرور ما يقارب النصف قرن على كتابتها ورغم تواجده في تونس منذ سنين.

هذا يكشف لنا بدوره عن انغلاق المبدع العراقي.. فهو نتاج للواقع مما اسهم في الانغلاق على مستويين الواقع والنص وأفقد النثر العراقي نضارة كانت ستمنحها الحرية الداخلية الضرورية للابداع وبالتالي ادى الى تخلف النص الروائي العراقي عن مثيله في مصر ولبنان والمغرب العربي، والأمثلة كثيرة على ذلك، أقربها ما تزخر به الرواية المصرية من حرية بالموضوعة المذكورة جعلتنا نطلُّ على العالم الدفين لكل من المرأة والرجل كرامه والتنين لا دوار خراط، وموال البيات والنوم لخيري شلبي وغيرهما.

من ناحية اخرى وجدت برواية زنقة بن بركة براعة في الصنعة تفتقر لها الكثير من روايات شابة يصدرها كتاب عراقيون في المنفى. وهذا ما ساتناوله لاحقاً بفقرة مستقلة.

يظهر انغلاق شخصية المبدع العراقي في بنية الرواية بجلاء، فهي مسرودة بضمير المتكلم «معلم عراقي- سياسي سابق اضطر الى الهجرة للعمل في المغرب العربي هرباً من القمع والبطالة المتفشية في اواسط الستينات» لكن الراوي يتحاشى الافصاح عن ماضيه وتجربته في المكان الأول وما اعتملت به الدواخل ازاء المرأة والجنس هناك وكأنه لم يزل مرتدياً القناع الصلد الذي يرتديه كل من ترعرع في بيئة متزمتة مغلقة. بينما نجدهُ في البيئة الجديدة -المغرب- المتحرره نسبياً يطلق العنان لدواخله وهواجسه وغرائزه المكبوتة فاتاحَ لنا تامل بنيتنا الدفينة في ضوء النص وهذا فضل الرواية الأهم.

تتجمع احداث الرواية وتطورها في بؤرة واحدة، فالراوي يتعلق بـ «رقيه» الموظفة في الخطوط الجوية المغربية التي سكنت في شقة قريب لها تجاور شقته في «المحمدية»

مكان عمله وهي مصيف، بينما تتعلق هي بـ «سي الحبيب» صديقه السياسي المبعد عقب الأحداث العاصفة في المغرب اوائل الستينات. حول هذه البؤرة الثلاثية -١- الراوي -٢- رقية -٣- سي حبيب تشتجر الشخصيات قرباً أو بعداً على قدر علاقتها بالمثلث المذكور، فتنضفر الرواية في حبكة متينة تنمو من نقطة على السطح لتبلغ ذروة واحدة تجعل السارد يكف عن الكلام.

سأحاول تتبع ما فلت من بنية الراوي المغلقة من بوح متشظ بحنايا النص استوجبه مسار السرد ووجهة المشاعر والاحداث جعلنا نلم بتكوين الشخصية في المكان الأول -العراق- قبل القيام بتحليل سلوكه في الفضاء الجديد «- أيحلم الغريب بأكثر من ان يجد كل ما يحتاجه على بعد لا يتجاوز عشر خطوات من البار الى الجزار؟. احسست بعد خمس وعشرين سنة من الحرمان والاضطهاد والقسوة والصراع السياسي والسجن والفصل والعطالة بأني سقطت في جنة يحسدني آدم عليها»ص٧ هكذا تستحيل الحياة السوية جنة لمن يقدم من بيئة مغلقة ضاغطة محتدمة بالصراعات والقسوة. أما عن جفاف وخشونة الواقع الاجتماعي في المكان الأول فيسر لنا الراوي شيئاً عنه عندما اخذته رقية الى شقة صديقتها في الدار البيضاء بحضور المغني وعشيقته: «-كنت محروماً في حياتي من الغناء سوى ما اسمعه من الراديو، وفي الملاهي الحقيرة المبتذله، في بلادي لم احضر قط أي حفلة عامة أو خاصة-»ص ٢٠٦ أما عن طفولته، فقد شطح به السرد وهو على الشاطئ بصحبة البقال وصاحبه والفتيات المراهقات الثلاث:

«- اخذ خمستنا يلعب الكرة، كنت الحلقة الضعيفة، كان الجميع يمارس الرياضة على الشاطىء منذ الصغر وهذا امتياز لم احظَ بشرفه في طفولتي البائسة» ص١٥٥

من خلال هذه الشظايا التي لا وجود لغيرها في النص نستطيع تشكيل بنية الراوي في معادلة تلقي الضوء على طبيعة الواقع الاجتماعي العراقي المغلق والقاسي:

طفولة بائسة (قمع العائلة)+ شباب محروم (قمع القيم)+ سجن، فصل من العمل (قمع الدولة) هذه لبنات الراوي، فكيف تسلك هذه الشخصية عندما تجد نفسها واقعة في فضاء حر نسبياً؟ وما هي عواقب انغلاق البيئة الاجتماعية على النفس الانسانية. سأحاول تتبع العواقب الفادحة في نفس الراوي وذلك بتحليل تصرفاته وردود أفعاله في خضم تشابك أحداث الرواية للوصول الى فحوى التشوه اللاانساني الناتج عن فعل الحرمان والقسوة.

منذ الصفحات الاولى يضعنا السارد في اشكالية بنية البيئة المغلقة الا وهي فصل

خليط الحياة وشؤونها، وعفوية العلاقة بين مناحيها، الى اقطاب معزولة: الجنس، السياسة، الحب، اقطاب تتوازى دون تفاعل في الذات، ففي حوار يجري بمكتبة المدرسة يقول مديرها سي صابر مخاطباً سي الحبيبِ السياسي المبعد:

– لكنه في بلاده لم تكن عنده سوى السياسة وهذا يشوه الصورة.

تساءل سي الحبيب: كيف تتطلعون للمستقبل أذن!

– ما علاقة الجنس بذلك؟ ص١٣

يكشف تساؤل الراوي المدهوش عن قطبية التفكير التي أشرنا اليها، وطهرانية قطبية ايضاً في النظرة للمرأة حبيبة (أم، أخت، زوجة) عاهرة.

فرغم يسارية افكاره التحررية الداعية الى المساواة وتحرر المرأة التي تعني ضمناً انطلاقتها وتحررها الاقتصادي والجنسي، نجده لا يدرك فحوى دعوته فاضحاً تزمته الاخلاقي ذا المنابع الدينية الرابطة النضال بالعفة، والمناضل بطهرانية الراهب. من هذا الحوار سندرك اي كبت مارسته الذات على غرائزها الطبيعية التي لا بد ان تحفر في اعماق الكائن عالماً سرياً ضاغطاً، يكتظ بالشهوات المتوارية في الاجتماع، والطاغية في الانفراد والمخيلة فتترسخ بنية الحرمان شاطرة الذات الإنسانية الى نصفين، ظاهر طاهر، وداخل متشه.

مَن ميزات ازدواج الشخصية المكبوتة عدم اتساق الاحساس مع الواقع، الرغبة مع الفعل، اذ يتجاوران في خطين متوازيين، يموه احدهما الاخر دون ان يتفاعلا كما هو حال الذات السوية التي تجد ردود فعل متسقة مناسبة، متزنة تساعدها على التواشج والتداخل بالآخر وبالموضوع.

أما بحضور الانثى فتبلغ الذورة في عدم الاتساق وتكون مرتبكة بطيئة الاستجابة تتصرف بما لا يتناسب مع الموقف وتنتبه لاحقاً عند الاستفراد بذاتها، وهذا شأن الراوي طوال النص يسلك بطريقة تتناقض مع رغبته وغرائزه المدماة بإرث ثقيل طويل من الحرمان، أذ تستمر البنية في فعلها رغم وجودها في فضاء حر مفتوحٍ، فنراه يزهدُ في التنفيس عن حرماناته متذرعاً بتعلق طهراني ظاهراً شهواني باطناً بواحدة لا تكن له مثلما يكن لها من مشاعر، ليس هذا فحسبَ بل متعلقةً بآخر يرتبط معه بعلاقة تتمتن يوماً بعد آخر. والراوي واع لإلتباس الموضوع ولاشكاليته الروحية، لجفاف طبعه، وارتباكه بحضور الاخر المنفتح والمنساب بعفوية:

«ولما كنتُ اعلم بعد رصد طويل لنفسي، انني ارتبك بشكل مخجلٍ في كل موقف

يتطلب مني مواجهة تلقائية للتنسيق بين حالة هيام روحي وما يتطلبه من تصرف ملائم...»ص٢٩

ورغم هذا الوعي يستفحل الارتباك مع تطور علاقته بـ «رقية» المغربية المنطلقة بعفوية غير مثقلة بمشاعر دونية في مسلك صريح وجميل ومتين، وحضاري، غير مفهوم لمن تصحّرت دواخله في بيئة اجتماعية صارمه بتحديداتها، فأين له أن يدرك ان ثمة صداقة دون جنس بين رجل وامرأة غريبة جريئة تبات في شقته وتستخدم حمامه؟ أينَ له ان يدرك من إكتسبت أعماقه استقطاب لونيَ الظلام والنور دون تدرجات وتلاوين بين حديهما، نهارعفيف، وليل داعر، ظاهر شريف وباطن سافل؟ بنية الحرمان تظل مشلولة رغم الوعي بها. فعندما تضع اصبعها على شفتيه لتمنعه من الكلام في حركة سوية بين صديقين تنعكس في داخله بطريقة مختلفة ونجده يدين جفاف سلوكه المتعقل، المشلول: «حسدت غيري لمقدرتهم على التصرف بمثل هذه المواقف في تحقيق مايصبون اليه في قالب من المزاح ، كان بأمكاني ان اقبل الاصبع الجميل ان اعضه، غير اني لم افعل، ادنت نفسي ، تعقل لا طعم له» ص٣٠ هذا في حضور وهم الحبيبة، أو الحبيبة المفترضة. أما في التواجد بوسط انثوي مفتوح، متحرر ، فيتلخبط كل شيء، القيم، الحب، الصداقة وتضيع كل اعتباراته القديمة المبنية في معادلات مكانه الاول المنغلق، فتكشف بنية الحرمان فداحتها، اذ ينفتح في اعماق «العراقي المحروم» أرث شهوات لا تعرف وجهتها ، ولا ضابط لها، تضرب ضرب عشواء متجردة من معقوليتها، لا تعرف بغيتها المحددة بل يثيرها مرأى الجسد الانثوي ، أي جسد. كل ذلك يجري في أتون الداخل المضطرب دون تصريح بل يلبس الظاهر قناع العاشق الفرد المخلص الشريف المدله بواحدة لا غير.

لندرس تجليات هذه البنية في النص والتي تكثفت في مشهد اجتماعه في شقه زينة بالمغني وصاحبته (الشهبا فاطمة) عندما استصحبته «رقية»معها. فمنذ لحظة الدخول يتلخبط كل شيء.. وهو يحدق بجسد «زينة»:

«واذا تركت وحيداً اتكيء على الباب لاحظت مفاتن جسدها تتراقص حينما تسير وابطها يدفع بعض الشعيرات الى الظهر وإليتاها منضغطتان تحت مثلث صغير أخضر، وكنت بدون شعور قد اثرت كما حدث بضع مرات خلال الطريق مع رقية، لكن الظلام هناك يستر الاثارة. أما هنا فكان عليّ أن استبعد الاثارة بالتذكر القسري لأشياء محزنه»ص١١٢

ان روح التلصص تتلبس الشخصية المزدوجة المحرومة التي بنت عالماً سرياً يقوم على اساس الغريزة المقموعة والرغائب المتأججة في ظلام الدواخل الدفينة حيث تحكم حلقة التشوه دورتها. فبالاضافة الى تشظي اتجاهات الرغبة في وسط انثوي متحرر، تأخذ روح التلصص الدونية ابعاداً غير اخلاقية ولا منطقية مدعومة بصحارى شاسعة من الزواجر والحرمانات، فنراها عمياء لا حدود ولا معايير تضبطها. فالسارد يتلصص على الانثى الثالثة في الجلسة رغم التصاقها بصاحبها المغني:

«جلستُ، ففتحت حيّزاً أكبر في الصدر بحيث بدا تكور النهدين واضحاً فيما شعت الحلمتان الكستنائيتان ببريق مذهل، أُثرتُ من جديد، فجلست كي اخفي موضع الاثارة» ص١١٢ ويبلغ ازدواج بنية الحرمان الذروة في نهاية المشهد المذكور فبعد ان اشتهى النساء الثلاث نجده يرفض مضاجعة «زينة» رغم انها اعتنقته وحاولت سحبه الى غرفة النوم لابساً قناع المحب الشريف الطهراني الذي لا يعرف الخيانة، حبه لرقية الحاضرة:

«لكنها احاطتني بذراعيها وهوت بفمها على فمي، فيما اندفع الكل بضحكة قوية جعلتني اخجل واحاول ابعادها بالرغم من ان جسدها الساخن أخذ يذيبني» ص١٢٥ تتجلى بنية الازدواج في اخلاقيات «الراوي» واقطاب البنية المتوازية المشكلة لوجهة النظر في الربط بين النضال والعفاف، وما عداه بالغريزة وذلك بابراز ابنة الشهيد «زهرة» طالبته المراهقة كملاك جميل، طاهر، خجول يكن لها مشاعر ابوية تثير دهشة القارىء بينما يتجرد من مثل هذه المشاعر في نظرته لطالبته «الشهبا» التي بسن «زهرة» فيصفها بجمل تلهث شهوة: «اخذت تكشف متعمدة مساحة لذيذة فوق الركبة» ويبدي اسفه وندمه للبسه قناع المعلم الموجه: «آخر السنة اكتشفت ان في تقاطيعها جمالاً متفرداً غريباً وقوة جنسية ونضوجاً هائلين» ص١٢٧ والطهرانية الشكلية لدى المزدوج تجعله يشعر بالانحطاط عند التفريغ «تفريغ الرغبة» عكس الكيان المتماسك المتسق، ففي بيت البغاء نجده يشعر بدونية فظيعة عند مضاجعته لعاهرة: «نهضت مضطرباً الى الغرفة الثانية بوطأة رغبة اللذين سبقاني مخلفين عرقاً، رائحة، ظل وجود، هلاماً جذامياً يتآكل في الروح مسخني حيواناً متوحشاً دقائق معدودات».

اصل من كل ما تقدم الى خلاصة جوهرية مفادها ان المثقف في المجتمعات المنغلقة، ترتد احلامه الحرة وتتكسر في الداخل لصلابة وقسوة الواقع بقيمه الثقيلة مما يخلق كياناً مزدوجاً مشوهاً تنقلب لديه الأحاسيس والمفاهيم وتستحكم في مثل هذه البنية

اخلاقيات الظلام، غير السوية، كرد فعل طبييعي لشدة العوامل الكابتة والقامعة، ولعنة هذا التشوه تلاحق الشخصية حتى عند انتقالها الى بيئة حرة، وكمثال من النص نلاحظ في المقتطف التالي اخلاقيات التلصص الراسخة: «لم اتوقف الا في شقتي حيث منحتني رؤية المفاتيح التي صنعتها وانا في حالة سكر شديد للشقق الثلاث شعوراً اشبه بشعور المتلصص على لذائذ الآخرين مغلف بتمييز متفرد لملكية سر لا يعرفه الغير»ص ١٣٠ قليلة هي النصوص الروائية العراقية التي كشفت أو تناولت الموقف من الجنس بجرأة ووضوح مثلما فعلت «زنقة بن بركة» بتركيز دقيق وعفوي مضيئة بنية المثقف، الانسان العراقي، في بيئتنا المغلقة، وما احوجنا الى المزيد من النصوص المتأملة غوراً وبجرأة في القيعان العميقة المكتظة بالاسرار للدواخل المقموعة بالمثلث الرهيب، القمع العائلي+ القمع الاجتماعي+ قمع الدولة، وما ينتجه من كيانات مشوهة وقاسية تعيش بأنصاف وجوه في البيئة العراقية الصارمة.

تقنيات الرواية واسلوبها

اعتمدت الرواية الاسلوب الواقعي وبتقنيات سردية تقليدية في بنائها المتين، فتناغم الوصف الخارجي مع وصف المشاعر وما يجري في ذهن واحاسيس الراوي –بضمير المتكلم– بوجهة نظر احادية توازت مع وجهات النظر الاخرى من خلال الحوار الذي احتل مساحة كبيرة من السرد. وهذه نتيجة منطقية لاحكام وشروط ضمير المتكلم في الاسلوب الواقعي المحدد بالسرد الزمني المتتابع للاحداث دون الغور في انعكاسات هذا الواقع في المخيلة والاحلام. فلم اجد حلماً واحداً في النص الممتد الى ٣٠٨ صفحة من القطع المتوسط، مما جعل من بنيتها تقليدية، لم تستفد من أبعاد الواقع الاخرى المكتظ بالاحلام والهواجس والاخيلة، فلوجرت الاستفادة من الوحدات المذكورة لتحطم التسلل السردي الزمني المتتابع، لتخلصت الرواية من مستواها المنطلق من سطح الى ذروة واحدة فأصبح شأنها شأن حبكة رواية بوليسية، (وهذا ساعود اليه لاحقاً) ولربحت عمقاً معرفياً وانسانياً يجعل منها واحدة من الروايات الانسانية المهمة، اذ ان تحرير المخيلة بأحلامها وزمنها المتشظي، والملتم في بؤر تكثف التجربة الفردية والجماعية وتضفر الاحلام بالامكنة بالماضي بالحاضر بالقادم. فالذات المعروضة في النص غير مبررة ولا معقولة، وتوازنها المفقود غير مفهوم لمن لم يعش بيئة مغلقة. وهذا خللٌ جدي في بنية الرواية التي عتّمت ماضي الشخصية واعرضت عن تفاصيل البيئة المنتجة لهذا النمط من

البشر الذي وجد فيها، يعبر بصدق عن اضطراب المثقف الحر المتبلور في بيئة صارمة في موضوع حيوي يخص اساً من اسس الوجود البشري، الا وهو الحب والجنس. واعتقد ان ذلك يعود الى انغلاق المبدع العراقي وخشيته من الخوض في غمار موضوع كهذا يلقي بظلاله الثقيلة على بنيته وكيانه. وليس أدل على ما ذكرناه من نص «زنقة بن بركة» الذي تعامل بحرية مع البيئة المغربية، وبحذر شديد مع البيئة العراقية. لو توفرت الحرية لدى الكاتب في الخوض بتفاصيل التكون الاول لانعكس ذلك على بنيه الرواية واسلوبيتها، ولتحرر الراوي من أسر الحاضر اللاهث مفسحاً المجال للتأمل المتأني الدارس خبايا الذات والامكنة وما يستتبع ذلك من تقنيات، كالتداعي والاحلام، ولما تجمعت خطوط العمل بذروة واحدة، ولأصبح للنص ذروات عديدة مفتوحة كحال الرواية الحديثة.

وفيما عدا ذلك، كانت الرواية امينة لعناصر بنائها التقليدية، فحبكتها متينة تحاكي بمفصلها الاخير حبكة رواية بوليسية متقنة محسوبة عناصرها بإحكام، والجملة السردية قصيرة، مناسبة بلهاثها لاضطرابات السارد الداخلية واحتدام غرائزه المنفلتة، ومتناسبة مع منحى حبكة التشويق التي وظف فيها محمود سعيد خبرته والمامه الواسع ببنية الرواية البوليسية. فجاءت الجملة السردية متينة رغم بساطتها، والكلمات منتقاة بدقة للتعبير على قد الحالة الشعورية دون اطناب، وبتلقائية نابعة من موهبة أصيلة.. حتى ان الجملة السردية تبلغ مصاف ذروة شطحة صوفية: «كنتُ ألتهمها، جسدها، روحها، ضحكتها، يا الهي، انني احترق ولا شك ان روحها هي التي تحرقني، وجسدها عملاق من الحسن والوجد والنار يسد عليَّ المنافذ» ص١٧٣.

والكاتب يبني شخصياته الروائية متبعاً اسلوباً محبباً اذ يدخل الشخصية اولاً بنسيج الاحداث المتنامية وبتبريرات فنية معقولة تجعل من القارىء يتوق لمعرفة المزيد عنها قبل أن يوجز تفاصيلها الاجتماعية وشرطها الوجودي. هذا ما فعله مع «سي ابراهيم»، احدى الشخصيات العابرة لكنها المهمة اذ انني وجدتها تتناغم بجدارة مع تكوين شخصية الراوي المتناقضة، ففي حواره مع «سي عربي» النائب في البرلمان المغربي، وهما في جولة طالت أحزمة الصفيح المحيطة بالدار البيضاء مروراً بعمارات العمال السكينة، يستخدم السارد تساؤل النائب عن مدى معرفته بالعمارات المذكورة، ذريعة فنية، يأخذنا بواسطتها الى غرفها الضيقة البائسة وممراتها المعتمة، حيث يأخذه «سي ابراهيم» السكير الذي تعرفّه في بارٍ الى شقة تسكنها زوجة اخٍ مزعوم. اي ان الراوي

دمج «سي ابراهيم» بنسيج الامكنة والحدث والحوار قبل ان يزخ للقارىء المنتظر بلهفة لمعرفة فحوى كينونة شخصية السكير الغامضة: «كان سي ابراهيم مزيجاً من كل متناقضات الحياة، شجاعة وضعفاً، كذباً وصراحة، كرماً وافلاساً»ص١٣٨ ويلاحظ براعةً في الانتقال من ذروة لاهثة الى وصف متأن يعمق الاحساس بتوتر المناخ. ان تناوب التوتر والاسترخاء يمنح القارىء متعة خالصة كمتعة الانصات لسمفونية كلاسيكية تجعلنا نسرح وننتفض بغتةً من السرحان مرعوبين، فالمقتطف التالي يبدو ظاهراً وكأنه سرد لاحداث متتابعة، وهو كذلك لكنه بعفويته يحمل ما رصدناه من تناوب الذروة والقاع ومتعة.

تناقض ايقاع النص

«لم ادر متى سمعت الصرخة بالضبط. كانت المرة الاولى، ولست ادري، أستكون الاخيرة التي أسمع بها تفجعاً ورعباً بمثل ذلك العمق المأساوي الشديد.

فتحتُ عيني كان ضوء الصباح غامراً كل الموجودات ووشيش صاخب في رأسي، وتساءلت فيما لو كانت تلك الصرخة رعشة حلم انتهى او تخيلاً مريضاً، وحاولت ان اعود للنوم من جديد، لكن ارادتي قطعتها ضربات شديدات على بابي ثم اصوات اقدام راكضة.

لا ليس ذلك بحلم، حدث ما كنت اتوقعه» ص٢٨٣-٢٨٤

اكتفي بهذا القدر لأقول اخيراً ان محمود سعيد قدم لنا في «زنقة بن بركة» ومن خلال حبكة متينة، لوحة لطبيعة الحياة الاجتماعية والصراع السياسي في اوج احتدام ستينات هذا القرن في المغرب. فرأينا الفقر والدعارة، الادمان والبؤس، وصعود طبقة طفيلية مرتبية كدست المباهج والثروات على حساب املاق الكادحين الملتفين بأحزمة الصفيح المحيطة بقامات المدن الكبرى، وكل ذلك وجدناه منثوراً بعفوية في سياق منشغل بالحب والجنس. وبذلك تخلص النص من مطب المباشرة الذي طالما سقطت وتسقط به العديد من النصوص الروائية العراقية.

الدانمارك، نيسان ١٩٩٦

قراءة في رواية «الحرب في حي الطرب»

حين نبتعد قليلاً عن التقليدي

كريم حسين

لا اظن ان شعبا خبر زيف واذلال الحروب كما خبرها الشعب العراقي خلال هذا المجتزأ الاخير من قرننا اللاهث صوب المجهول.

منذ ١٩٨٠ وهو يخوض في اوحال حرب يبدو انها لا تريد ان تنتهي، تغيرت ديكوراتها ومواضع جبهاتها بين الداخل والخارج، تناثرت اشلاء ضحاياها تغطي زوايا البلد ولما فاضت ملأت الدنيا، كالمأساة حين تبدأ بفكرة مجنونة لتصل الى ركام، هكذا تشكلت الفكرة في رأس مغامر مولع بالخطط السرية والمؤامرات من امة مستباحة تبحث لها عن بطل منقذ يسترجع لها امجاداً وثارات تاريخية التبس امرها في ذاكرتها، وهي تراقب بانشداه اسطورة شعب صغير جمع على عجل من شتات الدنيا ليستبيحها ويذلها كما لم تذل امة في التاريخ الحديث والقديم. تدرع مغامرنا بما استطاع جمعه على عجل ايضاً من القاب قاموسية وسار يعلك اسماء الله الحسنى كما تعلك مومس مخمورة علكتها المدوخة، مهيئاً ذاته المصطفاة لانقاذ الامة المهانة ... هكذا بدأت الفجيعة وهي لم تنته بعد. كم شاعراً وفناناً وكاتباً سنحتاج، اذا سلمنا ان هذه الكائنات هم مرآتنا التي نطالع بها ادراننا وموبقاتنا واحلامنا وفداحة ما جرى ويجري. واذا كان للفجيعة ان تكتم انفس الكائنات وتخمد احلامها وتجفف حتى الدمع في مآقيها، فهل يتسنى لها ان تسكت ذلك الصوت المتمرد ابداً، صوت المبدع؟

روايتنا تخوض في هذا الوحل، رواية من صنف روايات الجنود، هكذا اصفها طالما لا

أجد في نفسي جرأة الاتيان بمصطلح «ادب الجنود». على لسانهم قيلت وهم من خاض احداثها وملابساتها. الحدث الذي اراده نجم والي، كاتبها، هو السنة الاولى من الحرب العراقية الايرانية، والمكان الذي اختاره ليس جبهة من جبهاتها بل هو (حي الطرب) على تخوم مدينة البصرة. بكل ما يحمل من ملابسات وعلامات استفهام كثيرة اراد للحرب ان تاتي الى هذا الحي عبر تداعيات الجنود الهاربين من الجبهات لتمتزج بحكايات غريبة الاطوار.

على غير العادة فيما درج عليه الكتّاب في التفنن باخفاء خطة عملهم، فاجأنا الكاتب في ثنايا الصفحات الاولى بافشائه لذلك السر ، هكذا اعلن ببساطة انه يريد من شخصية (عبد الحسن بدر) ان تكون مرتكز العمل والشاهد المحايد الذي تتجمع بيديه خيوط الاحداث، او ليكون المرآة التي تعكس «أنا» الكاتب: سياسي مطارد اختار المكان ملاذاً وقاعدة للعمل مستفيداً من قدرته على العزف على آلة العود وزواجه من احدى الغجريات سكنة هذا الحي، ليتوارى عن اعين مطارديه اولئك الذين يعرفون بسليقتهم الفاجرة ان هذا الحي قد يصلح لاي شيء الا السياسة. خطة عمل بسيطة ومكرورة، خصوصاً اذ يتم الاعلان عنها هكذا بلا رتوش وعلى لسان الكاتب. لكن لا تستعجلوا ارجوكم لانها في ذات الوقت كانت خدعة صغيرة اراد بها الكاتب ابعادنا عن خطة العمل الفعلية ، تلك التي بدت ملتبسة عليه هو الآخر. لنرى معاً مدى قدرة الكاتب على الابتعاد عن التقليدي وقدرة مرآته على تصوير الفجيعة.

سنحاول هذا ليس اعتماداً على ما اراده الكاتب واعلن عنه انما اعتمادا على ما قاله النص. يقيناً ان ثمة دلالات في كل نص لا تكون مقصودة في بادىء الامر للكاتب نفسه. لا ننسى بصدد الكتابة، العملية التي يعتصر بها الانسان ذاته ويتحول خلالها الى وسيط يكتب ما يملى عليه.. ليجد نفسه في النهاية امام خليط من التجليات الحسية مع تلك النابعة من اللاوعي الفردي والجمعي، هذه الدلالات هي التي يتوجب على القارئ او الناقد اكتشافها وفي هذا يكمن سر وخطورة النقد. لكن استدرك بالقول ان رؤيتي للعمل ليست رؤية النقاد، بل ببساطة ثمة رغبة تلبستني للخروج من طابور التلامذة الجالسين تحت رحمة الكاتب وهو يتحفهم بالحكم والدروس كما درجت الرواية عندنا.. او كما درج القارىء المتلقي الذي لم يُسمح له ان يكون غير ذلك.

بدا لي الكاتب في هذا العمل يحاول الهروب من منزلقين طالما وقع فيهما الكتاب من قبله: الاول ان لا يكون ضحية الوجه المقابل له من المرآة، لان الواقع ليس مسطحاً ابداً، قد

تكون مرآته مكعبة، او حتى بشكل هندسي غير معروف. هناك استدراك جميل اتحفنا به في ثنايا النص «تظهر امامي في بعض الاحيان استحالة الكتابة عن حرب لم اخضها انما عشت على حافتها او تلوثت بقيلها». وجدت في هذا الاستدراك عامل قوة حيث سيمنح الكاتب فسحة مطلوبة للاطلال على شخوصه واحداثه بعيداً عن الانفعالات الحسية التي تفرضها الحرب على الجنود ابطال هذه الرواية. الثاني كان محاولة مرتبكة للانفكاك من اسر الشخصية الرئيسية التي تجتر الامها واحلامها. البطل الذي ابتلى به الفن الروائي الى هذه اللحظة، البطل على طول الخط حتى في انتكاساته كأنه نبي وسط قومه، والذي يظهر لك في نهاية المطاف انه الكاتب نفسه. اراد الكاتب ان ينأى بعمله عن هذا المنزلق فقدم لنا مجموعة شخصيات متباينة الملامح تتحرك على مساحة العمل من البداية الى النهاية تاركاً لها حرية الحركة وربما حتى حرية الاختيار. سردت الاحداث على لسان أربعة من الشخصيات الرئيسية كانوا في الوقت ذاته بمثابة فصول للرواية دون أن يكون أحدهم البطل الذي ستدور حوله الدنيا. هكذا جاءت المحاولة مرتبكة، مبهمة بين تصريح الكاتب في قدرة (عبد الحسين بدر) على أن يكون محور الأحداث وبين تمرد الاخير على تلك الارادة وتحوله الى شخصية مضافة الى شخصيات العمل تجتر الامها ومواجعها لا يربطها رابط مع مواجع واحلام الاخرين الا في تلك النقطة التي تقاطعوا عندها جميعاً والخروج منها: الحرب، خلو النص من محور بشري مغامرة بحد ذاتها قد تحوّل العمل من رواية الى مجموعة قصصية موضوعها الحرب مثلاً، لكن في هذا تجلت قدرة الكاتب في التخلص من هذا المنزلق الجديد. وسواء كان الكاتب يقصد هذا او هو لم يخطر في باله اصلاً، بدا لنا يحاول ارتياد اسلوب جديد في الكتابة، يعتمد التداعيات غير المنضبطة الى خطة ما او التي كثيراً ما تتمرد على غاياتها. قد يكون في هذا نوع من محاكاة للرواية المعلن عنها في الغرب، تحديداً في فرنسا، في سعيها الى تحطيم كل البنى التقليدية للرواية وعلى رأسها اليقين، على خلفية فلسفية تذكرنا ان الواقع ذاته زاخر باللامعقول وغير المبرر. لماذا يطلب من الادب ان يعتمد المعقول واليقين والسببية في تبرير نفسه؟ وقد لا يكون في الامر اية محاكاة، الا ان الكاتب بالفعل حطم، من حيث اراد او لم يرد، واحدة من تلك الاسس الصلدة التي اعتمدتها الرواية: الشخصية الرئيسية او المحور البشري، تاركاً ساحة العمل مفتوحة الى محاور اخرى، اذا كان لا بد من محور يتماسك حوله العمل، ففي حالتنا هذه كانت الحرب هي المحور.

شخصيات الرواية ظهرت بمجملها ضحايا، ليس فيها الجاني، كلها مجني عليه

ومحكوم بالحرب، تجسدت على مستويين من الضحايا: ضحايا رافضة واخرى مستسلمة، الاثنان ضحايا فاعلة ، خاضوا الحرب وخيضت بهم، لم تأت فاعليتهم على شكل اعاقة لمجرى الحرب بل سارت على تواز مع فعل الحرب. المستسلمون انتهوا جميعاً الى مصير مفجع كفاجعة الحرب، والرافضون تدرج موقفهم من الرفض السلبي المقتصر على الشتائم والامنيات الى فعل تجسد في حادثة «حي الطرب» الذي لم يكن فعلاً مقصوداً، بل رد فعل على هجوم مفارز السلطة، كل الدلائل كانت تشير الى نية الهروب وليس الى المواجهة.

المستوى الاول من الضحايا جسدته ثلاث شخصيات ورابعة، هم على التوالي «علي محمد»، «جلال» ، و«عدنان قاسم»، والرابعة التي عطفتها هي شخصية «عبد الحسن بدر» هذا الذي تمرد على رغبة الكاتب المعلنة وهو لم يكن جندياً. المستوى الثاني شخصيات اخرى، الا انها ظهرت مهمشة او مكملة لهذه او تلك من الشخصيات المذكورة.

اراد الكاتب من شخصيات المستوى الثاني أن تعكس الوجه الحكومي للحرب، هذه الرغبة كانت واضحة، الا انه لم يسعفها بأية ادوات تبعدها على الأقل، عن صفة الضحية المستسلمة، تركها هكذا تردد ببلاهة واضحة مانشيتات الجرائد الحكومية وجمل اخرى كبيرة بدت غريبة على نمط تفكيرها، تأتي افعالها غير مقنعة مقطوعة الجذور ، ولم تنفع تلك الاستطرادات التي جاءت على لسان الكاتب للتعريف بماضيها، بدت مفتعلة ومبهمة وفيها اسقاط واضح لموقف الكاتب السياسي عبر احكام مسبقة وجاهزة عنهم. ربما كان بامكانه الوصول الى ذات النتيجة وادانة الوجه الحكومي للحرب، لو أنه سلط اضواءه بنفس القوة على هذه الشخصيات ، كما فعلها مع شخصيات النسق الاول مستخرجاً كل دفينهم وممهداً لكل فعل قاموا به قديماً وحديثاً، ليظهروا في النهاية شخصيات انسانية حقيقية فيها الضعف وفيها القوة وخزين من المتناقضات التي تجيش داخل كل شخصية انسانية، حيث الافاق مفتوحة على جميع الاحتمالات، كم بدا «عدنان قاسم» شخصية انسانية حقيقية ، فيه القوة التي تصل حد المأثرة في قتله «ملازم اول قاسم الحلو»، وفيه الضعف الذي يصل حد مضاجعه زوجة الاب، نتيجة كم هائل من الملابسات وضعه فيها الكاتب ، كذلك «علي محمد» والقوقعة التي وضع نفسه فيها: الخوف من الموت.

بداهة لا يملك احد ما يمليه على الكاتب، ماذا يفعل وكيف ، فالكتابة قبل اي شيء هي انفعال داخلي يكون تحت وطأتها الكاتب وسيطاً كما اسلفنا. تبقى المغامرة ليست بالسهلة على كاتب شاب قد تكون هذه تجربته الاولى مع الرواية حسب الدليل الذي

ارفقته دار صحارى للتعريف به ، امام مرآة واقع تفتقر الى شكل هندسي معروف.

جاءت الشخصيات النسائية في هذا العمل، محافظة على نمطيتها ، كما هي في الواقع، متلفعة بسوادها وحزنها الازلي، خاضعة لتركيبة معقدة من صنوف القهر والحيف والذعر، حتى تمردها اتى بشكل سلبي وشاذ، حين تمردت زوجة الاب القاسي الانتهازي – الوجه الحكومي كما اراده الكاتب وجدناها تضاجع ابناءه. ايحاء بما اراده لهذا التمرد السلبي. في كل الاحوال لكل عمل ناجح زوايا للنظر قد تتقاطع في بعض التجليات، حسب ثقافة ومستوى وعي المتلقي، وهذا ما يميز عملاً ناجحاً يدفع بالقارىء الى البحث والتقصي، عن آخر سطحي يشي بغاياته من القراءة الأولى.

الرواية جاءت في الاعم بضمير ، المتكلم مع تدخلات قليلة، وصفية في الغالب، اتى بها الكاتب بضمير الغائب للتعريف بالشخصية. معتمداً اللغة المستخدمة غالباً في الاعمال الادبية الحديثة، او كما وصفها توفيق الحكيم باللغة الثالثة، تلك اللغة الوسطى بين المعجمية والعامية ، التي تكون زاخرة عادة بالاستخدامات المحلية المفصحة، والتي برع الكاتب في توظيفها لخدمة الفكرة دون ان يؤثر على المستوى الانسيابي للغته، مثلما كان ناجحاً ايضاً في اقتناص الزوايا المناسبة للدخول الى الشخصية باستخدام الاثارة، الامر الذي سيجلب له قراء كثيرين ربما دون مستوى معين من الاعداد الذاتي.

اخيراً يبقى ذلك السؤال الذي لم اجد له جواباً وحيداً: ما الذي اراده الكاتب من اختيار «حي الطرب» ميداناً لمعركة رافضي الحرب مع مفارز السلطة؟ لعله اراد الاشارة الى وجه آخر للحرب لا يقل بشاعة وقذارة وشذوذاً عن سائر وجوهها.. معروف ما يعنيه هذا الحي في وجدان العراقيين، مكان يحوي كل ما هو شاذ ولا اخلاقي في المجتمع العراقي، ثم مشاهد الكويتيين وعموم الخليجيين بسياراتهم ودنانيرهم التي يتعاملون بها كانها اوراق لا قيمة لها امام ثورة الذكورية فيهم، استخدم في وصفه لهذه المشاهد فنتازيا نابعة من لا معقولية الواقع ذاته وهم يتوافدون طوابير منتظرة في لفح الحر على تخوم هذا الحي الكائن على خلفية جبهة ساخنة ، ما فتىء النظام يعلن بزهو انها جبهة العرب ويريد بذلك عرب الخليج.

تبقى هنا لوعة في القلب سببها هذه الظروف الشاذة التي نعيشها والتي تحرم الكاتب وقراءه معاً من متعة قراءة هذا العمل، لانه طبع في المنفى، الامر الذي يحد من توزيعه على نطاق واسع.. يبقى املنا في ما تأتي به الايام..

هولندا

«الموت والعذراء».. تجربة الأوجه المتعددة

سلام صادق

عند التصدي للمسرح العراقي في المنفى، يجدربنا ان نعتمد جملة معايير خاصة ومغايرة لما اعتدناه سابقاً عند رصدنا او تقييمنا لعمل مسرحي ينجز هنا او هناك. ان ما يضفي على معيارنا النقدي هذه الخصوصية جملة من العوامل والظروف الموضوعية والذاتية المستجدة في حياتنا وفي الحياة المسرحية ذاتها تبدأ بشحة الامكانات وتنتهي بتشرذم وتوزع الفنانين المسرحيين في شتاتهم مروراً بسلسلة طويلة من المثبطات والمعوقات البيئية والعملية او المادية والتي لا يتسع الوقت لحصرها. ومسرحية آرييل دورفمن، الموت والعذراء التي اخرجها الفنان لطيف صالح لفرقة مسرح سومر، لا تتخطى حدود هذه الخصوصيات والمسلمات. فهي مسرحية تكاد تكون قد خرجت للنور بجهود فردية خالصة وبامكانات بسيطة، ان هذا بحد ذاته ما يشجع للكتابة عنها وتناولها بالاضافة الى خصوصياتها الفنية والجمالية الاخرى.

لقد قام الفنان المخرج لطيف صالح بالعمل على النص الذي اعدهُ وترجمهُ سعدي عبد اللطيف حيث جرده من عنصريه الزماني والمكاني ليتلاءم مع عدد غير محدود من الحالات والمستويات المختلفة ظاهراً والتي تتشابه في جوهرها. وعن طريق تحرير هذين العنصرين من ابعادهما الدلالية وشحنهما بقيم انسانية عامة ذات محتوى يكفي لاقناع المشاهد بان ما يراه هو تراجيديا انسانية معاصرة وليست فنطازيا تنقل من بياض الورق الى الخشبة. ثم ان الحوار ذاته حين يتحرر من قوى الزمان والمكان يعطي

للمخرج الحرية الكاملة في مبادلة الزمان بالزمان، والمكان يعطي للمخرج الحرية الكاملة في مبادلة الزمان بالزمان والمكان بالمكان بقصد التقرب خطوة من الحالة العراقية لأن الذي حصل في شيلي يحصل يومياً في العراق والذي دام في شيلي قرابة خمسة عشر عاماً مازال يجثم على صدور العراقيين منذ ثلث قرن.

ان عنصر التخييل في النص قد تنازل عن غلوائه امام غرابة الحالة العراقية (حشد من الأطفال من مختلف الاعمار ملفعين بالسواد يدبون بصمت مهيب حول شاهدة القبر وبايديهم الشموع، ينتقلون بحركة كيروغرافية وئيدة تصاحبها موسيقى اختيرت بعناية تامة، لا تلبث ان تهدأ حتى يرافقها قرع طبول صاعق ينبعث من كل الزوايا كأنما الاجواء في ثورة تنتهي بطقس جنائزي). حتى تظن بأن المخرج انما يريد أن تتعدد الخلاصات والاستنتاجات عند المشاهد لتوسيع دائرة احكامه واختياراته، ليرى انتفاضة مغدورة او ثورة مؤجلة او ادانة للحرب وللكوارث التي فرختها، دون السقوط في المباشرة والتهريج او «الاستبطان الزائد».

ان الخلاصة الأهم تتمثل بلحظة المواجهة التي تتولد بعفوية تامة بين الطبيب النفساني الذي اشرف فيما مضى على عمليات التعذيب الجسدي والنفسي للسجناء السياسيين وبين زوجة السياسي (السجينة والمغتصبة سابقاً) وزوجها المتواطىء والمأخوذ ببريق السلطة والمرشح من قبل الرئيس لمنصب مهم في الجهاز العدلي، حيث تستجوب الضحية الجلاد، فالجلاد هو الضحية آجلاً بقطع النظر عن اختلاف الهم الانساني وشروطه، حيث التحول النوعي ينمو بهدوء غير متكلف على قاعدة من العذابات المشتركة للجلاد والضحية كلاهما. على الرغم من ان هذا التحول غير كيفي وانما تمليه مقتضيات الفعل المسرحي المبني أساساً على دلالات مجازية واستعارية، تبدو للوهلة الاولى كما لو كانت محددة الماهية غير انها عامة في جوهرها.

لقد لمست في النص المسرحي ثلاث صيغ مختلفة حسب قدرتنا التأويلية:

* عملية تأويل النص بمجمله بسيطة وغير معقدة بذاتها، لانها مبنية على ممارسات الصدفة البعيدة (التي تحكم مجمل حياتنا ونشاطنا الآن) – مسمار على قارعة الطريق يثقب اطار عجلة الزوج السياسي المسافر الى لقاء مهم يجمعه بالرئيس، فيقف على الطريق طالباً المساعدة فيهب لنجدته الطبيب النفساني بمحض الصدفة. ويكتشف الاخير بانه نفس الشخص الذي ملأ مانشيتات الصحف بصوره واعلاناته كممثل للعدالة الآتية ، فيتم التعارف بينهما بعد ذلك ويتكلل بلقائهما في بيت

السياسي، حيث يدور الحوار عن ماضي كل منهما ومشاريعه المستقبلية بينما تتدخل زوجة السياسي بعد استطاعتها تشخيص الطبيب وفتح سجله الاسود ومن ثم تقييده على الكرسي وتصويب المسدس نحو صدغه واستجوابه تحت التهديد.

* النص واضح في علاقته مع العالم ورغم عدم جهلنا للكثير عن هذا «العالم» فإنه يشكل البنية الدالة في ذاته عن طريق الذاكرة وبما ان الذاكرة لا تستعيد العالم بكامله كما يقال فان زوجة السياسي لا تتذكر اكثر من انها كانت ضحية للتعذيب والاغتصاب تحت اشراف الطبيب النفساني الذي يتلذذ بصراخ ضحاياه على موسيقى رباعية «الموت والعذراء» لشوبرت في سجنها السابق الذي هو عالمها الذي مازال يستحوذ على ذاكرتها رغم حريتها (البعد السايكولوجي) التي تقودها دوماً للبحث في ماضيها الذي يقودها الى حالات الانهيار والهستريا رغم سعادتها الآنية الظاهرة.
* النص يثير اسئلة ذات أهمية دلالية بالغة بعيداً عن الترمين، لكنها دلالية تعمد الى تكثيف الواقع وتعميقه دون السقوط في حبائل الرمزية المفرطة ولا نقيضها التبسيط المفرط وهو بهذا يفتح الباب واسعاً على رؤية احتمالات متعددة واستنتاجات ذات مستويات مختلفة في النص ذاته، وبذلك يطرح النص تساؤلات تصعب الاجابة عليها ليتمكن من إشراك المشاهد بفعالية وجعله كجزء مهم من العملية الفنية.

ان وقائع هذه التجربة المسرحية لا تتكشف امامنا بمجرد تناول الرحلة بين النص والعرض المسرحي، وانما تذهب هذه التجربة الى ابعد من (فكرة الكاتب–فكرة العرض) في التصدي لجملة مفاهيم تتعلق بما يفرزه النص وعرضه بشكل تكاملي من افرازات جمالية، زاد من فاعليتها المتغير التكنيكي الذي اعتمده المخرج «عامداً» ليضفي على التجربة برمتها أوجها متعددة يتعدد بموجبها انجاز الفهم لدى المشاهد حيث امتزجت الطرائق التعبيرية الاخراجية (بين تغريبية برشت وواقعية او تاريخية ستانسلافسكي) ان هذا بحد ذاته يشكل ظاهرة اسلوبية لها خصوصيتها المتميزة ، والتي لا يتسع الوقت لتناولها هنا بالتفصيل.

ثم ان المخرج لجا الى عنصري التجريب والاكتشاف وقام بصهرهما ومزج عناصرهما من اجل انتاج واقع جديد لحالة ليست بجديدة على المشاهد، في التعبير عن حقائق الوضعين السياسي والاجتماعي معاً، لتكون علاقة المشاهد بالعمل علاقة إنتماء ومعايشة ومعاناة أيضاً.

لقد قام المخرج بقطعه الخشبة من الوسط تماماً بغلالات شفافة تعكس ظلال الرقصات المتشنجة التي تتم خلفها، والتي تشكل خلفية ومدخلاً لطقس الألم الذي يحتل الواجهة الامامية من الخشبة ويحيلها الى بانتوميم صامت وعنيف ذي ابعاد دلالية ونفسية تنسجم مع ما يجري على الجزء المكشوف من الخشبة.

كما وفق في زرع مرايا عريضة على الخشبة ينعكس فيها الجمهور بكامله اثناء عملية الاستجواب. وهو بهذا انما اراد القول بان الجميع متهمون او انهم جزء من اللعبة وبالتالي جزء من العملية المسرحية او ما يدور على الخشبة.

اذن «الموت والعذراء» حلقة من سلسلة طويلة من الاعمال التي تم انجازها هنا وهناك من أجل تكريس شخصية مميزة لمسرح المنفى كامتداد طبيعي لحركة المسرح العراقي العريقة ولتكون في الوقت ذاته الرد الموضوعي وصوت الإدانة للمسرح التهريجي السائد الآن داخل الوطن.

لقد كانت مسرحية «الموت والعذراء» تجربة واعدة وكانت الثمرة مجموعة من الهواة تم صقل امكانياتهم الادائية (بعضهم له تجارب سابقة) والارتقاء بمستوياتهم بشكل ملفت وبوقت قصير، فهناك بتول عباس واسماعيل زاير وفاضل زنكنة الذين لعبوا الادوار الرئيسية وعناصر شابة اخرى كأريج وفيروز وهيفاء بالاضافة الى مجموعة الاطفال الذين اضفوا على العمل احساساً يعبر عن شمولية الكارثة.

ثم يأتي دور الفنان التشكيلي حقي جاسم البستان وسلام علي مهدي اللذين هيئا للديكور بشكل يذكرنا بفنون اوائل عقد الثمانينات التشكيلية، وربما كان لهذا مغزى زمني واضح للاشارة الى أوان بدء الكوارث التي مازالت تتعاقب.

اضافة الى مجموعة اخرى من الفنيين والعاملين كجلال شيرواني ووضاح كورابي اللذين ساعدا في الاخراج. وزهير المداح وصلاح كوراني الذي اعد الموسيقى، «والجندي المجهول» ابو حسن الذي تولى مسؤولية الانارة.

اخيراً، فان «الموت والعذراء» جهد متميز تجدر الاشارة اليه والاشادة به في زمن اللاممكنات.

السويد، ١٩٩٦/٥/٢٠

«سلاماً يا غريب»

سلاماً.. عبد الغني الخليلي
سلاماً.. ذاكرة الأشرف النجف؟

مهدي محمد علي

«في هذا المنفى البعيد لم تُبقِ الغربةُ والوحدةُ لذاكرتي المرهقة بسببها من ذكرياتي في مدينتي العتيقة (النجف الأشرف) إلاّ القليل منها، فأنا تعب وهموم وطني وأوجاع أهله ما انفكت تعذبني، ونزولاً عند رغبتك ساكتب قصة مدينتي وإن كنت -كما تعرف أنتَ- لستُ أديباً أحسنُ فن القول، وأن كل حصيلتي وذخيرتي من هذه الحياة هو أني كنت ومازلت صديقاً حميماً للكثير من الأدباء والشعراء والفنانين من أبناء وطني ومنهم تعلمتُ كيف أتذوق حلاوة الشعر وعذوبة النثر وأرى الجمال في زهرة الرمان ذات اللون الأحمر الرقيق وفي ألوان السحر البغداديّ الأخضر الشفاف».

.. تلك هي الفقرة الأولى من (صورة نجفية)، أحد أهم الفصول في كتاب عبد الغني الخليلي الصادر حديثاً عن (دار المنفى-السويد)*.. هذا الكتاب الذي جمعه ورعاه صفوة من أصدقاء الخليلي الذي له من الأصدقاء ما لا يحصى، انطلاقاً من محبته التي لا تُحدُّ للناس والحياة والأدب والأدباء!

.. وإذ يحلو للخليلي عبد الغني أن يعتبر نفسه صديقاً للأدباء والشعراء والفنانين، فيخرج نفسه من صفوفهم ليكون من مريديهم،. . . يحلو لي أن أكون من مريدي الخليلي عبد الغني، شيخاً نجفياً يشرفني اللجوء إلى حلقته، رغم لجوئه الموجع والاضطراري، إلى بلد شبه قطبيّ شماليّ. . . ولكنَّ له قلباً يذيب الصخر، فماذا يعني الثلج

* سلاماً يا غريب- ١١٨ صفحة- صمم الغلاف محمد سعيد الصكار.

والصقيع؟!. . . ذلك أنَّ في صدره «نجفاً» دائماً، ليس كلُّه قبوراً، بل هناك الكثير الكثير من نبض الحياة الذي يجعل مقبرة (وادي السلام) حديقة للعالم المحيط، ولنسمع الخليلي كيف يقول:

«مدينتي هي منزل المغني القائل: «أنا حنين ومنزلي النجفُ»، وهي مرعى القطا ومنبت الشيح والعوسج ومنجم الحصى اللماع ووادي الخزامى والشقيق الممتد حتى كثبان نجد وشواطيء الفرات وحدائق الخورنق وبساتين السّدير، هناك يقيم (النعمان) وشاعره نابغة بني ذبيان، وحيث ترعى (هند الكبرى) اديرتها المبتلة بماء الياسمين وبدنان الخمر ودخان المجامر وحيث يُنعمُ الرهبان النظر من فوق العلالي إلى أشجار الكرم تتسلّق أسوار تلك الأديرة وحيث يغنّي (أبو نواس الكوفة) محمد الثرواني بشعره أيام (الأكيراح) وريحان الجنائن وأباريق الندامى كطيور الماء تشرق بها عتمة الخمّارات في زوايا الكوفة».

. . .هنا يثير الخليلي عبدالغني فضولنا وشهوتنا لأشعار محمد الثرواني (أبو نواس الكوفة) فنركض الى الهوامش على الفصل، فنقرأ أبيات الثرواني المغازلة لأبيات ابي نواس التي مطلعها:

يا ديرَ حنّة في ذاتِ الأكيراحِ — من يصحُ عنك فإني لستُ بالصاحِ

نقرأ أبيات الثرواني يرويها لنا ابن النجف الخليلي عبدالغني:

على الريحان والراحِ — وأيامِ الأكيراحِ
وإبريق كطير الماء — في لجةِ ضحضاحِ
سلامٌ يسكر الصاحي — ومائمٌ فتى صاحِ
إذا عزَّ بنا الماءُ — مزجنا الراح بالراحِ

. . .ولا غرابة في أمر شيخنا الخليلي، إذ أمره هو أمر الحياة بكل جمالها ومعاناتها، ولكن بجمالها دائماً وأبداً، والحياة عنده هي الجمال، وعناؤها لا يُواجه إلا بالجمال، فالخليلي -عندي- هو نموذج الحياة العاصرة الفائرة الموارة، وهو لا يصدر إلاّ عن جمال الحياة، أو معاناة فقدان الجمال:

«أذكر.. . في طفولتي، ثلاثة أشياء كانت توقظني من النوم عند الفجر. . . دعاء أبي عقب الصلاة، وقد كان يرتله بخشوع وبنبرة حزينة. وعندما كان يصل بدعائه الى هذه النجوى المؤثرة المريرة: (ربي أرجع كل غريب إلى موطنه)، يخف صوته، ويصير نشيجاً موجعاً. . .».

أما الشيء الثاني فهو عند الخليلي:

«غناء السماور، حين يغلي، وتنتشر رائحة الشاي الأليفة، ويتبدّد السكون الذي خيم على البيت طوال الليل، وتضجّ المدينة بنداءات الديكة، وتعلن من أعلى البيوت عن مولد نهار جديد».

. . .والشيء الثالث أراه ثالثة الأثافي رقةً وعذوبةً وحنانا:

«هديل الحمام الخافت الرقيق عند الغبش، يستقبل به نجمة الصباح، فتبتهج لمنظرها البهيّ المآذنُ ، وقوافل الجمال، والرعاة، ونخيلات باسقة تائهة في رمال الصحراء».

عبد الغني الخليلي هذا. . . الذي هو مثلنا «حملته أمه وهناً على وهن. . .» ولكننا لسنا مثله، لأنه حمل أمه في كبرها –والتهجير– وهناً على وهن حتى مقبرة (شيراز). . . مدينة الأولياء والشعراء كما يقول الخليلي. . . حملها عبر فضاءات التهجير الموحشة والملغومة. . . وهو لن ينسى ولن ننسى نحن ذلك الراعي العجوز الذي استأذنه أن يحمل الأم، وحملها مسافة، فكان أنساً ورحمة:

«. . .قلت له: لن أنسى لقائي هذا بكَ في هذا الليل المخيف المظلم، وما تحملتَ من المشقة من أجل أمي، فرد عليّ قائلاً: أية مشقة يا عزيزي، إن أمك أخفّ عليّ من عنزة جائعة هزيلة ، ثم استغرق في ضحكة حلوة بريئة، فشاركته فيها. فكانت أول ضحكة تنطلق مني صافية عذبة، بعد التشرد والمعاناة، كادت تنسيني بعض ما كابدته من الألم والمرارة في السجن وعلى هذا الدرب الموحش. . .».

إن الخليلي يسجل هذا المشهد باعتزاز مثلما يسجل لنا وباعتزاز مبهر، ذكرى عن معلمه الملاسلمان إذ يروي لنا:

«أذكر. . . ذات صباح صحراوي جميل ، كانت حمامة بيضاء تحلق فرحة بزرقة السماء. . . وبينما هي تنعم بالحرية، انقضّ عليها صقر بني اللون. وبعد معركة دامت بينهما ثوان قليلة، أفلتت الحمامة من مخالبه، وضمت جناحيها، وألقت جسمها الصغير على ساحة المدرسة لتلوذ بوداعة الأطفال وبراءتهم وبحبهم للحمام. وكانت ترتجف وتنزّ دماً خضّب ريشها الأبيض الناعم. ففزعوا من منظرها، واشفقوا عليها. وفوراً أقبل

معلمي حاملاً اليها العلاج والضماد، وجاء بها الى صفنا، وتركها في ركن منه، وأوصانا أن لا نقترب منها، وظل أياماً يرعاها ويطعمها ويحنو عليها حتى شفيت...»!

***

إن كتاب (سلاماً يا غريب)، إنما هو سفر مصغّر، بل هو دليل إلى عالم الخليلي عبد الغني، عالم النجف – العراق، الفجر – الغروب، الله–الناس، العلم– الغناء، النخل– الفرات، الطير– الحنين.

إنه دليل علي شيء نرجو لو كرّس أبو فارس عبد الغني الخليلي جهداً استثنائياً لتسجيله تحفة لنا وتاجاً على رؤوسنا، نزهو به ، ويكون لنا عوناً على بلوى هذه المنافي!

حلب، ١٩٩٦/٥/٢٨



دوريات

عشتار ، تصدرها الجمعية الثقافية العراقية الاسترالية ، العدد ١ ، نيسان ١٩٩٦ . ساهم فيه : عبد الوهاب الطالباني ، خالد الحلي ، فاخر جاسم ، باقر ابراهيم ، وليد مخلص ، د . محمد طه السلامي ، باسم حميد ، حسن ناصر حسين ، زهير الجيزاني ، رياض النعماني ، شوقي مسلماني ، علي الطائي ، رحيم كريم ، جواد ال زوين ، أبو دنيا ، انعام الضفار ، غيلان ، علاء مهدي .

المرتجى ، يصدرها نادي ١٤ تموز الديمقراطي في السويد ، العدد ٤ ، نيسان ١٩٩٦ . ساهم فيه : كاظم السماوي ، طالب عبد الأمير ، أمير هادي ، محمود عثمان ، نجم محمد ، عبد الغني الخليلي ، عبد اللطيف عباس ، هند القريشي ، أحمد الركابي ، سعاد خيري ، عبد الحسين الأعرجي ، هندال السالم ، ع . جمو .

المنازلة «الثانية»

صلاح الحمداني

إلى هالتي مرة أخرى؟ ليكن!

وليعلم الجميع أن صراع الحضارات وتناحرها ليس وهماً ترميه شباك الملاسنة لا على التعيين هكذا فوق سماء الطاولات والمجالس والمآدب، متوخية من ذلك إصطياد جنائن البشرية المفقودة في مياه وعيها الآسن!

أفتح يا سمسم! دخلت الأيام الفاسدة وصهيل لحظاتها المصابة بالجرب.

أغلق يا سمسم! خرج الصفاء ولكن الروح تسممت من عضّ الضواري. كلمات مثل فكوك الضباع تعوي على حدود الهجران. كل شيء يخرج: الشرفات والقصائد، الطغاة وخطايا المقدسات، الـ «فوق» الـ «تحت»، الجوانب والأضلاع، وأخرج أنا متحصناً بصحبة الجميع لكي أكون، ولكن عزلتي تبقى فاتحة لي هوة قبتها، كي تضنكني كلما طرق المساء مضجعي!

لتحتضر إذن كل الأشياء، كيفما يكون وإلى الجحيم، إذ ليس بمقدور حياة المنافي أن تسع هذا الجسد وتبلغ عمق إنتظاره الأبدي فوق سُرّة نبت فيها كل شيء إلا الخلاص. لقد كان في نيّتي أن أكون مسالماً وأن لا أزرع الحرائق في ملذات زنى هذه المدن، أن أخرس مثل أحزان هذا الكرسي المقتلع من كيان الأشجار، أن أثلم مخاريز الخيانات،

أصهر ألجمة خيول الحقيقة وأوقد من أوجاعي سناء للتائهين في حلك الريبة والظنون ، أن أجعل من جراحي انهراً ليرتوي منها الأحفاد ، لا أن يلحسها القطيع وألسنة الأذهان المتكلسة المطلية بفكر حضارة خسيسة ، يقتات وجودها من عيون شعوب ، لا يحلّق فيها غير العمى!

نعم كان في نيّتي ان اعود مثل ولد ضال يفتش في عيون عجائز «الدرابين» ، ورائحة سنين شيخوختهن ، عن رؤى قعر الفناجين المنكفئات ، منابع الرياح . أن ابحث عن خلاّن بلا خلل ، عن أصل الحجارة وأرواح الصفصاف ، وأستحم بسكوت من رأى كل شيء ولم تغنّ باسمه بلاده!

– اليقين!

تقول «هالتي ببساطة ، انها تمتلك اليقين برؤية غائبها المنتظر!

وأنا ماهو يقيني ، وما تراني سأفعل بقلبي الذي يشبه دمية من القش معلقة خلف بوابات النهارات؟ حفنة من الطين بلا روح ، تسيل منها الأمطار واعاصير الغدر ، ورائحة غشاء قرحتي المعطوبة . الجميع رحلوا : الاحباب والاعداء ، الريبة والسكينة ، ولم يبق لي غير نافذة يمتدّ منها ضريح بغداد منحدراً متعرجاً وبلا أفق ، مثل هذا الجسد الصامت المتراكم فوق الأريكة في بناء من الكونكريت ، بلا مصعد ولا سماء ولا قمر يتأرجح في الأقاصي .

اليقين . كررت «هالتي» ، ثم تلتها ضحكة كانت دائماً لغائبها المرتقب!

– وأنا؟ من هو ذاك الذي سينتظرني بعد الآن؟ وما عليه فعله كي أصبح غائباً على أحد يتطلع دوماً مثلك نحو الطريق؟ سكتت!

– تعرفين ، لقد كان في نيّتي ، «ولكن» . .!؟

نعم ، كان في نيتي أن أتلمس عن كثب شهقة كلماتك وأبتلع زفير حنجرتك ، وأشدّ الترحال مثل أبن بطوطة ، وأن لا أكون أرضاً تتداركها الهزائم ، شيئاً يتمرجح هكذا متحلياً بأهداب ظلال الأقمار ، قنديلاً لا يوقد إلا في اعياد الميلاد! أعرف أن الاختيار صعب ، وها أنا ههنا ، كما اشعر الآن ، حصاة رميت سهواً ولكنها بدل ان تكسر زجاج نافذة تراها عبرت سموات القارات ، لتستقر في ثقلها وتطمس في ضحالة المنية والأماني و . . . «ربما» الأمل أيضاً .

دعابةً كان شـمر الحصي بين الأصحاب ، عبث صبا تكسير مصابيح أعمدة الشوارع ، فماذا تراني أفعل هنا بجسدي الحصاة؟ لست أدري! ومن هو ذاك الذي يدري ما فعله الدهر بفؤاد ربابتي؟ وكيف تهجى لساني ما حدث في أقصى ذلك المساء؟

– أسمك؟

– الـ «ربما»!

– الـ «ربما»!

– هل أنت متزوج؟

– عمرك؟

– الـ «ربما»!

– الـ «ربما»!

– عندك أولاد؟

– دينك؟

– الـ «ربما»!

– الـ «ربما»!

– أين تسكن؟

– جنسيتك؟

– في روحي!

– الـ «ربما»!

– أفرغ جيوبك!

– بلدك؟

– هاكم خذوا ذاكرتي فسوف تجدون فيها كل ما تفتشون عنه!

في المساء ذرفت الدموع

وفي الفجر غدرت

أعوام كثار مضت ....

وفي صباح ماذرفوا أمامها الدموع

وحين جاء المساء غدروا بها!

ومن ثم ألقيت بقلبي فوق جليد عزلة السرير مثل رئة متقيحة ، وأخذت أنصت الى صدى نبضات طفولتي . كنت أسترق السمع أشبه بغجري عارٍ يعدو تحت غيوم تتراكض وكأنها أطياف محنطة في فراغات الـ «ربما» ، والـ «لِمَ لا» ، والـ «لماذا» كوابيس مكشرة تسحل بي مقيداً بعربات أجدادي الاعراب ، المعممين المحملين بأثقال عوالم الرجاء والصلوات واللا «أدري» واللا «يقين»! عربات تُطارد هي الاخرى بطقوس لا تسلك الا طرقاً رملية ، تصدح في فضاءاتها قوافل تائهة باللا«منطق» .

فمن هو ذاك المعتوه الذي سيزرع فيّ بذرة الآخر ، هذا الآخر الذي أطاح بكل شيء ،

وكسّرني كصخرة صمّاء . ممازحة كنت «ربما دعبلة» او خرزة تؤنس وقت الصبايا الحافيات ، أولئك اللواتي يبحثن عن الحفر في «درابين» مبلطة بالقير ، فما الذي أفعله وسط حضارة موحشة دهست زهور عمري؟ أين هو مكان هذه الفاختة الغريبة ، وأين يقع الحضن الذي سيستوعب حجم المصيبة؟ أين المفر؟ لقد طالت وقفتي ، في حين جاءت جميع المدن ، تثاءبت ونعست نجومها وجهضت أرحامها الشياطين ، ثم تشردت أجيالها ولم تأت . «ربما» تعودين ، وعلى الأرجح أنكِ لن تعودي! وفي الحالتين سوف لا أعرف ما سأفعله بقلبي ، هذا الوتد الطامس في هذه الحياة الممسك بكل ما يملك من عافية برقبة هذا الوجود اللا«محال»؟ وكيف سيكون عليّ ترويض ما تبقى لي من لحظات العمر في غيابك ، وأي خشوع هذا الذي سيهذّب قسوتي ، وأي ربّ سيربت على أكتاف عزلتي ويريح النفس؟ فالخروج سالماً من بتر الذكر في مدينة لا تخلو ثقافتها من التسبيح بحمده مسألة جهنمية ، أليس كذلك؟ وسوف لا تأتين ، وسأصبح أنا مثل ذلك المتصوف الذي سخرت منه آلهة الآخرين ، ففرش نفسه فوق عباءته وهجر الحياة على مرأى ومسمع الجميع!

لم أقل شيئاً يؤذي أحداً ولم أخدش ملامح الماء ، ولم أدنس عفة شعلة التنور . شدّة من أيام تحتضر على ضفاف الانتظارات ، حطباً كنت ، حقائب بلا مقابض ليس في أحشائها غير الكتب والخبز ، ومدينة تبارك جراحها بالدعوات ، نوراً خجلاً من الحيرة يزهو على معاصم المدن . مدنهم المصابة بالسل والأيدز والأبقار المعتوهة . مدنهم الماثلة بمنازلها وكنائسها وناسها ، مدن بلا «دعبل ولا خرز ولا مصابيد» ولا ماء يُرش عند الغروب ، مدن بلا سلام ، بلا كحل ينعش فضاءاللقالق ، مدن لا تشبع فيها غير الكلاب والماكنات .

كيف أنسى ذلك المساء الذي أخذ من كياني مكاناً له لعبة يتحرش بها ، طيراً يقتلع ريشه ، موقداً لحرق لحظاته الضائعة . مساء جثم بمحاذاتي بكل أشيائه وأسماله وأخذ يهز مهد وجودي ، منحنياً ماثلاً برأسه مثل الجميع وهل حقاً أن رجال الشرق لا يفهمون غير لغة البارود؟ وأن جميع حروبهم فاشلة ، كما يقولون؟

ها أني سقطت جرحاً تهرع منه قبرّات العمر فزعة ، ورغم ذلك لا زال المساء يهز مهد وجودي . قلت مساء الخير! رغم خيبتي في فك قيود جلدي وتخليصه من ضوء الحياة ،

هذا الضوءالمعشش فوق ستائر الغسق... رغم سقوطي أيها الأصحاب أقول لكم مساء الخير!

ما العمل حين يُستبدل رجل برجل آخر؟ جسد بجسد آخر؟ وما على المرء فعله حين يتسلل عقل نصفه الآخر متماطلاً يتصبب عرقاً ليحشر نفسه دافئاً مبللاً بين الأفخاذ؟

في المساء بكت

وفي الصباح غدرت .

سنين كثار مضت . . . .

في الصباح بكوا أمامها

وفي المساء خانوا بها!

هي : ماذا فعلت كل هذه الأعوام؟

هو : لا... كوني منصفة . تقصدين ما فعلتموه بي كل هذه الأعوام؟ «كشِ الملك»!

هي : عليك أن تعي بأن المعرفة الحياتية لا تأتي من قراءات الكتب! «ماتت القلعة»!

هو : أكيد؟... أتعتقدين أن الذي لا يمسك كتاباً في حياته ، الا نادراً مثلك ، هو الذي يفهم؟ «مات بيدق الوسط»!

هي : ها قد مضى ربع قرن تعيش في وسطنا ولم تفهم ذلك فماذا تعلمت منا إذن خلال كل هذه الاعوام؟ «مات الحصان»!

هو : منذ زمن وأنا أعرف ما اصابني . وكذلك اعرف اني حين انبس بكلمة صباح الخير اهاجم بساعات تشهر بوجهي فؤوس ثوانيها . ورغم ذلك كنت ألفظها : صباح الخير أيتها المصائب . مرات ولكي لا تزهق روحي ، استعير ركاب جياد البراري واهرب . كثيرون هم اولئك الذين اوقفوني وانا اطارد مرعوباً من الصباحات ، ومنهم من حاول ان يسلخني حتى وانا حي انبض ، لا لشيء فقط لانه يبحث عن دليل ما لوجوده ، دليل بلا شكل ولا رائحة ، دليل يجهله ربّ معابد الغرباء الذي يقاسمني كسرة اللوعة والصبر .

هي : تطلع قليلاً الى مكتبتك ، ماذا ترى؟ «مات بيدق لم يكن محمياً»!

هو : أرى حشداً كبيراً من الكتب راقدة فوق رفوف مليئة بآمال وأوجاع الإنسانية . «كش ملك»!

هي : وما هي النتيجة؟ «حركة لم أفهم مغزاها»!

هو : ماتقصدين بذلك؟ «مات الفيل الأبيض»!

هي : ها أنك تقيم الدنيا وتقعدها لا لشيء ، فقط لأن نصفك الآخر ، كما تقول ، وهب جسده الى رجل غيرك . فهل لكَ أن تُفهمني ما فائدة كتبك ودراساتك ومؤلفاتك؟ «كشِ الوزير ، وانتبهي فالملك في خطر»!

هو : هل أفهم من هذا ، أن على من يقرأ ويؤلف ، أن يقدم الجزية والشكر الى من يدنس نصفه الآخر؟ «ولِمَ لا» أفك أزرار ثوبه بنفسي على أساس أنني مثقف متنور؟ وحتى اكون بمنطقكِ تماماً ، فعليّ أن أضع صورة كبيرة بالالوان لهذا الخنزير في وسط غرفة النوم . وحتى اكون متحضراً بعين غبائكم ، فما عليّ الا ان اختار صورة تظهره وهو عار . اليس كذلك؟ «مات الوزير»!

هي : غريبون أنتم الشرقيون ، تربطون دائماً شرف المرأة بما تملكه بين فخذيها؟ «كشِ الملك»!

هو : وكيف تريدين منا ان نفعل اذن؟ ان نضعه في حذائها؟ اليس منه قد ولدت البشرية؟ واذا كان حقاً ما تعتقدون بأن جميع حروب العرب فاشلة ليكن! «ربما» ولكن هل في امكانكم أن تخبرونا ما هي حروبكم؟ «كشِ الملك مرة اخرى ، واحذري فانه فعلاً في خطر»!

هي : ربع قرن تعيش في وسطنا ، ولم تفهم شيئاً! «حركة من أجل إنقاذ الملك»!

هو : «ربما» ترونني وكأني كائن نصفه حصان ونصفه الآخر صقر مثلاً ، كائن نصفه نهار ونصفه ليل ، ماء ونار ، شمس ومطر ، تراب وحجر ، أو عفريت ، «لِمَ لا» عفريت طيب القلب يرقص بلا هوادة في حمم جحيمكم ، ملاكاً تتقطر من صدغه البلاهة . لقيطاً بائساً يستجدي الحنان ، كائناً ذا قرون ، أو رجلاً بلا قلب او «ربما» ترونني وكأني ذيل ، فقط ذيل يهز حاله لكي تعطوه بعض سعادة بقطارة مثقوبة .

هي : ماذا تعلمت منا خلال كل هذه الأعوام إذن؟ «احذري سيموت الملك في نقلتين»!

هو : اللعنة «ربما» صحيح ما تقولين! كان عليّ استئصال رجولتي قبل أن تطيء اقدامي دياركم ، أن انتزع قلبي بنفسي على حدود بغداد واطعمه لكلابها ، اللعنة ، كان عليّ ان اتمدد هادئاً فوق غيمة مسافرة دوماً فوق اعمار البشر ، غيمة عذراء لا مطر ، اربط

عيونها كي لا ترى مأساتي وتدمع ما في روحها ، وتتركني اسقط من اقصى الاحلام البريئة ، الى قعر فراغ الكوابيس المطلقة! كان عليّ أن أصنع قفصاً من الجليد لهذه الـ (٨٦٤٠) يوماً ، المضرّجة اليوم بوحدتها الجهّاضة ولحظاتها المهللة بالخطل ، وأن لا أتركها تهرع هكذا كما تشاء ، تاركة بطولات وفائي ، مهزوماً يحتضر في ميادين لا ينبت فيها غير الغدر . حبي الذي يدور في دوامة عاصفة بالرذيلة . اللعنة على أرواح الأصحاب المنافقين والمنفيين المحتالين! اللعنة على الذهاب والمجيء إلى هذه البلاد التي تنهش بالانسان بلا حياء . «كش الملك»!

ليكن... فسوف لن تجفل روحي بعد الآن من زيف الرغبات ولن يؤثر بي الغدر الذي كان ، والذي ينتظرني في منعطفات طرق الحياة ، فما فائدة تذييل عقد الوفاء بالصدق ، ليتطلع الجميع قليلاً إلى أعماق عهود الرجال ، لكي يستوعبوا أخيراً ما تعنيه وعود النساء . أن ما يجول في روحي سيبقى مجهولاً لدى الفضوليين . ما في داخلي هو خارجي وما في خارجي قد تقاسمه الجميع . سأنتظر عند دكّة غبش الغد «المنازلة الأخيرة» وسأريهم شقوق فؤوس الخيبات وكيف يتحمل جريح مثلي حبات الملح الخشن . جريح «ربما» يعذُر ولكنه لا ينسى! سأطعمهم قيح ما تتركه جلدات هذا العمر العاهر ، الذي تحول الى مأوى لا تنمو فيه غير الذميمة . هكذا سأكون ، متنقلاً وسط ما تبقى لي من عمر ، جريحاً بفأس شر هؤلاء الآخرين ، الطامس في ظهري . كأني كيف أصف ذلك! كأني مثل أرض بلاد الرافدين ، وديان عميقة فاغرة ، أكواخ وصرائف ، جبال شامخة ، حقول ومروج نخيل ، بساتين وأرض شاسعة ، جنائن ومعلقات ، وأنبياء لا أحد يدري كيف استخدامهم ، وتاريخ مشتعل دوماً بالحروب واليباب ودخان البارود ، ولكن الشمس مشرقة . «مات الملك»!؟

باريس ـ بروكسل ١٩٩٦/٤/٢٦

اندثار

شعر: واصف الشنون

•

اتممنا اندثارنا في الغبار

منتظرين . . .

في عتبة الباب السفلي

للحلم المطارد عصفوره

نريد أطرافاً صناعية . . .

عكازات . . .

غير هذه الاطراف المشتتة

سحباً في ظهيرة الصيف الماضي

نتصل فيها . . .

نهرب . . .

نعتزل الجثث المزوقة

شتائم ،

أكاذيب ،

دروشة

نعلن بأنا كبار المفلسين

ندخل الى الفراغ ،

الفراغ

نعيد ترتيب المكعبات

صامتين

كممحاة هائلة

رفحاء ١٩٩٦/١١/٥

من الشعر الكردي الحديث

موت المرآة*

صباح ره نجده ر

فتياتي
ذهبنَ لرحلة النوم
تُرى ماذا سيبلغن في هذا الحُلمُ
(.....
.....)
أطبقت أمهن جفونها بحرارة
«تشابكت مع رموش نجمة لبرهة ، سحبت رموش النجمة أناملها نحو الفجر بهدوء ، وامتلأ فراغ جفنيها ، حينها دخلتا شرنقة النوم الكسيحة . عند رؤية المنظر الأول من الحُلمُ كان البحر يزحف على زجاج النافذة ، تغتسل فيه الهياكل وتتدفق أبخرة الفظاظة من أفواهها . الغابة كانت صحراء مقفلة ، لا يمكن الغناء فيها»
وأنا المغامر
بين العلا والهاوية
غرفتي الصامتة ، فاجعة

* مقطع من قصيدة.

أشعلتُ فانوساً تحت اللوحة
السجائر آلهة السكون
في الخارج
«تصفعُ الريح وجنة الاشجار والشوارع والنوافذ والأعمدة والأيتام المبعثرين داخل الازقة الجميلة . تتساقط شعارات الجدران واحداً تلو الآخر ، أو يقتلعها الأيتام ليتدثّروا بها ، ماذا لو تحققت الاحلام الراقدة في الشعارات»

(.....

.....)

اوصدتُ بابَ ذاتي بوجه اللوحة والسجائر والفانوس
خرجتُ

أنا الذاهل الواقف في مفترق الهاويات الثلاث

«دونَ شغب الأزقة الجميلة أهداني الفنان سهواً ذلك الرجل المتأمل القابع في اللوحة ، أبعدتُ تأمله عن تفكيري منذ زمن ، أردتُ تهشيم اللوحة ومرافقته في نزهة نحو الغروب»
حتى يندهش من انتظام الازقة الكريهة
ويغفو ثانيةً
ليضجره اضطراب الازقة الجميلة
الانتظام لا ينام
الفوضى لا تنام
الازقة الجميلة

يحميها الكذبُ الفتن والتآلف

الازقة الكريهة

ترعاها الطفولة والتآلف والبراءة

ترجمها عن الكردية: نازاد صبحي

قصة قصيرة

إنه

عبد جعفر

لا اعرف من الذي كان يقصده جدي ، قبل ان يغلق عينيه الى الابد ، حين اشار الي محذرا . . . ليلتها كانت الدروب مظلمة ممتدة كسخام يملأ الافق كله . .وبدت البيوت ككهوف الشياطين . «لا أنس ولا جن» يلوح للناظر . . قلبت الامور في ذهني عدة مرات ، ربما كان يقصد الرجل السمين المترهل صاحب البقالة ، فهو صامت دائماً ، يتلصص على الجميع بنظراته ، لا يرد على تحية ، ولا يلقي السلام ، يعرض بضاعته كيفما اتفق . . مبعثرة هنا وهناك ، لا يعنيه امر الزبائن ان اشتروا منه ام لا . . مصلوب على كرسيه مثل ابي الهول لا يتحرك ليمد يده للنقود التي يتركها الزبائن أمام منضدته المهترئة . تجرأت ذات مرة ، واخذت الدراهم من امامه ، لم يقل شيئاً ، هربت لم يركض خلفي ، فانطفأت نشوتي بالسرقة ، فاعدت النقود اليه ، انه هو . . إن جدي يكرهه . . والا لم لمح اليه . بدأت اكرهه ايضاً ، اكرهه بعمق ، اخذت اضايقه واتضايق منه ، الى ان انزلقت كراهيتي له ذات يوم تحت عجلة مقعده المتحرك ، وانكمشت تحت ساقية المقطوعتين . . هالني المنظر وافجعني ، اعتذرت له . لم يكن يسمعني ، بل حدق في وجهي طويلاً وبصق . . اذن لم يكن هو ، ربما تكون حميدة التي اعرفها . ان امي لا تحبها ، كانت تختطفني من بين الاولاد تأخذني الى غرفتها وتهصرني وتجعلني استقلي فوقها ، وتقبلني بقوة لتحبسني ساعات وساعات بين ساقيها الطويلتين ، قبل ان تطلقني

حائراً تعباً ، وكلما احاول ان اهرب منها ثانية ، تلوح لي بالمناديل المونة والنقود ، تسحرني بالكلمات اكثر من لمساتها الرقيقة فتعيدني الى شرنقتها ، لكنني بدأت ابتعد عنها واسمعها شتائم مقذعة ، ولم آبه بتوسلاتها ان اكف عن اذيتها وقولها بانها تحبني ، الى ان اكتشفت الشرطة جثتها في بستان المختار . اذن كنت على خطأ ، لم تكن هي ، ربما تكون خديجة ، نعم . . هي وليس غيرها ، فهي رجل بهيئة امرأة . . كل النساء تقول انها عاقر . ويغالي البعض في القول بان زوجها لم يقترب منها في ليلة الدخلة ، وانها كانت رجلاً قد ضاجع زوجة اخيه فمسخه الله امرأة بهذا الشكل . منطوية على نفسها ، لا تحضر حفلة عرس ولا مأتماً ، ولم أرها يوماً تبدل ثوبها الازرق الداكن المائل للسواد ، فهي لا تنزعه ، كما تقول خالتي صفية ، الا وقت دخول الحمام ، الا انها لم تعد تشاطر النساء الذهاب للحمام الشعبي ، من يوم الحادثة حين جردتها النساء من جميع الملابس بقوة ليكشفن ان هذا المخلوق يشبههن تماماً . . وتأكدت احداهن اكثر ، حين مدت يدها الطويلة ما بين الساقين ، جعلت تبكي وتتوسل ان تتركها . قريبتنا حليمة التي نقلت الخبر ، قالت ان زوج خديجة حين علم بالحادث ، اخذ يعلق امام دكانه انواعاً مختلفة من السروايل النسائية الملونة ، وكتب على كل واحد منها اسم احدى النساء اللواتي اشتركن في اغتصاب زوجته في الحمام . . وثارت الضجة ، وكان جدي على رأس المحتجين ، لان زوجاته الاربع اشتركن بالواقعة ، ولم تنفع وساطاته في اقناع زوج خديجة بالتخلي عن شرطه لرفع السروايل ان تفعل زوجته مثلما فعلن بها . لا اتذكر كيف انتهت الحكاية ، ولكن قيل ان اتفاقاً تم بالسر ان تأتي النساء اليها واحدة بعد الاخرى ، ومن يومها تجنب الجميع الغمز عليها او مشاكستها او الاتصال بها وحتى جدي لم يعد يتأفف ويتعوذ من الشيطان حين يذكر اسمها ، ولكن حين يغضب يهدد زوجاته بأن يفعل بهن كما فعلت خديجة بهن ثم يغرق بالضحك . . اذن لم تكن خديجة فمن الذي يقصده جدي؟ . ها قد عرفته الان . . انه معلم القرية هذا المتبختر ببذلته وربطة عنقه ودراجته الهوائية ولهجة المدينة . إنه هو . من يوم مجيئه عرفنا كل النحس من ظهور الشعارات الغريبة على الحيطان وظهور الغرباء بأوقات غير معهودة ، والشرطة التي تأخذ الرجال من احضان الزوجات الدافئة .

حين اخذوا جدي وأعادوه متورما ، مسوداً ، كان اول شيء فعله انه منعنا من الذهاب

الى المدرسة او فتح كتاب او كتابة رسالة او عريضة ، وطفق يتعوذ كل يوم من الشيطان الرجيم ومن المعلم المشؤوم ، ولم يهدأ الا حين ظلت الشعارات تظهر بعد اعتقال المعلم ، فقال جدي مستغرباً كنت اظن ان سخام الوجه كله من هذا الاستاذ . .

فاذا لم يكن المعلم ولا خديجة ولا حمدية ولا البقال ، فمن يكون؟ . فكرت ان اذهب لشيخ الجامع ابوشاكر اسأله عن معنى وصية جدي الناقصة ،عن شطرها المحذوف ، وعدت عن الفكرة قبل وصولي اليه ، لاني تذكرت خلافاته مع جدي المريرة حول ايجار الدكان ، وربما يعتقد انه هو المقصود فيسود ايامي ، ولو اني اتذكر انه قال بعد وفاة جدي :ما معنى الحياة بدون نكده اليومي؟ . الامر بدأ يقلقني اكثر . . كيف الوصول الى تلك الكلمة الناقصة في وصية جدي؟ وكلما احاول ان اتغافل عنها تتلبسني كابوساً يؤرقني . ولما لم أعد اصبر على تحمل همي وحدي ، بحت لأمي بالسر ، قالت لي : لا تقلق -الله يرحمه- خرف آخر ايامه . ولما عدت إليها ثانية اشتكي من ارقي وقد علاني الشحوب ، قررت اخذي لملا جواد .

كان طقس الذهاب للملا قاسياً ، غسلت امي جميع ملابسي واخبرتني ان التحف بأزارها حتى تنشف ، ثم غلت ماء ووضعتني في الطشت . وكلما اشتكي من حرارة الماء تضربني ، وتقول لي وهي تدلك جلدي بقوة . الا ترى هذا الجرب؟ .

في العصر ، وقت زيارة الملا كنت ألمع مثل زجاج سيارة مدير البلدية ، فقد دهنت امي شعري بزيت ابي الاخضر . ووضعت في قدمي نعال خالي الطويل الذي متعني طيلة الرحلة بالصوت الخارج منه عندما تبدأ راحة قدمي الصغيرتين تزلج فيه كلما امتزج التراب الحار مع العرق المتصبب منهما ، تأملني ملا جواد ثم بسمل وحوقل وفتح فمي وبصق فيه . كتب بالزعفران الاصفر تعويذة طويلة ملأها بالحروف والرسوم . وقال لأمي ان تعلقها على صدري لتقيني من الشيطان الخناس الذي يوسوس في صدور الناس .

دست امي النقود تحت حصيرته الصغيرة وقبلت يده ودعت له بالخير . سحبتني من حضرته برفق ،وما ان خطوت خطواتي خلف امي تاركين غرفة ملا جواد المظلمة المشبعة بالبخور ، حتى احسست بدوار يعتريني وبدأت اتقيأ وارتجف والعرق يتصبب من جسمي . امي القت نظرة مبهمة الى غرفة ملا جواد ثم نزعت فوطتها البيضاء عن رأسها وبدأت تمسح بها وجهي . . كانت دمعة مترقرقة في عينيها . في البيت دثرتني واشعلت كل

البخور ووضعت فيه التعاويذ . . وسمعتها تقول لاحدى عماتي ، ان عينا اصابتني . وغابت عن ناظري حيث بدأ هواء الغرفة يصبح ابيض مثل الحليب ، تلامسني حمدية برفق وقبل ان تقبلني ، قالت لي : انت ظلمتني اكثر من اهلي الذين قتلوني غسلاً للعار . اما البقال . . فجاء ضاحكاً يقهقه بصوت عال . . . ثم ذهب مترنحاً تاركاً ثقل كرسيه المتحرك على اطرافي . خديجة لامتني مولولة وقالت : لم اخرجتني للنور فأنا مرتاحة هكذا من شرهن . . واراد المعلم ان يعاتبني فبادرته قائلاً : هو أنت . . ضحك جدي وطفق يؤشر كآخر ليلته معي في مضيف مغامس . التفت فوجدت مرآة كبيرة . وظهر فيها وجهي كبيراً وقد اخضرت شواربي بكثافة . . إنه . . كانت امي تنظر الي وتمسد جبهتي بفوطتها المبلولة .

قالت لي : الا تأكل . . .

قلت : عرفته

قالت : انه يهذي

وبدأت تبكي وزادت من احراق البخور وقرأت كل الادعية لطرد الشياطين . ونذرت ان شفيت انها ستقدم ثلاث ذبائح لأبو الجوادين ، فاستغربت من امرها وهي التي لا تدخل اللحم للبيت الا في المناسبات المهمة جداً . كما استغربت من جدي حين تمدد في مضيف مغامس وهو يحتضر وقال لي لا تخبر احداً . . اني اعرف نفسي . . تعال اقترب . . اقتربت كانت عيناه غائرتين في محجريه . . ولحيته البيضاء ترتجف ، رفع يده وقال : إحذر م . . . وسكت . رفعت الفانوس في وجهه ، مازالت عيناه مفتوحتين وابتسامة ساخرة تعلو محياه . . صرخت بصوت عال . . سمعت أمي تقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، اجلستني في حضنها ومسدت جبهتي بيدها وقالت ذهب الشر . . راحت الحرارة عنك . . سأحضر لك لقمة تأكلها . وخرجت ، زحفت باتجاه المرآة وحدقت بها كان وجهي ذابلاً ، يستطيل مرة ويعرض مرة اخرى ، ابتسمت فبانت اسناني الصفراء كأسنان الحمار ، كشرت عرض وجهي وكبر انفي وتضخم رأسي ، وأخضر شاربي وكبرت لحيتي وكادت المرآة تنفجر من استطالة هذا الوجه الذي احمله . . فأيقنت ان جدي كان يحذرني من نفسي في تلك الليلة المعتمة .

لندن ٢٤/١٢/١٩٩٤

قصة قصيرة

كوابيس الزنزانة

حمودي عبد محسن

كنت أتقلّب على السرير قلقاً ، صامتاً ، ثم رحت انظر الى السقف ، وأواصل تحديقي إليه ، بينما كانت رائحة جسد زوجتي ، الغافية إلى جانبي ، متعلقة في وجهي . لم أكن اريد النهوض ، بالرغم من ان الساعة كانت تشير الى الثامنة صباحاً . وضعت اصابع يدي على شفتي ، لكي أدفن التثاؤب الشرس في داخلي ، وأبعد عن مخيلتي الصور الباهتة المشوهة التي بدأت تتراقص بسرعة امام ناظري . وشيئاً فشيئاً ، أخذت تتراكم في السقف ، ممزقة جسدي المهشم في زنزانتي تحت الارض . لم أخرج منها الا يوم أمس . عبثاً حاولت ان اقبر تثاؤبي ، ليحلَّ محله صوت متهدج لا يشبه صوت السجان الخشن ، وهو يفتح ، باب زنزانتي بتمهل ، ويأمرني .

– حضّر نفسك .

انتابني اضطراب عميق كان يلازمني منذ ان اودعوني الزنزانة جعلني اتصور باديء الامر انه قرار الاعدام ، فصار السجان قبالتي مشنقة ، استغرقت في تأملها مذعوراً ، صامتاً ، ومنصرفاً عن أي شيء يربطني بالدنيا ، لكن تلك اللحظات المرعبة لم تدم طويلاً ، فقد اكتشفت انه السجان لا المشنقة .

لملمت حوائجي بسرعة فائقة . عصبت عينيٌ . اجتزت الباب منهك القوى ، وهو يقودني من ذراعي ترافقنا طبطبة حذائه . لا أتذكر كم من الوقت مضى وأنا أسير في دهليز

بارد يعود لعصور سحيقة يحتبس فيه الهواء ، ويمتلىء بالعفونة . فجأة توقفت طبطبته . كاد قلبي ينفجر كالبركان . تسمرت في مكاني مرتعباً . وسيطرة عليَّ فكرة رهيبة : سأخرج من الدهليز ميتاً .

مشيت مرتبكاً ، حزيناً ، وأنا أكتم صرخات مخنوقة في أعماق كياني ، وأتصارع مع جوقة شياطين تودعني بصيحات جنائزية .

أطلقوا سراحي . . .

سرت في الشوارع والازقة والاسواق تائهاً ، لا أعرف شيئاً . سرت بخطوات قصيرة وبطيئة استنشق حريتي ووجه الجلاد بصوته وانفاسه المرهقة لانفاسي ماثل أمامي ، وورائي وأدوات تعذيبه تلاحقني . لا أدري لماذا كان يغيظني نور الشمس الذي لم أره لمدة طويلة ، ويغيظني الناس الذين يمرون بقربي دون ان يعيروني اي اهتمام . اجل ، اغاظني ضجيج المقاهي ، والصياح ، والضحكات ، وصخب السيارات . لا أعرف في اي سجن كنت . كل ما أتذكره اني كنت في زنزانة تحت الارض .

خالجني شعورمرير بأنني أدخل دهليزاً آخر ، مظلماً ، بلا نهاية ، فقد كان سجني تحت الارض موحشاً ، وها أنا ذا أعيش فيه ، رغم انني طليق فوق الارض .

* * * *

تثاءبت . كان تثاؤبي خافتاً مثل أنيني في تلك الزنزانة الذي كان يعلو وينخفض ، منتشراً على اجزاء جسدي وعلى جدران الزنزانة الرطبة المتآكلة المقذوف بينها وحيداً . من شدة التعذيب راحت مخيلتي ، تسيطر عليها كوابيس مرعبة ، فقد رأيت جدران الزنزانة تتسع الى مالا نهاية ، وأنا أركض كالمجنون والجلاد يركض ورائي وهو يحمل بيده سيفاً . . . بعدها تخيلت انهم رموني في بركة ديدان قذرة اخذت تنهش جسدي وأنا أتلوى واصرخ ، وأموت ، وأحيا من جديد ، وأموت مرة ثانية .

تململت في الفراش ، وطويت ساقيَّ . أردت أن أوقظ زوجتي . دغدغت أصابعي أجزاء عدة من جسدها الناعم ، حتى توقفت عند بطنها الذي أتلذذ كثيراً حين ألمسه . أطلقت ضحكة ناعسة ، ثم سحبتني برقة من شعر رأسي الى صدرها ، وطوقتني . أرتميت فوق سخونة وجهها ودفء جسدها وهي تقول : عذابي الطويل زال لما فتحت الباب ورأيتك . . . زال ، زال لما رأيتك .

رقدت قربهامسترخياً ، وأنا أهدهد كلماتها ، واردد في داخلي : الحب ، ماألذه! لكن بغتة عدت الى عوالمي ، الى جثث الموتى التي تتوزع فيها ، وصراخ المعذبين ، والدهاليز العفنة ، والابواب الموصدة . ثم غزت مخيلتي صورة مجنونة لزوجتي وقد عُلّقت عارية من معصميها في سقف زنزانة تعذيبي ، وصار جلادي جلادها ، أخذت تصرخ بوحشية من بشاعة التعذيب ، وتنزف دماً : أحمر ، أصفر ، أزرق .

وانا تائه في كوابيس الزنزانة ، وعفن الموتى ، وسحنة الجلاد الكريهة ، ايقظتني طرقات على باب الدار . اعتدلت زوجتي جالسة وقد شحب وجهها وتراقص القلق في عينيها . كدت ابعد الوساوس بالقول ان الطارق ربما هو قريب عرف باطلاق سراحي . لكن طرقات عنيفة اخرستني ، ودبت القشعريرة في بدني حين مسّت يدها الراجفة ذراعي وهمست : يا ستار ، من جاء؟!

ولكي لا تقرأ الخوف في وجهي اشحت عنها هامساً بوهن : «ربما هو أخي . . لا تخافي ، حبيبتي . . .» . لم أفطن ، والطرقات تكاد تمزق اعصابي ، الى أن احداً غيرها لم يسمع بعدُ باطلاق سراحي . لا ادري متى اخرجني عنف الطرقات من الشلل . . فرحت اجرجر قدميّ ، نحو الباب متحاشياً نظرات الهلع في عينيها ، وانا أمني النفس بان الطارق قريب أو صديق . . لماذا يعودون لاعتقالي وقد اطلقوا سراحي البارحة فقط؟ وربما لأطالة هذا الشك ، لم أسأل عن الطارق بل فتحت الباب بيد راعشة .

إقتادوني معصوب العينين وانا أتظاهر بعدم الرعب مما ينتظرني في الزنزانة . . .

السويد

الاشتراك السنوي

50 دولاراً أو ما يعادلها

100 دولار للمؤسسات

يدفع مقدماً بشيك مصرفي إلى رقم الحساب 42-467127

ANI HAMED AYOUB

BANQUE LIBANO-FRANCAISE

Bar Elias, LEBANON

أو يدفع إلى رئيس التحرير

يرجى المراسلة بشأن توزيع المجلة وماليتها على العنوان:

الثقافة الجديدة. سورية. دمشق. ص.ب:٧١٢٢. تلفون: 4449724 فاكس: 4449724



السعر عشرة دنانير